ABU ABDO ALBAGL

د. محمد شحرور

الإسلام والإنسان

من نتائج القراءة المعاصرة

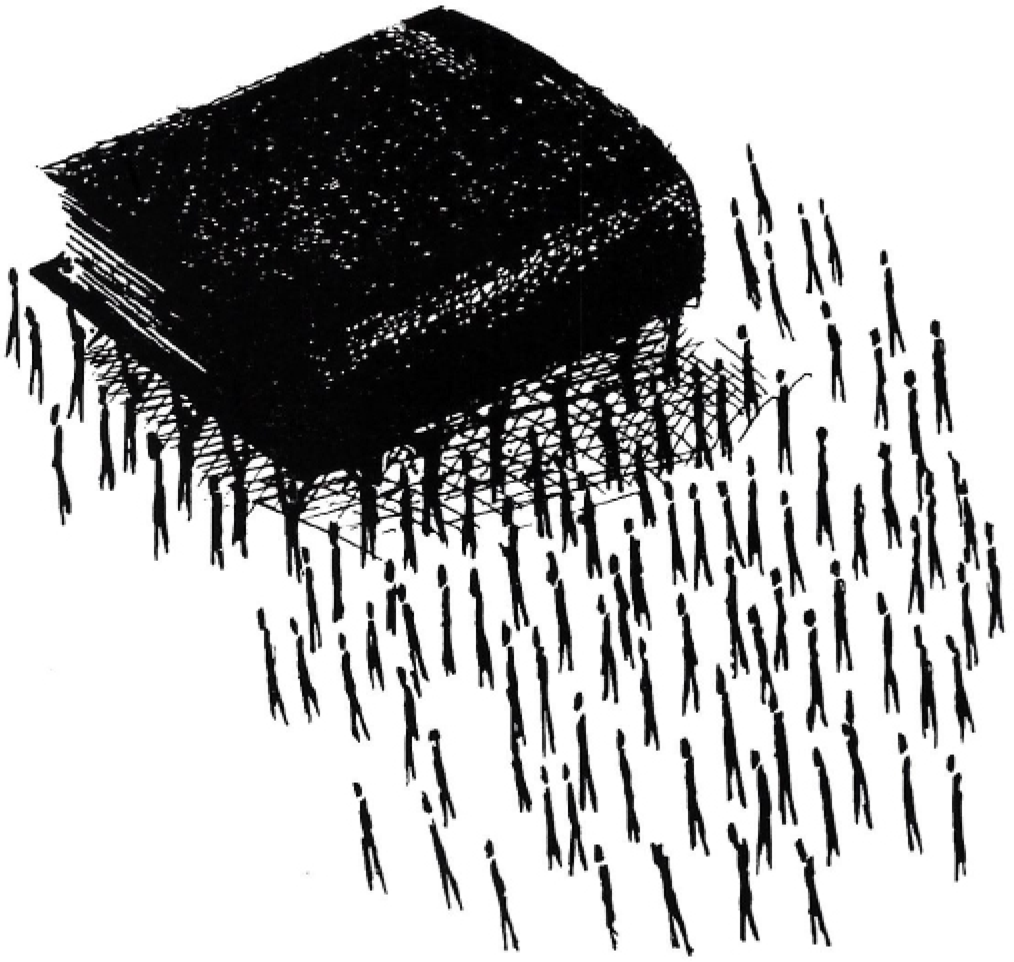

د. محمد شحرور
الإسلام والإنسان

دار الساقي

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

الإسلام والإنسان

من نتائج القراءة المعاصرة

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- الإسلام والإيمان: منظومة القيم
- الدين والسلطة: قراءة معاصرة للحاكمية
- السنّة الرسولية والسنّة النبوية
- القصص القرآني: مدخل إلى القصص وقصة آدم (المجلد الأول)
- القصص القرآني: من نوح إلى يوسف (المجلد الثاني)
- الكتاب والقرآن: رؤية جديدة
- أمُّ الكتاب وتفصيلها: قراءة معاصرة في الحاكمية الإنسانية
- فقه المرأة: نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي
- دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

الدكتور محمّد شحرور

الإسلام والإنسان

من نتائج القراءة المعاصرة

دار الساقي

© دار الساقي 2016
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-947-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

المحتويات

من نتائج القراءة المعاصرة ٧
كلمة شكر ٨
تقديم الكتاب ٩
تمهيد ١١
الفصل الأول: من هم المسلمون؟ ١٥
١- معنى الإسلام من كتاب الله ١٩
٢- العمل الصالح ٢١
٣- الإجرام معنى مضادّ للإسلام في كتاب الله ٦٥
٤- رضوان الله جاء لجميع المسلمين ٧٠
الفصل الثاني: من هم المؤمنون؟ ٧٥
١- معنى الإيمان من كتاب الله ٧٦
٢- الفرق بين الرسالة والنبوّة ٨١
٣- السنّة الرسوليّة والسنّة النبويّة ٩٨
٤- الطاعة اللازمة لمقام الرسالة ١٠٢
٥- طاعته (ص) في الرسالة طاعة متّصلة ١٠٦
الفصل الثالث: لا إكراه في الإسلام ١٢١
١- الفرق بين الطاعة والإكراه ١٢١

٢– الحرّية أساس العباديّة ١٢٨
٣– أنواع الطغيان التي على الإنسان مواجهتها ١٣٧
٤– عقدة الذنب ١٤٥
٥– قضيّة التكفير ١٥٦
الفصل الرابع: المواطنة والولاء للإسلام ١٧١
١– معنى الأمّة والقومية والشعب ١٧١
٢– الولاء للإسلام ولاء للقيم الإنسانية ١٧٧
٣– المواطنة (الولاء للوطن "الولاء للدّيار") ١٨٥
٤– العقيدة القتالية ١٨٩
٥– الفرق بين الشاهد والشهيد ١٩٤
الخاتمة ٢٠٣

من نتائج القراءة المعاصرة

الدين لا يملك أداة الإكراه، لكن الدّولة تملكها.
الدين يُحرِّم ويأمر وينهى لكنّه لا يمنع؛
أمّا الدولة فتأمر وتنهى وتمنع لكنها لا تُحرِّم.
يمكن فصل الدين عن السلطة، لكن لا يمكن فصله عن المجتمع.
القيم الإنسانية من الدين، وتمثل المرجعية الأخلاقية للدولة والمجتمع؛
وكلما علت المناصب زادت المسؤولية الأخلاقية.
سلطة الدين مرجعيتها الضمير، وسلطة الدولة مرجعيتها القانون.
مجال سلطة الدين أوسع من مجال سلطة القانون.
الدين حّدد الحرام، والقانون ينظّم الحلال.
الحرام شمولي أبدي، لكن القانون (تنظيم الحلال) مرحلي متطوّر.
التنزيل الحكيم ختم المحرّمات؛
أمّا السنة النبوية فمارست تنظيم الحلال (القانون المدني)؛
ولا تحمل الطابع الشمولي الأبدي ولا يقاس عليها؛
ولا وجود لما يسمّى وحياً ثانياً، ولا ما يسمّى عصمة الأئمّة.

كلمة شكر

لا بدّ لي من توجيه كلمة شكر إلى كلّ من أسهم في إعداد هذا الكتاب، وأخصّ بالذكر السيدة الباحثة الأستاذة آسية وعيل، والسيدة الباحثة إيمان سهل، وسكرتيري الخاص السيد سلطان العوّا، وإلى كلّ من كانت له يد بيضاء في إخراج هذا الكتاب إلى النور.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

انطلاقاً من قناعتنا بأن الإسلام دين رحمة وتسامح، وبأنه دين تعايش مع الآخر في سلام وطمأنينة، في إطار أخلاقي يسمح للجميع بالتمتع بكامل حرّيتهم وكرامتهم الإنسانية، لأنه دين عالمي يستوعب الإنسانية جمعاء لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣)، وليس دين عنف وقتل وتخريب كما يروّج له، رأينا أنّه لزامٌ علينا أن نعيد النظر في القراءة المغلوطة للدين، ونقدّم الإسلام من منبعه الأساس ألا وهو التنزيل الحكيم، وفق قراءة معاصرة تتماشى مع مستوى معارف القرن الحادي والعشرين والتطوّر العلمي والأخلاقي الذي وصل إليه.

وقد جمعنا الأفكار الواردة في هذا الكتاب من كتبنا المنشورة سابقاً، ونأمل أن يفي بالغرض الذي ألّفناه من أجله، لأنه كما جاء في العنوان الذي وضع له (**الإسلام والإنسان: من نتائج القراءة المعاصرة**)، كتاب أوضحنا فيه كيف يخاطب الله عزّ وجلّ الإنسان في محكم تنزيله، بغضّ النظر عن ملته الدينية وتوجّهاته الفكرية وأصوله العرقية أو القومية، أي على أنّه إنسان قبل أي شيء، وكيف يوجّهه إلهيّاً كي يرتقي بإنسانيته فكرياً وأخلاقياً لبناء عالم إنساني يتساوى كلّ

الاختلافات، لأننا على قناعة بأنه، فقط، بهذا المنظورالواسع للدين، يستطيع كلّ إنسان أن يعيش إنسانيته أينما كان، فيتحقق بذلك الاستقرار المجتمعي في كلّ مكان.

الدكتور محمّد شحرور

دمشق ١٤ حزيران ٢٠١٦

الموافق ٩ رمضان ١٤٣٧هـ

تمهيد

في كلّ مرّة نقف فيها عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران ٨٥)، نجد أنفسنا نتساءل تُرى كيف يمكننا أن نفهم الإسلام بالطريقة المثلى التي أرادها الله عز وجل؟ وعند بحثنا عن جواب لهذا السؤال الجوهري في حياتنا نجد أنفسنا ندور في متاهات كثيرة بين ما نسمعه من هنا أو هناك عن الإسلام، من آراء تكون متناقضة أحياناً وغير واضحة أحياناً أخرى. لذا فضّلنا أن نرجع للمصدر الأساس الذي يمكنه أن يقدّم لنا الصورة المثلى عن الإسلام ألا وهو كتاب الله عزّ وجل كي نتناجى مع روح نصوصه لنفهم منها ديننا بالصورة التي ارتضاها الله وبيّنها لنا في كتابه، باعتباره كتاباً أنزل إلينا نوراً يضيء لنا طريق حياتنا في الدنيا وسبيل نجاتنا في الآخرة. إنه الخطاب الإلهي المباشر لنا، الذي وضع فيه ما يضمن لنا سلامة ديننا، وفتح لنا به طريق الوصول إلى حبّه ورضاه، وما علينا إلّا الغوص في أعماق نصوصه بكلّ ثقة بفطرتنا الإنسانية السليمة الباحثة عن الحقّ لاكتشاف ديننا من جديد بطريقة سليمة خالية من الشوائب، ومن ثمّ إعادة اكتشاف جواهر أنفسنا كما هي على حقيقتها قبل أن يشوبها الشك بسبب كثرة الآراء وتضاربها، بفضل الهبة التي فضّل الله بها الإنسان على سائر المخلوقات في الأرض، ألا وهي نعمة العقل التي تمكّن الإنسان من التمييز بين الحقيقة والوهم أي بين الحق والباطل، وبين الخير والشر أي بين الصلاح

والفساد، ليتمكّن من عمارة الأرض على أسس سليمة .

وإن كانت رحلة الإنسان في البحث عن الحقيقة بدأت مع آدم عند اعتراف آدم بذنبه بعد عصيانه أمر ربه بتوبته إليه عزّ وجلّ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٧)، فإنّ هذه الرحلة ظهرت في أوج صورة لها مع إبراهيم عند وصوله إلى أشدّ حالات الضياع بين ما كان سائداً في مجتمعه من عبادة للأوثان وبين نداء عقله الرافض لذلك والباحث عن الحق: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام ٧٤). فقد تخبّط إبراهيم فترة في الحيرة والتذبذب بسبب رفضه عبادة أصنام من حجارة وبحثه عن الربّ الخالق ذي القدرة العظيمة، فعبد مختلف الأوثان وعاش صراعاً عقليّاً مريراً في مهمّة بحثه عن الحق: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ٧٥-٧٩). وعلى الرغم من إيمان إبراهيم بالله وحده وتقرّبه منه على هذا الأساس، يبقى العقل دائماً يبحث عن أدلة تزيده إقناعاً بما يؤمن به، لهذا طلب إبراهيم من ربّه دليلاً ماديّاً على أنّه هو الخالق الواحد كي يطمئن قلبه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة ٢٦٠)، فجاءه الدليل الذي طلبه من ربّه ليتأكد دون مجال للشكّ من أنه سبحانه وتعالى هو خالق كلّ شيء وهو الله الواحد الذي يستحق العبادة. وهذا الإيمان المعزز بالدليل الماديّ أمدّ إبراهيم

بالقوّة والعزم في مواجهة نمرود وإسكاته بالحجّة الدّامغة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ٢٥٨). هنا يتجلى لنا بوضوح كيف أنّ صوت العقل يجب أن يعلو دائماً على صوت الجهل لأنّه يسكته بالحجّة القاطعة والمنطق السليم، لأنّ الحقيقة يجب أن تتميّز عن الوهم ويجب أن ينتصر الحق على الباطل مهما علا هذا الأخير وطغى.

من هنا تحديداً تبدأ رحلتنا في البحث عن الحقيقة الإلهيّة في كتابه عز وجلّ الذي يتضمّن نصوصاً تخاطب العقل كي تنير له سبيله في الحياة وتخرجه من دائرة الضياع الضيّقة إلى أفق المعرفة الواسع فيتمكن من التقرّب إلى الله من خلالها على بصيرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف ١٠٨)، فهذه البصيرة تمثّل الوعي الذي يمكّننا من التمييز بين الحقّ والباطل بفضل ملكة التعقل التي وهبنا الله إيّاها. ومن أجل الوصول إلى ذلك علينا أولاً التعرّف إلى خالقنا وإلى الدين الذي ارتضاه لنا عن طريق كتابه عزّ وجلّ حتى نوقظ عقولنا من غفلتها ونكون في مستوى الأمانة التي حمّلنا الله إيّاها في كتابه بالبدء بدراسة ما جاء في نصوصه دراسة واعية تعطينا القوة على النهوض بأنفسنا ومجتمعاتنا وإخراجها من مستنقع الجهل والتخلف كي نفهم الدين كما أرادنا الله أن نفهمه حتى نتعامل مع الآخر من منطلق فهمنا الواعي له دون أيّ مزايدات علينا، فنسهم في بناء أنفسنا ومجتمعاتنا البناء الإنساني القويم لننهض بها إلى الأمام في ركب التقدم.

الفصل الأول

من هم المسلمون؟

عند التطرّق إلى الحديث عن موضوع الدين تتبادر إلى أذهاننا مباشرة كلمة "الإسلام"، ونجده عزّ وجلّ يذكر لنا في كتابه أنّ الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ...﴾ (آل عمران ١٩)، وإن كان الأمر كذلك، فما هو هذا الدين الذي سمّاه عز وجلّ "إسلام"؟

هنا تدفعنا الرغبة في طرح سؤالنا مباشرة عليه سبحانه وتعالى دون وسائط بيننا وبينه عزّ وجلّ، لنتحرّى الحقيقة ساطعة من كتابه الكريم دون مبالغات، لنجده يذكر لنا مفردات "التسليم"، "الإسلام"، "المسلم" و"المسلمون" في مواضع متعدّدة علينا التقرّب منها لنفهم المعنى المقصود منها:

١- على عهد نوح: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس ٧١-٧٢).

٢- على عهد إبراهيم ولوط:

- إبراهيم: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران ٦٧).

– لوط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات ٣٥، ٣٦).

٣– على عهد يعقوب: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٣).

٤– على عهد يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف ١٠١).

٥– على عهد موسى وسحرة فرعون:

– سحرة فرعون: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف ١٢٦).

– فرعون: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس ٩٠).

٦– على عهد عيسى: الحواريون: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ٥٢).

٧– على عهد محمّد (ص):

– ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء ١٠٨)،

– ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (الحجرات ١٤)،

– ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ

مُؤْمِنَات...﴾ (التحريم ٥).

نلاحظ أنه ذُكرت في هذه الآيات مفردات ذات علاقة مباشرة بالإسلام والمسلمين، وبالنظر إلى الترتيب التاريخي للآيات كما عرضناه هنا نكتشف أنّ هذه الآيات ذكرت أنّ صفة الإسلام كانت تُطلق قبل البعثة المحمّدية بزمن بعيد جداً ابتداءً من نوح ومروراً بإبراهيم ولوط ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى وصولاً في الأخير إلى محمّد (ص). فصفة الإسلام إذاً عريقة عراقة إرسال الرسل، وكلّ الرسل جاؤوا بدين واحد هو دين التوحيد لله خالق كلّ شيء لأنهم كانوا يدعون إلى توحيد الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له، وصفة الإسلام عامّة حسب سياق الآيات السابقة التي تبيّن أنّ هؤلاء الرسل كلهم كانوا مسلمين وكلّ من اتبعهم يُعدّ مسلماً عند الله عّز وجل. لكن على الرغم من أنّ هذه الآيات أوضحت لنا أنّ دين الله واحد هو الإسلام، لا توضّح لنا ما هو الإسلام وما هي أركانه؟ ولماذا سُمّي هؤلاء مسلمين دون غيرهم ممّن لم يتبعهم؟ وهذا يضطرّنا إلى الغوص أكثر في نصوص كتابه عزّ وجل حتى نتعرّف إلى دينه الإسلام على بصيرة ووعي.

الخط الزمني لتطوّر الإسلام

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس ٧١-٧٢)

﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٣)

﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف ١٢٦)

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء ١٠٨)

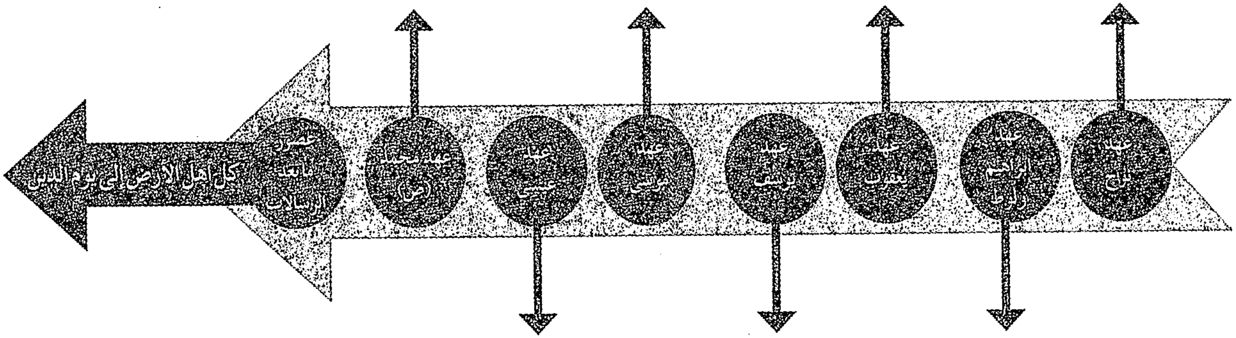

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢)

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا...﴾ (آل عمران ٦٧)

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات ٣٦)

﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف ١٠١)

﴿... قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ٥٢)

١- معنى الإسلام من كتاب الله

لم تحصر نصوص كتاب الله صفة الإسلام بأتباع النبي محمّد (ص) فقط بل جعلتها صفة تطلق حتى على من قبلهم من الرسل وأتباعهم كما رأينا. لكن علينا البحث عن مميزات هذه الصفة أي أركان الإسلام، حتى نعيها ونلتزم بها في حياتنا وفي معاملاتنا، لأنه لا يمكن أن يطلب الله عزّ وجلّ من الإنسان أن يكون مسلماً دون أن يشرح له السبيل إلى ذلك. وبناءً على ذلك نجد النصوص التالية تعرّف لنا الإسلام كما يلي:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصّلت ٣٣).
- ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء ١٠٨).
- ﴿... قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس ٩٠).
- ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ...﴾ (البقرة ١٢٨).

من سياق هذه الآيات نفهم بمعنى لا يدعو مجالاً للشك أنّ الإسلام هو الإيمان تسليماً بوجود الله وباليوم الآخر، مع اقتران هذا التسليم بالعمل الصالح، أي إنّ كلّ من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً يُعدّ مسلماً حسب وصف كتاب الله عزّ وجلّ له، وكي نفهم هذا الكلام أكثر علينا الرجوع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢). ونجد انطلاقاً من هذه الآية أنّها عندما ذكرت أتباع محمّد وصفتهم بأنّهم هم "الذين آمنوا"، وأتباع موسى هم "الذين هادوا"،

وأنصار عيسى هم "النصارى"، وأهل الملل الأخرى كالمجوسية والشيفية والبوذية وغيرهم على أنهم "الصابئون"، وجعلت هناك قاسماً مشتركاً يجمع بين هؤلاء جميعاً على اختلاف مللهم ألا وهو أنّ كلّ من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فله أجره عند ربّه دون أن يبخسه حقه، وهنا نتأكد من أنّ الإسلام بمعناه العام يحتضن كلّ الملل الدينية التي يلتزم أصحابها بالإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح، وهذا يتوافق مع ما قلناه سابقاً بأنّ دين الله واحد وهو الإسلام وأنّ الاختلاف بين الناس ينشأ من اختلاف الملل. على هذا الأساس فإن كلّ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً يُعدّ مسلماً سواء كان من أتباع محمّد (ص) أو كان يهودياً أو مسيحياً أو غيرها من الملل الأخرى. كما نفهم على هذا الأساس أن الله عزّ وجلّ يضع للإسلام أركاناً ثلاثة هي:

أ- الإيمان تسليماً بوجود الله

ب- الإيمان تسليماً باليوم الآخر (ولاحظ معي هنا أنّ التسليم باليوم الآخر يعني ضمناً التسليم بالبعث)، أي إن الإيمان بالله واليوم الآخر هو المسلّمة التي لا تقبل النقاش عند المسلم. وتمثل هذه تذكرة الدخول إلى الإسلام.

ت- العمل الصالح

ونتبيّن من هذه الأركان الثلاثة أنّ هناك جانبين ينبني عليهما الإسلام: الجانب النظري البحت ويتمثّل في الإيمان بالله واليوم الآخر، والجانب العملي الذي يتمثل في العمل الصالح، إذ لا قيمة للإيمان النظري من دون أن يتجلى عنه سلوك عملي خيّر ينعكس فيه. ومن هنا نفهم قول الرسول الأعظم – إن صح – : "الخلق عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله". فإيماننا تسليماً بوجود الله وباليوم الآخر يعني ضمنيّاً إيماننا بأنّ لنا ربّاً ويوماً نُبعث فيه لنُحاسب على أعمالنا الدنيوية، وهذا الإيمان يقودنا فطريّاً للعمل الصالح: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف ١١٠). فكيف نؤمن بالله ولا نشرك به وما هو العمل الصالح الذي يجعلنا مسلمين عند القيام به؟

٢- العمل الصالح

نجد الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم يوضح لنا أسس العمل الصالح الذي يمكن للإنسان عند القيام به أن يتّصف بصفة المسلم عند إيمانه بالله واليوم الآخر طبعاً، ذلك لأنّ سلوك الإنسان يقدّم للآخرين صورة عن فكره وعن قناعاته التي تتجسّد لهم من خلال تصرّفاته. وبما أنّ الإسلام هو دين الفطرة فإن أسس العمل الصالح لا يمكن إلّا أن تتماشى بشكل طبيعي مع ميولنا الخلقية: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠). لأنّ الإسلام هو الفطرة، والفطرة هي الإسلام. فالفطرة التي توحي للنمل أن يدخل مساكنه كي لا تدوسه الأقدام، وتوحي للسلاحف أن تحفر على السواحل لتضع بيوضها، هي ذاتها التي توحي للإنسان أنّما إلهه إله واحد. ونقرأ قوله تعالى:

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف ١١٠).
- ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل ٦٨).

هنا نقف عند مفردة "القيّم" الواردة في الآية ٣٠ من سورة الروم وفي ثلاثة مواضع أخرى من التنزيل الحكيم كالآتي:

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (الروم ٤٣-٤٥)،

- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف ٤٠)،

- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٣٦)،

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠)،

نجد في هذه الآيات، أنّ مفردة "القيّم" التي يصف بها الله سبحانه وتعالى دينه مرتبطة بسياق الآية، إذ جاءت في الآيات (٤٣-٤٥) من سورة الروم مرتبطةً بالعمل الصالح عموماً بعد الإيمان بالله، أي بمعنى أنّ قيوميّة الإسلام تكمن في أنّه دين يوجّه الإنسان في حياته إلى الصلاح من خلال حثّه على القيم الإنسانيّة. وهو نفس المعنى الذي جاء في الآية ٤٠ من سورة يوسف لكن بشكل أدق لأن مفردة "القيّم" هنا جاءت مرتبطة بالعباديّة لله بجعل الدين قيّماً على الناس لأنّه يدعوهم إلى التحرّر من كلّ أنواع العبودية من خضوع للضغوط والإكراهات، والتوجّه إلى الله بكلّ اختيار بالالتزام بالقيم الإنسانيّة والتمتّع بها وعلى رأسها قيمة الحرّية المسؤولة. أمّا الآية ٣٦ من سورة التوبة فقد ربطت مفردة "القيّم" بعدم ظلم النفس، ولا يتمّ ذلك إلّا من خلال التحلي بالضمير الإنساني المسؤول بالتمسّك بالقيم الإنسانية والعمل الصالح. فالإسلام يوجّه حياة الإنسان للصلاح لأنّه يحثّ على القيم الإنسانيّة التي تطيب لها النفس وترتاح إليها وتعيش بها إنسانيّتها، ويبغض الدنيء والخبيث من الأفعال المنافية للفطرة والتي تفسد بها النفس الإنسانيّة وتفقد صفاءها وطمأنينتها سواء من الناحية الجسديّة أو الوجدانيّة أو الفكريّة، فالأمور التي تطيب بها النفس هي القيم الإنسانيّة ولهذا أحلّها الله في كتابه؛ وعكسها الخبائث وهي الأمور

التي تفسد بها النفس ولهذا حرّمها الله في كتابه بدليل قوله تعالى: ﴿... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ (الأعراف ١٥٧). فالله سبحانه وتعالى خلقنا واستخلفنا في الأرض ولا يريد بنا إلّا كلّ خير، بحيث جعل لنا الإسلام ديناً يحثّنا على كلّ عمل صالح يسهم في نقل البشرية إلى أسمى مراتب الرقيّ الإنساني، بينما حرّم علينا كلّ ما يناقضه من خبائث يمكن أن تعرقل مسيرة هذا التطوّر. ويبقى علينا أن نعرف ما هي القيم الإنسانية التي تجعل الإنسان مسلماً عند اتّصافه بها، وهي تمثّل القيم المشتركة بين الرسالات السماويّة كلها بما في ذلك ما زادته واختصّت به الرسالة المحمّدية عمّا سبقها من الرسالات لكونها جاءت خاتمة تحمل طابع العالميّة والأبديّة والشموليّة. لكن إذا رأى برلمان أيّ مجتمع أن شيئاً ما من الخبائث فإنّه يحقّ له أن يمنعه بقانون تشريعي ولا يحقّ له أن يحرّمه.

أمّا الآية ٣٠ من سورة الروم فإنّها تبيّن بما لا يدعو إلى الشك قيوميّة الإسلام كدين عالمي، فهو يقوم على الحنيفيّة أي مبدأ التغيّر وتلك سنّة الله في الكون في كلّ شيء. ومبدأ الحنيفيّة يظهر بشكل جليّ في التشريعات الإنسانيّة جلها التي نجدها كلها تدور في دائرة الحدود الإلهيّة وتفصيل المحكم، فهو قيّوم عليها لأنها كلها لا تخرج عنه، لأن كلّ البرلمانات في العالم تدور في دائرة التشريع الإلهي فهي كلها تشرّع ضمن إطار الحدود وتفصيل المحكم ولا تتعدّاهما، لهذا جاء في هذه الآية قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهو قيّم على كلّ تشريعات برلمانات العالم حتى وإن لم تعلم بذلك، لأنّ التشريع الإلهي الموجود في رسالته الخاتمة تشريع يتماشى مع الفطرة الإنسانية ومع تغيّر ظروف المجتمعات ومستوياتها على كلّ الأصعدة وفق مبدأ الحنيفيّة. ومن هنا نفهم المغزى من قوله عز وجل: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ (المائدة ٣)، أي إنّ دين الله واحد وهو الإسلام بكلّ ملله المختلفة، واكتمل مع

النبي (ص) بالملة الحنيفية بما جاء به من وحي بيّن فيه أركان الإسلام وطلب منّا أن نفهمها ونستوعبها ثم نطبّقها على حياتنا.

أ- المحرّمات

إن الوصايا العشر التي سمّاها الله عزّ وجلّ في محكم تنزيله بالفرقان تمثّل القيم المشتركة بين الرسالات السماوية التي جاء بها كلّ من موسى وعيسى ومحمّد، والتي عدّدها وحصرها الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥١-١٥٢-١٥٣).

هذه المحرّمات المذكورة هنا، جاءت من قبل في وصايا موسى على شكل أوامر ونواه لكنّها جاءت بعد ذلك في التنزيل الحكيم لمحمّد (ص) على شكل محرّمات لأنّ الرسالة المحمّدية رسالة خاتمة وبالتالي فإنّ الحرام فيها شمولي أبدي قطعي. وبما أنّ التحريم من أشدّ أنواع المنع تصبح بذلك المحرّمات في كتاب الله هي الخبائث المذكورة فيه، وبهذا فإنّ كلّاً من: الشرك، قتل النفس، الفواحش، عقوق الوالدين وشهادة الزور، تُعدّ من الخبائث مع بقيّة المحرّمات الأخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ...﴾ (المائدة ٤). وسنذكرها في ما يلي محرّماً تلو الآخر بإضافة ما زادته الرسالة المحمّدية على الوصايا العشر من محرّمات، بحيث أصبح عددها كلها ١٤ محرّماً. وهي تمثّل

أسس العمل الصالح الذي هو الركن الثالث من أركان الإسلام التي من خلال القيام بها يصبح الإنسان مسلماً بعد إيمانه بالله واليوم الآخر.

١- ألّا تشركوا بالله شيئاً

لقد عرفنا أنّ أول ركن من أركان الإسلام هو الإيمان تسليماً بالله ربّ العالمين، وهو ما يعني ضمنيّاً توحيد الله في ألوهيته وعدم الإشراك به أي بعبادته وحده عزّ وجل لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ (الأنبياء ١٠٨). وقد جاء الشرك بالله محرّماً على المسلمين ليس فقط لأنّ فيه إنقاصاً لعظمة الله وقلة احترام لمكانته العليا بل لأنّ الشرك بالله فيه أيضاً إنقاص للذات الإنسانية، حيث إن الله سبحانه وتعالى خالق كلّ شيء قد كرّم الإنسان ومنّ عليه بنعمة العقل فكيف لهذا الإنسان أن يستخفّ بعقله ويمتنع عن اتباع الحق الذي لا يمكن للعقل إلّا أن يراه إذا دقّق التفكير، ويزيغ عن ذلك إلى الباطل جهلاً وظلماً لنفسه وعقله بتسفيه نفسه وعبادة غير الله. وإذا كان موضوع الشرك بالله يتعلق بالجانب النظري للإسلام لأنه مرتبط بالإيمان بالله، فإنّ ما يهمّنا هنا هو أثره على سلوك الإنسان انطلاقاً من أمرين اثنين: الأول يتمثل في أثر الشرك بألوهية الله على سلوك الإنسان، الذي نجده مرتبطاً بموضوع العبادة التي حرّم الله أن تكون لغيره عزّ وجلّ حسبما نجده في النصوص التالية:

- ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ (النساء ٣٦)،
- ﴿... إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت ١٧)،
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأعراف ١٩٤).

فهذه الآيات وغيرها كثير تؤكّد تحريم توجيه العبادة والدعاء لغير الله سواء

لطلب الرزق أو لغيره من الأسباب، بحيث إنّ الإنسان إذا قام بذلك يصبح تابعاً لمن يتوسّل إليه بالعبادة وبالتالي يفقد حرّيته الإنسانيّة خصوصاً إذا كان المتوسّل به إنساناً آخر وهذا هو الأخطر، لأن الإنسانية قد اجتازت موضوع عبادة الأوثان المصنوعة من حجارة ولكنها لم تجتز بعد قضيّة عبادة الأشخاص لطلب الرزق أو غيره، ما يجعل البعض أحياناً يتخلى عن كرامته الإنسانيّة لإرضاء هؤلاء الأشخاص والخضوع التامّ لسلطتهم حتى لو دفعهم ذلك إلى التنازل عن قيمهم الإنسانية. وهذا يمثل أخطر شرك تعاني منه الإنسانية في عصرنا، وعلينا التحذير منه لأنه يفقد الإنسان إنسانيته التي أنعم بها الله عليه فيتحوّل من عبادة الله التي تمنح الحرّية والكرامة إلى عبودية البشر التي تفقده قيمه وإنسانيته.

أمّا الثاني فيتعلق بالشرك بحاكمية الله التي نستشفّها من عبارة "إن الحكمُ إلاّ لله" في الآية ٤٠ من سورة يوسف حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فحكم الله يظهر جليّاً في محرّماته التي لا يحقّ لأحد تحليلها أو تحليل أحد منها أو الإضافة عليها، لأنّ فيها تظهر حاكمية الله المطلقة التي يمنع تجاوزها منعاً باتّاً. وتبعاً لذلك فإنّه لا يحق لأيّ أحد، فرداً كان أو جماعة، سواء على مستوى الاجتهاد الشخصي أو على المستوى الجماعي، التحريم أو التحليل، أي إنه يُمنع منعاً باتّاً لأيّ فقيه أو مجلس فقهاء أو برلمان أو مجلس استفتاء أن يحلّل أو يحرّم إذ يُعدّ ذلك تعدّياً على حاكمية الله وشركاً بحكمه عزّ وجلّ لأنّ الله هو صاحب الحق الوحيد في التحليل والتحريم.

ولكي يؤكد سبحانه وتعالى خطورة الشرك به عزّ وجلّ سواء بألوهيته أو بحاكميته قال في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء ١١٦)، ما يجعلنا نفهم

أنّ الشرك يؤدّي بصاحبه إلى الضلال وهو النزوح عن الفطرة الإنسانية أي يبعده عن القيم الإنسانية. وحتى يتجنّب الإنسان هذا الضلال عليه أن يتجنب الشرك بالله في ألوهيته بعدم توجيه العبادة بالدعاء وطلب الرزق لغير الله كما أن يتجنّب الشرك بالله في حاكميته بعدم الزيادة أو النقصان على ما خرمه الله في كتابه، وكذا عدم اتباع أقوال من "يتقوّلون على الله" فيفتون بأنّ هذا حلال وهذا حرام بغير ما جاء به كتاب الله لأنه شرك بالله وتشكيك في وحدانية الله وذلك يحبط أعمال الإنسان الأخرى لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام ٨٨). لذا يجب أن يحذر المسلم من أن تحبط أعماله بإشراك الخلق في عبادة الله.

٢- بالوالدين إحساناً

لأنّ برّ الوالدين قيمة متجذرة في الفطرة الإنسانية، فنجد أنّ من طبيعة الإنسان البرّ بوالديه تقديراً منه وشكراً وامتناناً لهما لما بذلاه من جهود في رعايته وتنشئته. وأمّا الاستثناءات التي نراها في بعض المجتمعات فإنّما هي خروج وحياد عن الفطرة الإنسانية التي خلقنا الله وأرادنا عليها، لذلك يحرّم سبحانه وتعالى في تنزيله الحكيم عقوقهما لإعادة الفطرة الإنسانية إلى طبيعتها السليمة، بل إنه سبحانه وتعالى يجعل رضاه من رضاهما ليبيّن أهمّية البرّ بالوالدين في الدين الإسلامي حيث فصّل التنزيل الحكيم وبيّن كيفيّة برّ الوالدين بأن أمر بالإحسان إليهما بدليل قوله:

- ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾ (النساء ٣٦)،
- ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء ٢٣-٢٤)،

- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان ١٤-١٥).

هذه النصوص تبيّن لنا أنّه يلزم تجنّب نهرهما وخفض جناح الذل لهما رحمة بهما عند بلوغهما سنّ العجز وشكرهما والدعاء لهما بالرحمة على ما بذلاه من جهد وتضحيات في سبيل تربيتنا. ويزيد الذكر الحكيم بأن أمر بمطاوعتهما في ما يريدانه بكلّ حبّ وكرامة دون إكراه أو إجبار بشرط ألا يُطاعا إذا طلبها من الإنسان الشرك بالله لعظم قبح ذلك عند الله، ورغم هذا فما زال الذكر الحكيم يوصي بمصاحبتهما في الدنيا معروفاً أي بعدم مقاطعتهما حتى لو طالباه بالشرك بالله. ومن هنا نفهم مدى تقدير الله سبحانه وتعالى للوالدين فهو ما زال يحثّ على مصاحبتهما صحبة طيّبة حتى لو بدر منهما ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى لأنّ كلّ إنسان يُحاسب على أعماله فقط. ولذا فإن علاقة الإنسان بوالديه ضمن نطاق الأسرة يجب أن تكون مبنيّة على المحبّة وحسن المعاملة لأنه إذا ارتقت الأسرة التي هي أساس المجتمع الإنساني ارتقى معها سلوك الإنسانية ككل، لذلك كان برّ الوالدين أساساً من أسس العمل الصالح الذي هو ركن من أركان الإسلام.

٣- لا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن

اليتيم جزء لا يتجزأ من المجتمع لذلك نجد أنّ له مرتبة خاصّة في الإسلام، حيث وصّى برعايته وحسن معاملته والإحسان إليه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...﴾ (الأنعام ١٥٢). واليتيم بحكم صغر سنه يكون ضعيفاً حتى يبلغ أشدّه بمعنى حتى يبلغ سنّ النضج ويصبح قادراً على رعاية نفسه والتصرّف بمسوؤلية فيما يملكه من مال سواء

كان عن طريق الميراث أو الوصيّة أو غيرهما. وانطلاقاً من هذا المبدأ دعا الإسلام إلى عدم الاقتراب من مال اليتيم إلا بالحسنى وهذه الدعوة تحمل في مضمونها تحريم الاقتراب من مال اليتيم على وليّه بقصد الإسراف فيه والتبذير بينما تستثني من يقترب من مال اليتيم بقصد التصرّف فيه بتدبير وحكمة لحفظه من الضياع.

ففي تفصيل كيفية الاقتراب من مال اليتيم نجد الله عزّ وجلّ يبيّن لنا أنّه إذا كان وليّ اليتيم مقترّاً يمكنه الاقتراب من مال اليتيم الذي تحت رعايته للإنفاق عليه والاعتناء به بشرط التصرّف فيه بمسؤولية وعدم المبالغة والتمادي في الإنفاق، بل يجب عليه الحفاظ عليه كما يحافظ على ماله وأكثر لأنه أمانة لديه. أمّا إن كان الوليّ غنيّاً فالأولى له الاستعفاف من باب الإحسان حيث يوصيه الله سبحانه وتعالى بالاستعفاف أي بمعنى الامتناع عن الاقتراب من مال اليتيم إن كان بمقدوره الإنفاق عليه وكسوته ورعايته كما يرعى أبناءه من ماله الخاصّ دون الحاجة للإنقاص من مال اليتيم لأنه مسؤول عنه: ﴿... وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ...﴾ (النساء ٦). أمّا إن ارتأى الوصي خيراً أن يدير مال اليتيم من باب زيادته أو الحفاظ عليه حتى لا تنقص قيمته الشرائية على مرّ السنين، فوجبت عليه إدارته بحكمة وتعقل دون مجازفة وبأقل الأخطار الممكنة للمحافظة عليه من الضياع أو النقصان إن كان يتحلى حقاً بروح المسؤولية.

هنا نشير إلى نقطة جدّ مهمّة تدور حول مسألة أنّ وليّ اليتيم قبل أن يكون وصيّاً على ماله هو وصيّ عليه بالأساس، لذا يوجب عليه الإسلام احتضانه ورعايته والقسط في معاملته بحكم ضعفه وحاجته المادية والمعنوية له خصوصاً من جانب العطف والرعاية والمحبّة، فليس كلّ يتيم صاحب مال، لذا فإنّ الأصل في الإسلام هو الإنفاق على اليتيم وكسوته وتغطية كلّ احتياجاته حسب قدرة الوليّ و استطاعته، وإنما جاء تحريم الاقتراب من مال اليتيم ليمنع

اللبس على الوصيّ في مسألة أنّك إذا احتضنت اليتيم ورعيته واعتبرته من أبنائك فلا يلتبس عليك الأمر وتطمع نفسك بضمّ ماله إلى مالك، ونستدلّ على هذا بقوله عز وجل: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء ٢).

٤- أوفوا الكيل والميزان بالقسط

إن النفس الإنسانية السليمة الفطرة توّاقة للوفاء في كلّ شيء، وبما أن الدين الإسلامي دين يقوم على القيم الإنسانية فهو دين فطرة، فقد جاء كلّ من الوفاء والقسط في كلّ الأمور بما في ذلك الوفاء في الكيل والميزان من أسس العمل الصالح. ذلك لأنّه كي تتحقق العدالة الاجتماعية يجب على أفراد المجتمع الوفاء في كلّ أعمالهم بمعنى إتمامها وإكمالها على أحسن وجه وكذا القسط في الميزان بمعنى إيفاء كلّ ذي حق حقه.

وآية الوفاء بالكيل: ﴿... وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ...﴾ (الأنعام ١٥٢)، تضع الوفاء أساساً لكلّ التعاملات الإنسانية سواء كانت المحسوسة منها كإتمام العهد في العقود وإكمال الشرط بمعنى أنه يجب على المتعاقدين الإيفاء بما ترتب عليهم من التزامات في العقود التي عقدوها بينهم، فالمسلم هو من يفي بالعهد إذا عاهد وكذا التعاملات المادّية كالوفاء بالكيل والميزان والقسط فيهما.

ثمّ نجد أنّ الله سبحانه وتعالى يؤكد أنّه لا يكلف نفساً إلّا وسعها، ونفهم من ذلك أنه يجب على المسلم أن يأخذ في الاعتبار سعته وقدرته على الوفاء بما سيترتب على العهد والعقد من التزامات فلا يعهد ويلتزم من الأساس بأمر ليس قادراً على الوفاء به، فالله سبحانه وتعالى جعل فينا عقولاً ندرك ونميّز بها ما تطيقه ولا تطيقه أنفسنا فلا يأخذنا الظنّ ونثقل كاهلنا بما لا سعة لنا به.

وإذا ما تمعّنّا في الآيات المتعلقة بالتعاملات الإنسانية نجدها تربط بين الوفاء

والقسط وبين صلاح المجتمعات، لذلك حرّم الله سبحانه وتعالى الطغيان أو الخسران في الميزان في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن ٨-٩)، لما ينتج عن هذا الفعل غير الإنساني من فساد في المجتمعات، ونجد المثال على هذا واضحاً في جلّ معاملات الناس اليومية حيث إن عدم الإيفاء بالحقوق كالطغيان أو الخسران في الميزان لغرض مصلحي أناني معادٍ للقيم الإنسانية، يؤدّي إلى انعدام الثقة في المجتمع وإلى ضياع الحقوق، وبناءً على ذلك إذا فسدت علاقات الأفراد بعضهم ببعض فسد المجتمع وفقد استقراره.

٥- شهادة الزور

من أسس العمل الصالح في الإسلام العدل في كلّ شيء بما في ذلك القول، بمعنى أن يتّصف المسلم بصفة الصدق أي إنّه إذا ما قال أي أمر يكون صادقاً في قوله ولو على نفسه، لذلك يُعدّ قول الزور غير مقبول في الإسلام لأنه منافٍ للفطرة الإنسانية: ﴿... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى...﴾ (الأنعام ١٥٢). لكن بما أنّ لكلّ قول مقاماً فقد فرّق التنزيل الحكيم بين قول الزور لغواً وبين شهادة الزور في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان ٧٢). هذا التفريق ناتج عن اختلاف مقام القائل وما يترتب عن قوله، إذ جاء الأول منهياً عنه بينما جاء الثاني محرّما تحريماً باتّاً. ولذا فتحريم قول الزور جاء في موضوع الإدلاء بالشهادة في المحاكم بحيث أمر الله سبحانه وتعالى المسلم بالشهادة بالحق حتى لو كانت هذه الشهادة ضدّ نفسه أو الوالدين أو الأقربين في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ...﴾ (النساء ١٣٥)، ويتجلى لنا مدى أهمّية شهادة الحقّ في المحكمة في الدين الإسلامي فإذا ما اعتلى المسلم كرسيّ الشهادة وجب عليه ألاّ يقول إلاّ الحق وألاّ يشهد

زوراً لما يمكن أن يترتّب عن هذه الشهادة من ظلم وأذى في حق المشهود ضدّه ظلماً.

وفي المقابل فإنّ الرحمة الإلهيّة لم تقتصر على اجتناب شهادة الزور بقول الحق فقط بل منحت الحق في العدول عن الإدلاء بالشهادة ضد النفس وضد الأقربين كالأولاد والزوج أو الزوجة والوالدين والإخوة... لذا قال عزّ وجلّ: ﴿... وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء ١٣٥)، ومن هنا ندرك مدى رحمته سبحانه وتعالى بعباده أن منحهم حق الامتناع عن الشهادة ضدّ أقربائهم تفادياً لوقوعهم في الحرج وهذا الأمر مذكور في كلّ دساتير العالم حيث تتيح كلّ المحاكم للإنسان حقّ رفض الإدلاء بالشّهادة ضدّ نفسه أو أقربائه. وقد وسّع الله في الموضوع بحيث حرّم سبحانه وتعالى الإدلاء بشهادة الزور في الأقرباء وفي الأعداء على السواء في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة ٨)، فهذه الآية تطالب بالشهادة بالحقّ حتى في الأعداء وتمنع الشهادة بالزور عليهم بحجّة النقمة عليهم لأنّ العدل الإلهي يحثّ المسلم على احترام الناس كلهم دون تمييز بمن فيهم عدوّه وعدم الغدر به في الشهادة لأنه يظلّ من عباد الله، والله سبحانه وتعالى لا يسمح بالظلم وشهادة الزور أو الافتراء على أحد من عباده.

٦- لاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ

حُرّم قتل النفس الإنسانية بصيغة مضاعفة أي مرّتين في نفس الآية من التنزيل الحكيم، حسبما ورد في الآية ١٥١ من سورة الأنعام الخاصة بالمحرّمات في قوله تعالى في بداية الآية: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ وفي قوله تعالى مرّة أخرى في نفس الآية: ﴿... وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ

إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾، ونفهم من هذا التكرار أن الأصل في قتل النفس هو التحريم وعلى هذا الأساس يخضع موضوع تحليل قتل النفس في كتاب الله لتفصيل دقيق لشدّة حرمتها التي وردت مرّتين اثنتين، في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (الإسراء ٣٣)،

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٩٢-٩٣)،

بحيث تبيّن الآية ٣٣ من سورة الإسراء أنّ الحق الذي يبيح قتل النفس هو حالة قتل نفس بنفس عمداً وعن سابق إصرار وترصّد، فالقاتل الظالم يستحق القتل عند عدوانه على المقتول المظلوم، مع حقّ وليّ المظلوم في عدم الإسراف في القتل لأن الإسراف كما ذكرنا هو الوقوع في الحرام، واجتناب الإسراف يكون بأخذ حق المقتول المظلوم من القاتل الظالم نفسه دون سواه من معارفه أو أقاربه. فعقوبة قتل النفس بالنفس في جريمة القتل العمد وضعها الإسلام حدّاً أعلى ممثلاً في القتل من دون إسراف، لأن الإسراف هو الوقوع في الحرام بتطبيق عقوبة القتل على شخص آخر غير القاتل أو مع القاتل كالثأر لذا قال في محكم تنزيله: ﴿... وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر ٤٣).

أمّا الآيتان (٩٢-٩٣) من سورة النساء فتبيّنان حالة ثانية يقع من جرّائها القتل وهي حالة القتل الخطأ، وفي هذه الحالة لا يقع حدّ القتل على القاتل بل يُكتفى منه بتحرير رقبة أو صيام الكفارة، وذلك يظهر سماحة الدين الإسلامي

الذي جاء لمحاربة كلّ أنواع التنافر بين الناس، وأزال ما يُعرف بالأخذ بالثأر وما يجنيه من سفك للدماء حتى لو حصل القتل عن طريق الخطأ، فالقاتل المخطئ لا يقتله وليّ المقتول لأنه لم يقم بفعل القتل قصداً وبالتالي فلا إثم عليه. هذه النقطة حسّاسة جداً لأنها تبيّن قدسية النفس البشرية وعظم حرمتها عند الله عزّ وجلّ لأن القاتل المخطئ رغم أنه قام بفعل القتل لم يقم به متعمّداً وبالتالي حرّم التنزيل قتله لهذا أردف الآية ٩٣ بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٩٣)، فهذا المقطع من الآية يوضح أنّ وليّ المقتول الخطأ إذا أصرّ على أخذ الثأر من القاتل المخطئ فإن جزاءه يكون من عند الله لبشاعة تصرّفه وانتهاكه لمحرّم.

٧- لَا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

الفواحش جمع فاحشة ومعناها لغة ما تكرهه النفس أي ما تأنفه الفطرة الإنسانية السليمة التي لم يشبها أيّ اضطراب. وهناك الفواحش الظاهرة والباطنة، فأمّا الباطنة فهي العلاقات الجنسية المبنية على أسس غير سليمة وإن لم يدر بها المجتمع سواء كانت بين أنثى وذكر في حال وجود علاقة بين امرأة متزوجة مع رجل غير زوجها، أو علاقة مثلية بين شخصين من نفس الجنس كاللواط بين ذكر وذكر والسّحاق بين أنثى وأنثى. أمّا إذا مورست هذه الفواحش علناً فتسمّى الفاحشة الأولى زناً (للعلاقة بين ذكر وأنثى) لقوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء ٣٢)،
- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور ٢-٣)،

أما ممارسة الفاحشة الثانية علنا فتصبح لواطاً علنياً (للعلاقة بين ذكر وذكر)، وسحاقاً علنياً (للعلاقة بين أنثى وأنثى). لقوله تعالى:

– ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء ١٥–١٦)،

وقد حرّم الله عزّ وجلّ في كتابه الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفعل "الاقتراب" يعني التوجّه إليها عن سابق إصرار وترصّد. وقد بيّن لنا عزّ وجلّ بخصوص الفواحش في كتابه أمراً في غاية الأهمّية عند توضيحه لطرق الوقاية من الوقوع فيها متمثلةً في الحثّ على حفظ الفروج كما تبيّنه الآيتان (٥–٦) من سورة المؤمنون، والآيتان (٢٩–٣٠) من سورة المعارج في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون ٥–٦)، والدعوة إلى التعفّف كما تبيّن الآية ٣٣ من سورة النور: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾، باعتبارها طرقاً وقائيّةً وحاميةً من الوقوع في الفواحش، خفيّةً أو علناً.

أمّا مفردة "الفحشاء" الواردة في العديد من الآيات بما فيها قوله تعالى:

– ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ٢٨)،

– ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف ٢٤)،

ومن خلال هاتين الآيتين نفهم أن "الفحشاء" هي اسم جنس للفاحشة، وتبيّن ذلك الآية ٢٤ من سورة يوسف التي تبيّن أنّ الله صرف عن يوسف الفحشاء لأنه كاد يهمّ بامرأة العزيز أي كاد ينصاع لها، وصرف عنه السوء

لأنّ الانصياع لها كان فيه أذيّة للعزيز الذي آواه وربّاه. ففي هذه الآية تصريح مباشر بأنّ الفحشاء هي اسم جنس للفاحشة أي اسم جنس لكلّ الفواحش التي عدّدناها هنا.

٨- بِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ

جاء جميع الأنبياء والرسل بميثاق تكليفي: ﴿... وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام ١٥٢)، ويتجسّد هذا الميثاق في بند واحد مشترك في جميع الرسالات الإلهية المتعاقبة، ويتمثل في توحيد الله وعدم الشرك به والعمل الصالح. ويتم الوفاء بهذا العهد بالتزام الإنسان طوعاً أمام الله بعدم الشرك به والالتزام باتباع صراطه المستقيم أي العمل الصالح: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ...﴾ (آل عمران ٧٦-٧٧). فعهد الله الذي يلتزم الإنسان بالوفاء به ولا يحق له الحياد عنه ينبني على هذا الميثاق الذي يسبق العهد وهو ما يسمّى في المفهوم المعاصر بالقسم المهني أو العسكري أو السياسي وهو موضوع القسم، وإذا التزم إنسان علناً وأقسم بأن يلتزم بقانون ما كالقانون الطبّي مثلاً، فتصبح في هذه الحالة المخالفة المقصودة لهذا القانون حراماً لأنه نقض العهد الذي قطعه على نفسه أمام الله بالالتزام بهذا القانون ولم يوف به كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة ٢٧).

٩- المحرّمات من النساء

لأنّ بناء مجتمع سليم أخلاقياً يحتاج إلى توضيح العلاقات وتصنيفها فيه،

فقد حرّم الله عزّ وجل في كتابه الارتباط بقائمة من النساء عدّدها في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء ٢٣–٢٤)، مع الإشارة إلى ملاحظة جدّ مهمّة في ما يتعلّق بهذه القائمة وهي أنه حُرِّمت الأمّهات لا الوالدات فقط لأنّ الإنسان له والدة واحدة فقط لكن قد يكون له أكثر من أمّ مثل الأمّ المرضعة أو المربّية. أضف إلى هذه القائمة أنّه قد فُصّلت حالات أخرى محرّمة في الآيات التالية:

– ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (النساء ٢٢)،

– ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ

الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النساء ٢٤-٢٥)،

- ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ...﴾ (المائدة ٥)،

- ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور ٣)،

- ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور ٣٢-٣٣)،

تستعرض آيات التفصيل هذه القائمة الإضافيّة للمحرّمات من النساء وهنّ: ما نكح الآباء من قبل كما تذكر الآية ٢٢ من سورة النساء، وزوجات الغير كما في الآية ٢٤ من نفس السورة، ثم المرأة الزانية حسبما جاء في الآية ٣ من سورة النور، علماً بأن المقصود بالزانية هي التي تمارس الفاحشة العلنية كما بيّناه آنفاً وذلك تصرّف مخالف للقيم الإنسانية في جميع دول العالم.

١٠- حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ...

بيّن تعالى في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ...﴾ (المائدة ٣) المحرمات من الأطعمة. ثمّ تأتي بعدها آيات تشرح ما المسموح به من المأكولات وما المحرّم منها.

أمّا المسموح منها فنجده في الآية ١٦٨ من سورة البقرة التي توضّح أنّه ممّا في الأرض مسموح به: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ١٦٨). أضف إلى ذلك الأنعام التي أحلّها الله في الآية ١٤٢ من سورة الأنعام: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وأحلّها كذلك في الآية ٣٠ من سورة الحج والآية ٢١ من سورة المؤمنون والآية ٦١ من سورة غافر. كما أحلّ الله طعام الذين أوتوا الكتاب وسمح به: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ...﴾ (المائدة ٤–٥). وسمح أيضاً بما ذُكر اسم الله عليه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (الأنعام ١١٨–١١٩).

أمّا الممنوع من المأكولات فوضّح عزّ وجلّ أنها: الدم والميتة ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكل السّبع إلاّ ما ذكّيتم وما ذبح على النّصب، كما تبينّه الآيات التالية:

– ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٧٢–١٧٣)،

– ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام ١٤٥)،

– ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل ١١٥)،

كذلك أضاف الله إلى تحريم هذه المأكولات جميعاً بندين اثنين.في قوله: ﴿... وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ...﴾ (المائدة ٣). ثمّ فصّل لنا هذين البندين الإضافيّين موضحاً أنّ كلاهما رجس، فأما رجس الأنصاب فإنّما هو الذبح عليها، أمّا رجس الأزلام فهو الاستسقام بها كما جاء في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة ٩٠).

يتبيّن لنا من خلال ما عرضناه أنّ المحرّمات التي وردت في التنزيل الحكيم حُرّمت بنحو عيني وهي ذات علاقة بمختلف السلوكيات الإنسانية. ويبقى الالتزام بهذه المحرّمات خياراً للإنسان ولا علاقة للسلطة بذلك، فهي لا تُفرض بقانون ولا تُمنع بقانون إلّا إذا ثبت أن هناك أضراراً طبّية تنجر عنها، هنا يمكن للسلطة التدخل بمنعها. ونحن نرى أن كل برلمانات العالم لا تناقش موضوع المحرّمات لا بالفرض ولا بالمنع إلا في هذه الحالة.

١١– لَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ

يدور الكلام هنا حول قتل الولد بعد الوضع خوفاً من الإملاق، ومعناه لغة "التجرُّدَ عن المال"، بحيث كانت العرب قبل البعثة المحمّدية تقتل المولود بسبب الفقر أي من أجل توفير الطعام، وهذه الحالة تختلف عن حالة الإجهاض، لأن الإجهاض يُسقَط فيه الجنين قبل الوضع كما هو معلوم، وموضوع الإجهاض يحتاج إلى دراسة تفصيليّة خاصّة به لأنه أحياناً يمكن السماح به إذا وُجد خطر من الحمل على حياة المرأة الحامل أو ثبت تشوّه الجنين في بطن أمّه وهدّد ذلك حياتها أو غيرها من الحالات التي قد تستوجب

إسقاط الجنين. أمّا قتل الأولاد في هذه الحالة فيكون بعد الولادة خوفاً من عدم القدرة على إعالتهم. وقد حرّم الله عزّ وجلّ قتل الأولاد خشية الإملاق في الآية ١٥١ من سورة الأنعام: ﴿... وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ...﴾، وشرح هذا التحريم في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء ٣١).

ويمكننا الإشارة إلى أنّ هذا الموضوع مرتبط بتحريم الشّرك بالله، إذ كما حرّم الله علينا ألاّ نشرك به وطلب منا إخلاص العبادة له وتوجيه الدعاء له، فقد أمرنا بطلب الرزق منه وحده سبحانه وتعالى دون سواه لأنه هو الرزاق لا شريك له، لذا حرّم علينا قتل الأولاد خوفاً من الحاجة والفقر، لأنّه هو من يؤتي الجميع رزقه من فضله، وعلى هذا الأساس يُعدّ قتل الأولاد خوفاً من المجاعة جريمةٌ يعاقب عليها القانون في كلّ دول العالم.

١٢- أَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا

حرّم الله عزّ وجل الربا، وأوضح أنه يمحق الربا من جهة ويُرْبي الصدقات من جهة أخرى في قوله: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة ٢٧٦). وبما أن الزكاة من الصدقات فإنها تربو عند الله كما جاء في قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم ٣٩). فرغم أنّ أكل الربا فيه فائدة عاجلة للدائن، لا يربو عند الله، لما فيه من أذيّة للمدين وما يسبّبه له من ضيق مال في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٧٨-٢٨٠).

هنا لا يجوز الخلط بين الربا والفائدة البنكيّة فالفرق بينهما كبير، فالربا محرّم

في كتاب الله لأنّه يأخذ فائدة كبيرة جدّاً على القيمة الأصل، وأحياناً تكون غير معقولة وتصل إلى الضعف والضعفين أو ثلاثة أضعاف، بحيث يعجز المدين المعسر عن سدادها تماماً، أمّا الفائدة البنكية فتُعدّ معاملة تجاريّة تخضع لقوانين معيّنة خاصّة بكلّ دولة، وهي فائدة معقولة جداً ونسبتها مدروسة بحيث تكون متناسبة مع إمكانيّة المدين. لكن قد تتحوّل الفائدة البنكية أحياناً إلى ربا عندما تتضاعف بحيث يصبح المدين من البنك معسراً وغير قادر تماماً على سداد ديونه لسبب من الأسباب، وفي هذه الحالة يجب أن يتوقف البنك عن حساب الفائدة وإضافتها للقرض كما يجب أن يمهل المدين فترة حتى تتيسّر أحواله المادّية فيتمكّن من سداد ديونه، لأنّ تقوى الله تمنع أن يوضع الإنسان المدين في ضيق أكثر من الضيق الذي هو فيه لهذا قال في محكم تنزيله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ١٣٠).

١٣- الإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

حرّم الله في كتابه الإثم والبغي بغير الحق، لكن علينا التطرّق إلى كل واحد منهما على حدة بالتفصيل والشرح، حتّى يتّضح معنى تحريمه لهما. فأما البغي لغة فهو "التعدّي على حقوق الآخرين"، وهو المقصود في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ...﴾ (ص٢٤). فباب البغي واسع جدّاً منه المحرّم ومنه المَنهيّ عنه، وسنتطرّق إلى البغي المَنهيّ عنه لاحقاً، أمّا هنا فسنتطرّق إلى البغي المحرّم الذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ (الأعراف ٣٣)، ونستنتج من هذه الآية أنّ المقصود بالبغي بغير حق التعدي على حقوق الآخرين ومصالحهم ظلماً وعدوانا وهو محرّم.

علماً بأنّ أنواع البغي بغير حق متعدّدة منها السرقة كما في قوله تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة ٣٨-٣٩)، فالسرقة وإن لم تكن محرّمة صراحة في كتاب الله فإنّها تدخل في دائرة البغي بغير حق لأنها فعل يُتعدّى من ورائه على حقوق الآخرين ومصالحهم عدوانا، لهذا حُرِّمت لأنه ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى ٤٢)، ويدخل في هذا الإطار كلّ أنواع السرقة بما فيها قطع الطرقات، وأعمال عصابات المافيا وغيرها...

أمّا الإثم فهو لغة "التباطؤ عن فعل الخير"، ونجد هذا المعنى جليّاً في قوله تعالى: ﴿... فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ...﴾ (البقرة ٢٨٣)، فكتمان الشهادة في هذه الحالة تحديدا تأخّر عن فعل الخير. وكما أنّ باب البغي واسع فباب الإثم كذلك واسع، منه المحرّم ومنه المنهيّ عنه، وسنتطرّق إلى المنهيّ عنه لاحقاً، أمّا هنا فسنتطرّق إلى الإثم المحرّم الذي ورد في الآيات التالية:

- ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء ٤٨)،
- ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء ٥٠)،

تقدّم لنا هاتين الآيتين ماهيّة الإثم المحرّم بحيث تعرّفنا الآية الأولى بأنّ الشرك بالله إثم محرّم وهو من أول المحرّمات التي تطرّقنا إليها سابقا. أمّا الآية الثانية فتبيّن لنا أنّ الكذب على الله إثم محرّم وهو المحرّم رقم ١٤ الذي سنتطرّق إليه بالشرح لاحقاً.

١٤- أَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُون

جاء تحريم التقوّل على الله في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ٣٣)، وهو التعدّي على حاكمية الله بالتحريم والتحليل بدلاً منه، بإضافة حرام إلى محرّماته أو تحليل أحد محرّماته كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (النحل ١١٦)، لأن التحريم والتحليل من اختصاص ربّ العالمين فقط وهو صاحب الحق الوحيد في ذلك ولم يعط هذا الحق لأحد، لا رسول ولا فقيه. فالتحريم يدخل في نطاق حاكمية الله التي لا يشاركه فيها أحد والتي تتجلى في المحرّمات الـ ١٤ التي جاءت في كتابه حصراً، لذا عدّدها وجعلها عينية ثمّ ختمها بآخر بند فيها وهو تحريم التقوّل عليه، لأنّ الحرام عيني ولا يُقاس عليه لا بإضافة محرّم إلى المحرّمات (١٤) المعدودة في كتابه ولا بتحليل أحد المحرّمات، فالله لم يمنح حق التحريم لأحد، لا فرد ولا جماعة ولا نبيّ أو رسول ولا فقيه. والمحرّمات هي فقط ما حرّمه الله لهذا جاء التحريم متّصلاً بحرف العطف في قوله تعالى: ﴿... مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ...﴾ (التوبة ٢٩)، فالآية تبيّن أنّه لا محرّم إلّا ما حرّم الله وأمر رسوله بإبلاغه لهذا جاء متّصلاً، لأنه لو سمح للرسول بالتحريم لورد ذكر تحريمه منفصلاً عن تحريم الله ولقال حينها: "ما حرّم الله وحرّم رسوله"، فيصير بذلك للرسول (ص) أيضاً الحق في التحريم، لكنّ الله عزّ وجلّ وصل تحريم الرسول بتحريمه ليصبح دليلاً لا يقبل الشك على أنه لا يحق لأحد التحريم من دون الله، أمّا الرسول (ص)، فلم يقم بأكثر من إبلاغ ما حرّم الله ولم يزد على محرّماته شيئاً.

بما أنّ الرسالة المحمّدية خاتمة وصالحة للاستعمال في كلّ زمان ومكان، فإنّ من تمام صلاحيتها وخاتميتها أنه تمّ فيها تحديد المحرّمات وتعدادها، ثم يأتي بعدها تفصيلها لأنّ التحريم حق إلهي حصري من مقام الألوهية وبالتالي شرح الله هذه المحرّمات في كتابه حصراً حتى يعرّفها الإنسان ويعيها من

مصدر إلهي بحت ومن ثّم يلتزم باجتنابها لتحقيق الانسجام الوجداني في علاقته بربّه.

وبناءً على وعد الله بالرحمة بعباده، وحتى لا يشعر الإنسان بالحرج والضيق في الامتثال لطاعة ربّه في اجتناب محرّماته وعدم الوقوع فيها، وبحكم كون الله عزّ وجلّ عالماً بضعف النفس البشرية وتغيّر الظروف في الحياة، فقد فصّل عزّ وجلّ الحالة التي يسمح فيها للإنسان بالوقوع في المحرّم دون الشعور بالحرج، ودون أن يؤثر ذلك على العلاقة التناغمية بينه وبين ربّه، وهذه الحالة تتجسّد في أمرين اثنين هما:

الأول: يتعلق بالاضطرار في الأطعمة بحيث تدفع الظروف الإنسان إلى ذلك كما في الآيات التالية:

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة ١٧٣)،
- ﴿... وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ...﴾ (الأنعام ١١٩)،
- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة ٣)،
- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (الأنعام ١١٩)،
- ﴿قُل لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً

أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام ١٤٥)،

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل ١١٥)

نلاحظ أنّ محور الاضطرار في هذه الآيات يدور حول الأطعمة ولا ينطبق على غيرها من المحرّمات، والاضطرار يكون نتيجة للظروف ولا يكون بسبب الناس، لأنه عندما يأتي من الناس يتحوّل إلى إكراه وهو الأمر الثاني في الحالات المسموح فيها اقتراف المحرّمات والوقوع فيها.

الثاني: الوقوع في كلّ المحرّمات عن طريق الإكراه، بحيث يكون الإكراه بالقوّة من قبل الآخرين لا بسبب الظروف، ففي حالة الإكراه يكون الإنسان في موقف ضعف وغير مخيَّر بل يكون مجبراً على تنفيذ ما يُطلب منه، لأنه يكون مسلوب الإرادة وفاقداً لحرّية الاختيار التي مُنحت له من ربّه ومجبراً عنوة على اقتراف سلوك معيّن يُضطرّ للخضوع له. وفي هذه الحالة لا يكون الإنسان مذنباً بل من حقّه، حفاظاً على حياته ونفسه، اقتراف المحرّم مكرهاً، كما هو الشأن بالنسبة للشرك بالله علناً فمسموح به تحت وطأة الإكراه دون أن يترتب عنه خروجه عن التوحيد كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل ١٠٦)، أي إنّ الإكراه يُدفع إليه الإنسان المسلم دفعاً بالغصب من الآخرين لسبب أو لآخر، فيخضع له حفاظاً على سلامة نفسه، على عكس الاضطرار الناتج عن الظروف الذي يدفع الإنسان إلى الاقتراب من الأطعمة المحرّمة بقرار شخصي حفاظاً على سلامة نفسه دون تدخل لأشخاص آخرين.

وهكذا يمكننا أن نلخّص أن المحرّمات الـ ١٤ التي حدّدها الله في كتابه وحرّمها حرمة عينية إذ لا يحق لأحد العبث فيها وبتّها بالتحريم أو التحليل

وهي تندرج في دائرة حاكمية الله التي يتفرّد بها سبحانه والتي لا يحق لأحد مشاركته فيها.

ب- الأوامر والنواهي الإلهية

قلنا إنّ المحرّمات المعدّدة في كتاب الله عينية وشمولية وتمثل الجزء الأهم من العمل الصالح الذي لا يكتمل إسلام الإنسان المسلم إلا بالقيام به، لكن هذا الجزء من العمل الصالح ليس هو الجزء الوحيد منه، إذ هناك أيضاً جزء ثانٍ يتمثل في الأوامر والنواهي الإلهية الواردة في كتاب الله، والتي أمرنا الله بالتقرّب إليه من خلالها وهي تختلف عن المحرّمات، وقد بيّن لنا الفرق بينها وبين المحرّمات بحيث أوضح لنا في كتابه أنّ الأوامر والنواهي عبارة عن ظواهر إنسانية موجودة في كلّ المجتمعات وعبر كلّ الأزمنة ولها جانبان هما:

الجانب الإلهي: وهو المذكور في كتاب الله عز وجلّ بحيث تم التطرّق إليها بشكل عام كالغيبة، التجسّس، الرشوة، الانتحار... ولأنّ هذه الظواهر تحتمل جزءاً يمكن السماح به وجزءاً يستحق منعه جاءت في كتاب الله على شكل نواهٍ ولم ترد على شكل محرّمات.

الجانب الإنساني: ذكر كتاب الله الأوامر والنواهي الإلهية بشكل عام إلا أنه ترك مهمّة تحديد مجالات تطبيقاتها ومجالات منعها للسلطة التشريعية التي تضع قوانين تتماشى مع ظروف كلّ مجتمع ومتطلباته.

وقد جاءت الأوامر والنواهي في كتاب الله عزّ وجل موضحة على النحو التالي:

١- أداء الأمانة والحرص على العدل

الأمانة مسؤولية عظيمة تُلقى على عاتق من يحملها، ونظراً لقيمتها هذه أمرنا

الله عزّ وجلّ بأدائها في كتابه في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء ٥٨)،

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال ٢٧)،

- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المعارج ٣٢).

فأداء الأمانة خصلة من الخصال الحميدة التي يجب أن يتّصف بها الإنسان المسلم، ومجالها واسع فكل النعم التي وهبها الله للإنسان من عقل وصحّة وحرّية وكرامة وقيم إنسانية عامّة أمانة يجب عليه الحفاظ عليها وأداؤها وعدم التخلي عنها حتى لا يفقد إنسانيّته ويتحوّل إلى الحالة البهيمية. وكذلك تأتي أنواع الأمانات الأخرى كالأمانة التي يكلف بها الإنسان في مجتمعه والمتمثلة في روح المواطنة التي يجب أن يحافظ عليها للحفاظ على مجتمعه من أيّ خطر قد يهدّد أمنه وأمن الناس واستقراره واستقرارهم، وصولاً إلى الأمانة المهنية التي يمليها عليه واجبه المهني بأداء مهنته بكل صدق وإخلاص لخدمة مجتمعه والعمل على تطوّره... وغيرها من الأمانات كحقوق الناس التي يجب أن ترد إلى أصحابها في حال ائتمانه عليها، فكل ذلك يدخل في مجال الأمانة، ولأهمّيتها أمر الله عزّ وجلّ بأدائها لمنافع ذلك على الإنسان وعلى مجتمعه.

وقد ربط عزّ وجلّ في الآية ٥٨ من سورة النساء بين أداء الأمانة والعدل لأنهما صفتان متلازمتان، فإنّ من يؤدّي الأمانة لا يمكن إلا أن يكون عادلاً، لأن القيم الإنسانية تستوجب الواحدة منها الأخرى ولا يمكن للخائن أن يكون عادلاً كما لا يمكن للأمين أن يكون غير عادل. والله يحبّ كلّ القيم الإنسانية بما فيها العدل كما جاء في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي

الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل ٩٠). فالعدل مثل الأمانة يحقق استقرار المجتمع لأنّ الإنسان العادل في مجتمعه يحترم حقوق الآخرين ولا يتجاوزها ويكون عادلاً في أداء الواجبات الملقاة على عاتقه، ما يحقق فرصاً متكافئة للجميع في المجتمع وذلك يضمن تطوّر المجتمع وازدهاره.

٢- التجسّس والغيبة

ورد النهي عن التجسّس والغيبة واجتناب الكثير من الظنّ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات ١٢).

أ- التجسّس كظاهرة موجودة في كلّ المجتمعات عبر كلّ الأزمنة ولكنّ مهمّة الاجتهاد لمنعها أو السماح بها تعود إلى السلطة التشريعية ممثلة في البرلمانات ومجالس التشريع التي تضع قوانين لها حسب ظروف المجتمع. فالتجسّس يسمح به في حالات وينهى عنه في حالات، ففي حالة الحرب إن لم تتجسّس دولة ما على أعدائها فإن ذلك يُعدّ إهمالاً منها ويوقعها في أزمة كبيرة بحيث يعرّضها للاعتداء أو لعنصر المفاجأة. أمّا في داخل مجتمعها فيسمح بالتتجسّس على المشتبه فيهم من المجرمين كعصابات المخدّرات كي تتقي شرّهم وتتمكن من معرفة تحرّكاتهم والقبض عليهم حتى تحقق الأمن والطمأنينة في ترابها الوطني. وفي الحالتين يُعدّ التجسّس ضرورياً لتحقيق الاستقرار في الدولة. أمّا التجسّس على الجيران أو المعارف فهذا أمر مختلف تماماً عن سابقه، رغم أنّ كليهما يُعد تجسّساً، فالأول مسموح به أمّا الثاني فغير مسموح به لما فيه من إفساد للمجتمع وتتبّع عوراته.

ب- وكذلك الأمر بالنسبة للغيبة، فإن المجتمعات هي التي تحدّد المقبول

منها وغير المقبول، حتى إنه في قوانين معظم الدول توضع موادّ تحاسب من يطعن في الآخرين أو يشوّه سمعتهم، كما تسمح بالغيبة في حالة الشهادة أمام القاضي، أو لإظهار الحقيقة في مجال الصحافة والإعلام. لذلك فإن وضع قوانين الغيبة مهمّة ترجع إلى السلطة التشريعية التي تبيّن كيفية ممارستها.

٣- أكل أموال الناس بالباطل

ذكرنا سابقاً في المحرّمات أنّ هناك بغياً محرّماً وآخرَ منهيّاً عنه، فأمّا المحرّم فهو البغي بغير حق ويتعلق بالسرقة بكلّ أنواعها. أما البغي المنهيّ عنه فهو البغي بحق ويدخل في دائرة النواهي لكونه ظاهرة موجودة في كلّ المجتمعات عبر كلّ الأزمنة لكنّ ممارسته تختلف حسب ظروف المجتمعات ومتطلباتها لهذا فإن مهمّة الاجتهاد في تحديد المسموح منه والممنوع ترجع للسلطة التشريعية. فأمّا المسموح منه فيتمثل في أكل أموال الناس بالحق ويدخل في إطار ما يسمّى دفع الضرائب والضمان الاجتماعي والتأمين وغيرها... أمّا الممنوع منه فهو أكل أموال الناس بالباطل كالرشوة، وهو منهيّ عنه لما ورد في التنزيل الحكيم من خلال قوله تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...﴾ (النساء ٢٩)،
- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٨٨)،

نلاحظ من خلال الآية ٢٩ من سورة النساء أن النهي فيهما ورد بخصوص أكل أموال الناس بالباطل وهو ما يُسمّى الرشوة، فالتشريع الإنساني يحدّد تماماً الفرق بين الرشوة والعمولة لأنّ كليهما يحتاج إلى توضيح وقوانين تضبطه بحيث يسمح بالعمولة ويمنع الرشوة ويعاقب مرتكبها.

أمّا آية البقرة ١٨٨ فتنهى عن أكل أموال الناس بالباطل للإدلاء بها إلى

الحكّام، وهذا الأمر يختلف تماماً عن الرشوة وعن العمولة، لأنه يتعلق بالعطاءات التي تُقدَّم لمن يقدِّم نفسه على أنّه وكيل عن بعض الأشخاص من ذوي السلطة والنفوذ، بأخذ أموال الناس الذين يحابونه بالعطاءات من أجل تأمين مصالحهم لدى أصحاب النفوذ، كأن تقول: "زيد مفتاح عمرو، فإذا أردت شيئاً من عمرو فاذهب إلى زيد" مقابل خدمات أو مال تقدّمه لعمرو. وهذا النوع من العطاء من دائرة أكل أموال الناس بالباطل وهي أساس الفساد في كلّ الأنظمة.

٤- الانتحار

نجد في الآية (٢٩) من سورة النساء قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، الذي يستوجب علينا توضيحه بكلّ دقة، لأنّه موضوع حسّاس ويتعلق بمسألة "قتل النفس" التي شدّد الله على حرمتها مرّتين، وهذا في ما يتعلق بقتل إنسان إنساناً آخر (النفس بالنفس)، بصريح العبارة التي لا تحتمل الشك أو اللبس كما وضّحنا سابقاً، لكن في حالة الانتحار فإنّ الإنسان يقتل نفسه، وتحتمل هذه الحالة أمرين اثنين:

أ- الانتحار نتيجة مرض خطر لا علاج له مرفوقاً بألم لا يُطاق وهو ما يُسمّى "القتل الرحيم".

ب- قتل الآخرين مع قتل النفس أو ما يُسمّى العمليات الانتحارية.

أما بالنسبة للقتل الرحيم، فقد كان غير مسموح به في التشريعات الإنسانية القديمة لأنه كان يدخل في إطار قتل النفس عامّة لديهم، إلا أنه في القرن العشرين والذي بعده بدأ المشرعون في مختلف دول العالم يتنبّهون للاختلاف بين قتل الآخر والانتحار، بحيث حدّدوا حالات القتل الرحيم بأن يطلب المريض، وهو في حالة عذاب شديد وحالة مرض لا يمكن شفاؤه، من الطبيب أن ينهي آلامه بأن يضع حدّاً لحياته، فهذا النوع من القتل يتمّ بناءً على طلب المريض

أو بطلب من أهله عندما يكون المريض في حالة غيبوبة لا أمل له في الخروج منها، فيطلب وليّه من الطبيب أن يريحه من هذا الوضع بوضع حدّ لحياته. وإن كانت بعض الدول سمحت بهذا القتل رحمة بالمريض فهناك البعض الآخر منها ما زال يدرس إمكانية السماح به، وهناك من يرفضه تماماً. ورأينا في هذه المسألة، أنّ التشريعات الإنسانية التي سمحت بالقتل الرحيم على صواب، لأنّ هذا القتل يدخل في إطار "القتل بالحق"، فمن حقّ الإنسان اختيار وضع حدّ لحياته إذا كان الألم الذي يعاني منه لا يُطاق ولا يمكن للأدوية أو العلاجات تخفيف حدّته، في هذه الحالة تكون حياة المريض بمثابة جحيم يعيش ويلاته يوميّاً، والله رؤوف بعباده وما جعل علينا في الدين من حرج، وبالتالي فإن هذا النوع من القتل "القتل الرحيم" يدخل في إطار "القتل بالحق" لإراحة الإنسان من العذاب الذي يعانيه. أمّا من ينتحر نتيجة حالة نفسية فإن ذلك يدخل في إطار قتل النفس التي حرّمها الله وتكون محاكمته على الله الذي يعلم حالته ولا نشك أبداً في عدالته سبحانه، لأنه هو فقط من يعلم إذا ما كان في حالة مرضية لا تسمح له بالتمييز بين الصواب والخطأ وبين الحلال والحرام، ونحن لا يحق لنا إصدار أيّ حكم ضدّه.

أمّا من يقتل نفسه ويقتل الآخرين معه كالعمليات الانتحارية التي يقوم بها عناصر الجماعات الإرهابية، ففي هذه الحالة يكون قد ارتكب حرامين: الأول أنه قتل الآخر بغير حق والثاني أنه قتل نفسه، عن سابق إصرار وترصّد في الاثنين، يعني أنّه ارتكب فعلته وهو يعيها تماماً، وفي هذه الحالة يكون عذابه مضاعفاً عند الله سبحانه كما قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ (النساء ٣٠)، لأنّ ما قام به فيه عدوان وظلم على الأبرياء الذين راحوا ضحايا هذا النوع من الأفعال الإجرامية، ومصير فاعله جهنّم وبئس المصير مهما كان الدافع إليه، لأن الله عز وجلّ حرمّ قتل النفس بغير حقّ.

٥- الخمر والميسر

قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في شأن الخمر والميسر:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة ٢١٩)،
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ (النساء ٤٣)،
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة ٩٠)،
- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة ٩١)،

جاء في الآية ٢١٩ من سورة البقرة وصف الخمر والميسر بأنّ فيهما إثماً كبيراً ومنافع للناس، وكنّا قد بيّنّا سابقاً في المحرّمات أنّ الإثم نوعان: النوع الأول محرّم وهو الشرك بالله، أمّا النوع الثاني المنهيّ عنه فيتمثل في الخمر والميسر إذ لم يُحرَّما بل اكتُفي بالنهي عنهما لتداخل الإثم والمنافع فيهما لأنه لو حُرِّما بسبب الإثم الذي فيهما لتسبّب ذلك بتفويت منافعهما عن الناس وحرمانهم منهما مع حاجتهم لهما. ولذا، بسبب المنفعة التي فيهما، ترك الله عزّ جلّ مهمّة وضع قوانين الخمر والميسر للاجتهاد الإنساني لتحديد سبيل الاستفادة منهما وفق الإطار الصحيح ومنع مضارّهما لحماية المجتمع.

ونجد عند دراسة الآية ٩٠ من سورة المائدة أنه ذكر أربعة بنود: الخمر، الميسر، الأنصاب والأزلام، علماً بأنّ الأنصاب والأزلام من المحرّمات كما رأينا سابقاً. ثمّ دمج الأربعة في وصف واحد هو "الرجس" وطلب منّا اجتناب "الرجس" الذي فيها وليس اجتنابها هي. والرجس لغة معناه الاختلاط، ومعناه هنا اختلاط الأفكار لدى الإنسان وعدم اتّضاحها (confusion). وتطبيق معنى

الرجس على الأمور الأربعة يكون كالتالي:

أ- اختلاط الأنصاب (رجس الأنصاب) ————> الذبح عليها ﴿وأن تذبحوا على النصب﴾ (ورد في سورة المائدة الآية ٣).

ب- اختلاط الأزلام (الاستقسام بها) ————> وأن تستقسموا بالأزلام (تحريم ورد في سورة المائدة الآية ٣).

أمّا الخمر والميسر فهما من النواهي الإلهيّة وتطبيق معنى الرجس عليهما يكون كالتالي:

ث- اختلاط الخمر (رجس الخمر) ————> الإسكار (علماً بأن الخمر تشمل المشروبات الكحولية والمخدرات): نتيجة اختلاط الأفكار لا يعلم المصلي ما يقول عند صلاته وهو سكران لقوله تعالى: ﴿حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

ج- اختلاط الميسر (رجس الميسر) ————> توهّم الربح (علماً بأن الرابح الوحيد هو صاحب الكازينو).

عند تأمّل قوله: "اجتنبوا" الوارد في الآية ٩٠ من سورة المائدة، نجده لا يتضمّن أيّ تحريم للخمر وإنّما يحمل معنى تفادي الإثم الذي فيها ولم يقل بتحريمها لحضورها بشدّة في حياة الإنسان، مثل استعمال المواد المسكرة والمخدّرة في العمليات الجراحية، فاستعمالها في المجال الطبّي ليس فيه أيّ رجس بل فيه منفعة كبيرة للإنسان كما تبيّنه الآية (٦٧) من سورة النحل، أمّا استعمال هذه المواد لمجرّد الحصول على نشوة الإسكار فهذا هو الرجس الذي طلب منّا اجتنابه لأنّ تبعاته سيئة على الإنسان في علاقته بربّه لما جاء في قوله عند نهيه عن الصلاة في حالة السكر: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء ٤٣)، وفي علاقته بالآخرين كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ (المائدة ٩١). وهذه الحالات تحدث في كلّ بلاد العالم نتيجة السكر والقمار وكذلك مختلف أنواع الجرائم.

وكنا قد أوضحنا سابقاً أنّ الذبح على النصب والأزلام قد حُرّم في الآية ٣ من سورة المائدة، وبناءً على ذلك فإن الاجتناب نوعان: الأول اجتناب تحريم وهو الوارد بخصوص الأنصاب والأزلام رغم أنها لا توقع العداوة والبغضاء بين الناس لكنها لا تشتمل على أيّ منفعة للناس، والثاني اجتناب نهي وهو المتعلق بالخمر والميسر بسبب المنافع التي فيها لقوله تعالى: ﴿... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة ٩١)، فقد وُضعت في دائرة النواهي فقط لا التحريم رغم كونها توقع العداوة والبغضاء بين الناس لكن فيها منافع كثيرة لهم.

ولأن للخمر والميسر منافع كثيرة ومضارّ أكثر في نفس الوقت﴿... وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...﴾ (البقرة ٢١٩)، فقد ترك الله عزّ وجلّ مهمّة الاجتهاد فيهما للإنسان كي يحدّد الحالات المسموح فيها استعمالهما والحالات الممنوع فيها ذلك مع تشريع قوانين العقوبة المترتبة عن الاستعمال الممنوع من قبل السلطة التشريعية. ومثال ذلك حالة التخدير للعلاج والتطبيب، فالإسكار في هذه الحالة يتحوّل من منهيّ عنه إلى مباح لمنفعته الكبيرة، لأن التخدير للعلاج كإجراء العمليات فيه منفعة كبيرة للإنسانية ويحتاج إليه كلّ أهل الأرض.

كذلك الأمر بالنسبة للعب اليانصيب والمسابقات المماثلة له فهي أيضاً فيها منافع للناس والتشريعات الإنسانية تسمح بها وتضع قوانين ممارستها، بمقابل القمار الذي هو ضارّ جداً لما يسبّبه من عداوة وبغضاء بين الناس لذا نجد كلّ دول العالم تمنع ممارسته تماماً في غالب الأحيان وفي أحيان أخرى قليلة تسمح به مع مراقبة صارمة وتضع له قوانين مشددة عند السماح به مثل الولايات المتحدة الأميركية التي تسمح باستعماله في لاس فيغاس فقط لكن بصرامة.

٦- اجتناب رجس الأوثان

الوثنيّة ظاهرة تاريخية قديمة صاحبت مسيرة الإنسان منذ بداياته في رحلته نحو التوحيد، وتجسّدت باختلاف أنواعها كعبادة الكواكب من شمس وقمر

ونجوم...، وعبادة مظاهر الطبيعة من براكين وأمطار...، بالإضافة إلى عبادة الأصنام المنحوتة. غير أن تطوّر مستوى وعي الإنسان جعله يدرك الفرق بين الذات الإلهية المجرّدة في وحدانيتها، في ربوبيتها وألوهيتها، وبين الكواكب وظواهر الطبيعة أو الأصنام، بحيث أدرك أن الكواكب والطبيعة تسهم في التشكيل الكلي للكون، وأخضعها للدراسة ليفهمها بعمق مستعملاً العلوم التي توصّل إليها، وليتمكن أيضاً من التحكم في الطبيعة أكثر فأكثر، ومن ثمّ تحسين مستوى معيشته وتحقيق الرفاهية والتطوّر. كما أن مستواه المعرفي مكّنه كذلك من إدراك أن الأصنام التي كانت تُعبد في الحضارات القديمة كالحضارة البابلية والتي قبلها كالتي عاصرت إبراهيم عليه السلام والتي كانت منحوتة على شكل حيوان أو إنسان أو مزيج بينهما... هي مجرّد حجارة نحتها الإنسان قديماً بغرض التقرّب بها إلى الله، ولا تعدو الباقية منها حالياً أن تكون مجرّد تحف فنّية منثورة في الطبيعة يهتم بها للدراسة والسياحة فقط دون أن يترتب عن ذلك أيّ توجّه ديني عقائدي. أمّا التماثيل التي تُنحت لتمثيل رموز سياسية معيّنة في دولة ما كقولنا تمثال سعد زغلول...، فهذه التماثيل الكلّ يدرك أنها لا تُعدّ أكثر من رموز تُنحت لعرض قيمتها التاريخية. لهذا نحن نستغرب ما تقوم به الجماعات الإسلامية المتعصبة من هدم للتحف الفنية والتماثيل الرمزية كما فعلت طالبان في أفغانستان وداعش في العراق، فإبراهيم عليه السلام والرسول محمّد (ص) هدما الأصنام في الكعبة مع ما بين المرحلتين من فارق زمني لأنّ الأصنام في عهديهما كانت تسبّب الرجس للناس أي تخلط عليهم أفكارهم ومعتقداتهم لأنها كانت تمثل رمز الوثنية التي جاء كلّ منهما لمحاربتها والدعوة إلى عقيدة التوحيد، فهدمهما للأصنام كان مفسَّراً ومقبولاً، أمّا الآن ونحن في القرن الحادي والعشرين فنعتبر هذا التصرّف من العبث، ونتساءل بتعجّب وسخرية: إن كان المطلوب منّا هدم التحف الفنّية والرموز السياسية حالياً لتفاديها فماذا عسانا نفعل مع الكواكب

وظواهر الطبيعة التي لا يمكننا إزالتها في أيّ حال من الأحوال؟

الحقيقة أن هذه الكواكب وظواهر الطبيعة، وكذلك التحف الفنية والرموز حاضرة في كلّ خطوة من خطوات حياتنا، إذ لا يمكننا إزالة الأولى وهدم الثانية جميعاً... لذا طلب منا عزّ وجلّ في مُحكم تنزيله باجتنابها فقال (اجتَنبوا) ولم يقل (لا تقرَبُوا) لأنّنا نصادفها في حياتنا كثيراً ولا يمكننا تفاديها. فكلّ المظاهر التي كانت تُعبد مثل النّار ومظاهر الطبيعة كلها نعيش بها ومعها، لذا طلب منّا الله عزّ وجلّ اجتناب الرجس (الاختلاط) في الأوثان، ولم يطلب منّا اجتناب الأوثان، فلا يمكن أن يلتبس علينا أمر تمثال سعد زغلول مثلاً ونقدّم له ذبيحة أو نقدّم قرباناً للشمس لأننا نعلم أنّ الأول رمز سياسي والثانية مظهر من مظاهر الطبيعة لا أكثر.

٧- السخرية والاستهزاء

قال تعالى في كتابه عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات ١١).

تفرّق الآية بين مفردتي "القوم" و"النساء"، إذ جاءت الأولى جمع لمفردة "امرؤ"، بينما الثانية جمع لمفردة "امرأة"، بحيث وضعت الذكور على حدة والنساء على حدة لعله لكون سخرية النساء تختلف عن سخرية الذكور، غير أنّ مفردة "القوم" وردت في بعض المواضع في التنزيل الحكيم بمعنى الإناث والذكور معاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٥).

لقد ورد في الآية ١١ من سورة الحجرات النهي عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب لما في ذلك من أذيّة نفسية وتشويه للسمعة، فهذه الظواهر الموجودة

في كلّ المجتمعات عبر كلّ الأزمنة، نهى عنها سبحانه في كتابه وترك مهمّة الاجتهاد فيها للسلطة التشريعية لتحديد الحالات المسموحة منها والحالات الممنوعة حسب ظروف ومتطلبات كلّ مجتمع مع تحديد العقوبات المترتبة في اقتراف الممنوعة منها. أمّا ما يحدث في وسائل الإعلام من سخرية هادفة ولمز وتنابز نقدي كما نجده في الأعمال الفنّية الكاريكاتورية أو المسرحية والسينمائية التي يقوم فيها الفنانون والصحافيون بالسخرية والهمز واللمز بالسياسيين في عملية نقدهم لساستهم لحثهم على تحسين أدائهم للمهام الموكلة إلأيهم، فمسموح بها ولها قوانين خاصة تضعها السلطة التشريعية لتضبط ممارستها.

٨- دخول البيوت

قال تعالى في كتابه عزّ جلّ:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة ١٨٩)،
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور ٢٧)،
- ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور ٢٨)،
- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (النور ٢٩)،

ورد النهي عن دخول البيوت مفصّلاً في هذه الآيات لأهمّيته، لأن الأصل دخولها بإذن أهلها، إذ من الضروري طلب الإذن منهم وإعلامهم بذلك قبل وقت القدوم لتفادي إحراجهم بقدوم مفاجئ قد يزعجهم، فإذا اعتذروا عن

عدم إمكانية استقبالنا فلا جناح عليهم في ذلك وعلينا تقبل الأمر دون تذمّر كما تبيّنه الآيتان ٢٧ و٢٨ من سورة النور. بينما الآية ١٨٩ من سورة البقرة تحرص على طلب الإذن في دخول البيوت باستعمالها عبارة "وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا" لما فيها من إشارة إلى الحرص على وجوب طلب الإذن في دخول البيوت بدل "دخولها من ظهورها" بحيث يدخل هذا الفعل في دائرة التلصّص على الآخرين. أمّا الآية ٢٩ من سورة النور، فتسمح لنا بدخول البيوت غير المسكونة بإذن أو بدون إذن إن كان لنا فيها متاع، لكن علينا ألّا نجعل ذلك ذريعة لنا لهتك حرمات بيوت الآخرين بل هذه الحالة مسموح بها فقط في حالات خاصّة تحدّدها السلطة التشريعية للمجتمع كوقوع جريمة تُضطرّ الشرطة على إثرها إلى دخول البيوت للتفتيش أو إجراء تحرّياتها. فالتشريع الإنساني هو الضابط لهذه العملية بوضع قوانين تحدّد شروط الحصول على رخصة من القاضي أو رئيس قسم الشرطة... لدخول البيوت من ظهورها أو من أبوابها دون استئذان من أهلها.

٩- النهي عن نقض اليمين وقول الزور

قال تعالى في كتابه عزّ وجلّ:

- ﴿... وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا...﴾ (النحل ٩١)،
- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ...﴾ (النحل ٩٢)،
- ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا...﴾ (النحل ٩٤)،

اكتفى الله عزّ وجلّ في كتابه بالنهي عن نقض الأيمان بعد تأكيدها سواء بدافع الرغبة أو لخلق البلبلة في المجتمع وإحداث الفوضى فيه كما تبيّنه الآيتان

الأولى والثانية، لكنه في المقابل لم يحرّمه لأنّ القسم على الأيمان ظاهرة موجودة في المجتمعات الإنسانية عبر كلّ الأزمنة لكن تطبيقاتها تختلف من مجتمع إلى آخر ومن حالة إلى أخرى. ولذا يمكن للحالف أن يقسم على يمين ما ثمّ يدرك بعدها أنه كان مخطئاً أو يكتشف أنه أقسم على أمر ما توهّم أنّه حق ثمّ اكتشف بطلانه في ما بعد، حينها يحق له نقض يمينه لأن ذلك هو الصواب بعدم الإصرار على الخطأ أو الباطل بعد العلم به، لأن نقض اليمين دون سبب معقول منهيّ عنه كما أن البقاء على اليمين بعد بيان خطئه أو بطلانه فعل غير مقبول عقلاً، وهذا ما نهت عنه الآية (٩٤) من سورة النحل ووصفته بأنه فعل تزلّ القدم فيه بعد ثبوتها، أمّا نقضه لسبب معقول فمسموح به. ومهمّة تحديد الحالات المسموحة أو الممنوعة ووضع قوانين لكل منها ترجع إلى السلطة التشريعية في المجتمع لضبطها.

أمّا اللغو في الأيمان فقد سمّاه عزّ وجلّ في كتابه "قول الزور"، ونهى عنه وأمر باجتنابه في قوله تعالى: ﴿... وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (الحج ٣٠)، واجتنابه يستدعي أن يحذر الإنسان من الوقوع فيه. ومثال ذلك أن يجد الإنسان نفسه في موقف يُضطرّ فيه إلى مدح بضاعة ما للترويج لها أو مدح شخص ما وهذا يحصل كثيراً من باب المصلحة أو اللباقة، فإذا نتج عن هذا السلوك ضرر بالآخرين فهذا الأمر منهيّ عنه، أمّا إذا لم ينتج عنه أيّ ضرر فلا شيء في ذلك. وعلى السلطة التشريعية في أيّ مجتمع أن تحدّد الفرق بين هذا وذاك حيث تمنع الحالة الأولى وتفرض عقوبات على مقترفها لأن الغرض منها هو التغرير بالآخرين وتضليلهم، بينما لا تضع أيّ عقوبات على الحالة الثانية التي لا يترتب عنها أيّ ضرر.

١٠- الأخلاق العامة

مثلما ذكر الله عزّ وجلّ أوامر ونواهي محدّدة في كتابه وطلب من الإنسان

المسلم التحلي بها كما رأينا، ذكر أوامر ونواهي أخرى تمثل الأخلاق العامّة لمساعدة الإنسان على بناء مجتمع وربط أواصر علاقات اجتماعية مبنيّة على الاحترام المتبادل بين كلّ أفراده لتحقيق أمنه واستقراره وخلق جوّ من الراحة للجميع فيه. ومن مثل هذه الأخلاق المذكورة في كتاب الله عزّ وجلّ نجد ما يلي:

أ- **التحيّة**: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النساء ٨٦)،

ب- **العفو عن السوء**: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء ١٤٩)،

ت- **الصفح**: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر ٨٥)،

ث- **عدم الجهر بالسوء**: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء ١٤٨)،

ج- **عدم الإسراف**: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف ٣١)،

ح- **عدم البخل**: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء ٢٩)،

خ- **عدم التكبّر**: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء ٣٧).

وغيرها من الأوامر والنواهي الإلهية التي تمثل الآداب العامة في أيّ مجتمع والمعروفة في كلّ المجتمعات لأنّ جلّها يحثّ على ربط علاقات اجتماعيّة ملؤها الودّ والاحترام المتبادلان بين أفراد المجتمع الواحد، لأنّ القيم الإنسانية تخضع للتراكم أي تخضع للإضافات تحت باب الحكمة ولا تحتاج إلى وحي ولا تنقطع على ألسنة الحكماء، لأنّ الحكمة تمثل خبرات الشعوب

المتراكمة على مدى مسيرة التاريخ، إذ إن التاريخ أكبر حكيم واعظ يمثّل محصلة خبرات الشعوب. ومن الحكمة ما هو مقترن بالعلم والتعليم بدلالة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة ١٢٩)، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٥١). فالحكمة حصيلة نشاط عقلي إنساني راقٍ تراكمت حتى وصل الإنسان بفضلها إلى مرتبة حكيم يضع الأمور حيث ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي. فالتفكّر والتدبّر والاتّعاظ والاعتبار أنشطة عقلية إنسانية راقية لا يقدر على ممارستها إلا ذوو العقول اللبيبة، ولهذا قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة ٢٦٩)، أي لأصحاب العقول النيّرة لعملهم على ترقية مجتمعاتهم.

لكن حتى نتمكن من فهم كيفية ضبط الأوامر والنواهي الإلهية في كلّ مجتمع، علينا أن نفرّق بين كلّ من القيم الإنسانية وبين الأعراف. فأمّا القيم الإنسانية فهي تمثّل القانون الروحي الاجتماعي الذي يربط أفراد بني الإنسان بعضهم إلى بعض لكونهم مجموعة إنسانية لا حيوانية، بغضّ النظر عن مللهم الدينية أو توجّهاتهم الفكرية أو حتى بنياتهم الاقتصادية، لأنّ القيم الإنسانية تحمل صفة العالمية وتأخذ الطابع الشمولي الكوني، وبناءً على ذلك جاءت وحياً من الله تعالى وتتمثل في المحرّمات الـ١٤ المحدّدة والمحصورة في كتاب الله، وفي الأوامر والنواهي التي جاءت في كتابه عزّ وجلّ. وإن كانت المحرّمات محدّدة في التنزيل الحكيم، فإن الأوامر والنواهي التي هي عبارة عن ظواهر اجتماعية مستمرّة وقائمة عبر مختلف الأزمنة والأمكنة يخضع ضبطها لظروف المجتمعات وأعرافها، بينما العرف هو ما عرفه الناس ثمّ تعارفوا عليه فأصبح مألوفاً للذوق والقبول الاجتماعي وبهذا يصبح له معنى

إيجابي. أمّا المنكر فهو ما نكره الناس مبدئياً ثم استنكروه اجتماعياً أي يصبح غير مألوف للذوق الاجتماعي. ومبدأ (المعروف والمنكر) هو من أهمّ أسس السلوك الإسلامي العام، لهذا أمر الله عزّ وجلّ رسوله (ص) بالأخذ به في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ١٩٩)، أي اتباع العرف الذي يكون سائداً في أي مجتمع ممّا لا يتناقض مع ما جاء في كتاب الله من محرّمات. وبما أن الأعراف وليدة العلاقات الاجتماعية وشروط البيئة في المجتمع، فهي متغيرة حسب المكان والزمان، بحيث إن أعراف أهل البادية والصحراء تختلف عن أعراف أهل الغابات والجبال العالية في الطعام والشراب والملبس وأسلوب الضيافة والأفراح والمآتم، مثل قضيّة اللباس التي نرى أنها مسألة تخضع لعرف المجتمع ولا علاقة لها بالحلال والحرام. وعلى هذا الأساس يجب أن يكون ضبط الأوامر والنواهي الإلهية مراعياً لأعراف المجتمع حتى يتماشى معها ولا يتصادم معها فيرفض المجتمع ذلك.

إنّ العمل الصالح الذي أراده الله أن يكون الركن الثالث للإسلام يتمثل في المحرّمات التي يجب على الإنسان عدم اقترافها والحرص من الوقوع فيها للحفاظ على الفرد والمجتمع معاً. بالإضافة إلى الأوامر والنواهي التي يتحتّم على المسلم التمييز بين الظروف التي تُمنع فيها ممارستها عن تلك التي تسمح بممارستها بضبط عملية تطبيقها أو منعها بما يتماشى مع مصلحة كلّ من الفرد والمجتمع ووفق ما تقتضيه أعراف كلّ مجتمع، لأن الغاية الأسمى من الدين هي الحفاظ على مصلحة الفرد والمجتمع معاً، فالفرد الإنسان باعتباره نواة أساسية يجب أن تكون صالحة لبناء هيكلة إنسانية كبرى تتمثل في الشعب الذي يمثل المجتمع ثم بنية أكبر ممثلة في المجتمع الإنساني ككل على اختلاف الشعوب. وبناءً على هذا المقياس فإن كلّ فرد من هذه الشعوب على تنوّعها إذا آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً بالابتعاد عن المحرّمات تماماً والتعقل في عملية ضبط النواهي، فهو مسلم مهما كانت ملته الدينية أو الشعب الذي

ينتمي إليه. وتلك حكمة إلهية بالغة لأنه عزّ وجل هو من أراد لنا الاختلاف كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣) ومع كلّ الاختلافات التي من الممكن أن تفرّق بيننا كبشر كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الروم ٢٢)، بما فيها من اختلافات عرقية أو اختلاف اللغات وما يأتي في سياقها من اختلاف الثقافات والمعتقدات؛ إلا أنه عزّ وجلّ أبقى لنا قاسماً مشتركاً واحداً بيننا هو الدين الإسلامي كمقياس وحيد لصلاح الفرد أو فساده بعيداً عن كلّ المعتقدات الدينية والثقافات. وبفضل هذا المقياس يمكن أن يعرف كلّ فرد نفسه إن كان مسلماً وذلك عند التزامه بالأركان الثلاثة للإسلام كما جاءت في كتابه تعالى وهي: الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح بما جاء فيه من ابتعاد عن المحرّمات وضبط للنواهي، وهكذا فإنّه أمام هذا المقياس الإلهي العادل تسقط كلّ المقاييس الأخرى التي يضعها الناس للتفريق بين بعضهم البعض لأنها غالباً ما تكون مقاييس غير عادلة بحكم نظرة الناس المحدودة للأمور على عكس علم الله المطلق.

انطلاقاً ممّا سبق يحق لنا أن نتساءل أمام هذا المعنى العام للإسلام الذي يشمل كلّ مؤمن بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً: إن كان هذا الدين "الإسلام" الذي ارتضاه الله لعباده وأمرهم بالالتزام به جاء بهذا المعنى الشامل لكلّ الملل الدينية على تنوّعها فوق الأرض: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٦٢)، بحيث يصبح المسلم هو كلّ من يلتزم بالأركان الثلاثة للإسلام مهما كانت ملته الدينية، فمن هو غير المسلم وما هي الصفات التي تجعل منه غير مسلم، وما هي التسمية التي سمّاه الله بها في كتابه الحكيم؟

٣- الإجرام معنى مضادّ للإسلام في كتاب الله

عند التعمّق في البحث في نصوص كتاب الله عزّ وجلّ نجد أن المصطلح المضادّ للإسلام هو "الإجرام"، ويقابله وصف "مجرمون" مضاداً لوصف "مسلمون" كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم ٣٥، ٣٦). وقد ورد مصطلح "جرم" بكلّ مشتقاته ٦٧ مرّة في كتاب الله، ومعناه لغة القطع، ومنه سُمّيت الأجرام السماوية أجراماً لأنّها منفصلة أي مقطوعة بعضها عن بعض. ومنه جاء قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (النحل ١٠٩)، أي إنّ خسارتهم في الآخرة أمر مقطوع به ومحسوم لا نقاش فيه.

إن كان المصطلح القانوني المتداول اليوم في كلّ المجتمعات، بتسمية السارق والقاتل والغاصب مجرماً، فإن الأصل في ذلك يرجع إلى المعنى اللغوي لوصف "مجرم" بحيث إنه بصفة عامّة هو الذي يقطع صلته بالمجتمع وقوانينه وينطلق على هواه دون مراعاة لقوانين أو قيم إنسانية. ونجد المعنى اللغوي نفسه في كتاب الله لأنّه جاء فيه أنّ المجرم هو الذي يقطع صلته بالله فينكر وجوده سبحانه وتعالى ويكفر باليوم الآخر، ويكذّب بالبعث والحساب، وبالإضافة إلى ذلك يقطع صلته بالقيم الإنسانية فلا يعترف بها ولا يحترمها ولا يطبّقها في نفسه ولا تجاه مجتمعه، وهو بذلك يقطع صلته بالله من جهتين: عدم الإيمان به وبيوم القيامة، و عدم احترام القيامة الإنسانية التي خلقت فيه بالفطرة.

علماً بأنّ ما نطلق عليه بمصطلحنا المعاصر اسم "الملحد"، سمّاه الله في كتابه "مجرماً" لأنّ مصطلح الإجرام أكثر دقة من مصطلح "الإلحاد"، لأننا نعرف أنّ الملحد بمعناه الذي نعرفه قد لا يكون مؤمناً بالله لكنه قد يحترم القيم الإنسانية على عكس المجرم الذي بالإضافة إلى عدم إيمانه بالله فإنه لا

يحترم القيم الإنسانية ولا يطبّقها. وقد ذُكر المصطلحان في كتاب الله، فأما بالنسبة للإلحاد فإننا نجد النصوص الثلاثة التالية:

- ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف ١٨٠)،
- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل ١٠٣)،
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (فصلت ٤٠)،

المعنى اللغوي للإلحاد هو الميل عن الاستقامة، وهذا المعنى نجده ظاهراً بشكل جليّ في آية النحل ١٠٣ لأنه قال: ﴿... يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ...﴾ أي يميلون إليه، بمعنى أن اللسان الذي مالوا إليه أعجمي وتركوا في المقابل اللسان العربي الذي يمثل اللسان المستقيم. وكذلك بالنسبة للآيتين ١٨٠ من سورة الأعراف و٤٠ من سورة فصلت، فقد قصد فيهما الميل عن أمر إلى أمر آخر كما جاء في الأولى قوله: ﴿... يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ...﴾ أي يميلون عنها إلى أمر آخر في مسألة الدعاء، وكما جاء في الثانية قوله: ﴿... يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا...﴾ أي يميلون عنها إلى أمر آخر. أمّا الإجرام فهو القطيعة مع أمر ما، فالمجرم فهو الذي يقطع صلته بشيء ما تماماً دون الحاجة إلى بديل منه، كما جاء في قوله تعالى بخصوص الإجرام النصوص التالية:

- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (الروم ١٢)،
- ﴿... وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص ٧٨)،
- ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (الرحمن ٤١-٤٢-٤٣)،

- ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (المرسلات ١٨-١٩).

تقدّم لنا هذه النصوص صوراً تصف فيها حالة المجرمين حين يقومون يوم القيامة من أجداثهم بعد نفخة الصور الثانية، فيرون رأي العين ما كانوا يكذبون بوجوده، فيبهتون دهشة، ويظهر ذلك على وجوههم إلى حدّ لا يحتاجون معه إلى سؤال وجواب، فهم يؤخذون بدلالة ما ارتسم على وجوههم، ليصلوا النار التي كانوا بها يكذّبون، لأنّهم بقطعهم الصلة بالله وقطع كلّ صلة بالقيم الإنسانية التي تجاوزوها فتسببوا بذلك بأذيّة غيرهم، لا يملكون أي حساب مفتوح عند الله.

انطلاقاً من قولنا بأنّ الإجرام هو قطع الصلة بالله نفهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (المدثر ٣٩-٤٧).

فالصورة هنا تذكر لنا تساؤل أصحاب اليمين وهم في الجنّة عن سبب دخول المجرمين النار؟ فيجيب المجرمون: لأنّنا لم نعتنق الإسلام نظرياً وعملياً أي لم نسلّم بوجود الله فقطعنا صلتنا به ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ولم نسلّم باليوم الآخر ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، ولم نقدّم عملاً ينفع الخلق ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ بل عملنا ما يسيء ويضرّ ولم نقم بعمل صالح ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾. فهذه النصوص من كتاب الله تبيّن أنّ قطع الصلة بالله وبالقيم الإنسانية هو الذي يجعل أحدهم يوصف بـ"المجرم"، ولا علاقة للموضوع بالصلاة كشعيرة. ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (سورة الماعون). فالشبه كبير بين سورة المدثر وسورة الماعون، لأن التكذيب بيوم الدين والكفر بوجود الله والامتناع عن القيام بالعمل الصالح

بعدم مراعاة القيم الإنسانية وعدم تقديم المعونة للناس وعدم ترك الآخرين يساعدونهم، يخرج الإنسان من دائرة الإسلام إلى دائرة الإجرام، ولهذا فنحن نرى أنّ المقصود في السورتين بـ"المصلين"، هو الصلة بالله وليس الصلوة (الصلاة كشعيرة)، لأنه يجب أن يكون هناك فرق بين معنى الصلاة (بالألف) ومعنى الصلوة (بالواو) في كتاب الله لأن الدقة التي جاء بها تستوجب ذلك.

وإذا أردنا أن نفرّق بين كلّ من هذين المعنيين، فما علينا إلّا أن ننظر في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور ٣٧) (هنا الصلوة بالواو). وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور ٤١) (هنا الصلاة بالألف).

نلاحظ أن الصلوة وردت في الآية الأولى بالواو، وبعد فعل "الإقامة"، ونفهم هنا أنها بمعنى الشعيرة (الركوع والسجود)، أما في الآية الثانية فقد وردت الصلاة بالألف (صلاته)، والحديث فيها عن الطيور، وبما أننا نعلم أنّ الطيور لا تقيم الصلوة (الشعيرة) المحدّدة بالركوع والسجود، فإننا نفهم أنها هنا بمعنى الصلة مع الله، وهي صلة تسبيح ودعاء يعلمها الطير ولا نعلمها نحن، لكنّ الله أخبرنا بها وبوجودها. نخلص إلى أن الله عزّ وجلّ في كتابه الحكيم قد بيّن الصلوة (الشعيرة) والصلاة (الصلة بالله)، ليدلنا على وجوب تمييز المعنى المقصود من كلّ واحدة منهما. وبناءً على ذلك يصبح المسلم هو الذي يربط صلته بالله بالإيمان به وباليوم الآخر ويعمل صالحاً، أمّا المجرم فهو الذي يقطع صلته بالله فيكفر به وباليوم الآخر ولا يعمل صالحاً.

إذاً، فإن الإسلام لا يتم إلا بربط الصلة بالله وتوثيقها بالإيمان به وباليوم الآخر مع القيام بالعمل الصالح، وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ١٦٢–١٦٣). ونلاحظ في آيتي الأنعام أن الصلاة جاءت من الصلة وجاء في آخر الآية ذكر المسلمين، أي إن الصلة بالله لها علاقة مباشرة بالإسلام. أمّا قوله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ فتعني أن الإسلام الذي بدأ بنوح آل إلى النبي (ص) لأنّ "الأول" لغة بمعنى ابتداء الأمر وانتهائه، أي إنّ الدين "الإسلام" الذي ابتدأ بنوح في رسالته انتهى إلى محمّد في رسالته الخاتمة مصداقاً لقوله تعالى:

– ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ (المائدة ٣)،

– ﴿... وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...﴾ (الأحزاب ٤٠).

نتيجةً لهذا الباب، نجد أنّ الإسلام الذي جاء به الأنبياء والرسل بدءاً بنوح وصولاً إلى النبي (ص)، يرتكز على الإيمان بالله ثم الإيمان باليوم الآخر ويتوَّج بالعمل الصالح الذي يمثل القيم الإنسانية التي تشتمل على المواصفات التالية:

أ– تمثل الوازع الذاتي للإنسان (الضمير) ويتم الالتزام بها من خلال التربية.

ب– هي قيم ذاتية ليس لها وجود خارج الوعي الإنساني، يمكن خرقها بسهولة لأنها ضعيفة بذاتها. لذا يجب تحويلها إلى قيم اجتماعية راسخة، بحيث يتعرّض مخالفها أو مرتكبها لنبذ المجتمع واحتقاره.

ت– لا تحتاج إلى أدلة في الدعوة إليها، لكونها فطرية تُقبل بذاتها ولذاتها. فالصدق والأمانة فضيلة، والغش والكذب رذيلة دونما حاجة لأدلة على ذلك.

ث– لا تخضع للتصويت، ولا تخضع للرأي والرأي الآخر، بمعنى أنه لا يجوز لمسلم مؤمن بالله واليوم الآخر اعتناق الكذب وعقوق الوالدين، فقط

لمخالفة الآخر الذي يرى القول بالصدق وبرّ الوالدين.

على هذا الأساس يجب في كلّ مجتمع العمل على ترسيخ هذه القيم وتعميقها في نفوس أفراده على أنّها قيم تحمل الطابع الكوني الشمولي على أن يتعامل بها الآخر مهما كانت الملة الدينية للآخر لأن الأصل في العلاقات بين الشعوب هو التعارف، أمّا الحروب فهي حالات استثنائية لها وضعها الخاصّ الذي لا يُطبّق بصورة عامّة في مسألة العلاقات بين الدول على اختلاف مللها الدينية وتوجّهاتها الفكرية.

٤- رضوان الله جاء لجميع المسلمين

تثبت لنا بعض آيات كتاب الله أنّ الصحابة هم الذين اختارهم الله لرفقة الرسول (ص) واتّباعه ونصرة دعوته في قوله تعالى:

- ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة ١٠٠).
- ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة ٢٢).

بحيث تذكر الآية الأولى أن هؤلاء قد رضي الله عنهم، ونحن نعلم أن رضى الله من أنبل الغايات التي يسعى إليها كلّ مسلم، ونعلم أن هؤلاء استحقوا هذا الرضى عن جدارة لأنهم آمنوا بالرسول وساندوه ونصروا الرسالة التي جاء بها، وضحّوا في سبيلها الكثير كي تنتصر، لكنّنا نتساءل من جهة أخرى هل

يمكن أن يكون رضى الله جاء حصراً لهؤلاء فقط، وهل لا يمكن لمن جاء بعد هذا العصر أن يكسب رضى الله؟

الحقيقة التي نجدها في كتاب الله، المصدر الأصدق الذي يمكن الاعتماد عليه، تبيّن لنا أنّ الله لم يخصّ هؤلاء القوم فقط بالرضى عنهم، بل وردت آيات أخرى تبيّن أن رضى الله ليس محصوراً بهؤلاء القوم ولكن يمكن أيضاً لمن بعدهم الفوز به بدليل قوله:

– ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (المائدة ١١٩)،

– ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البيّنة ٧–٨)،

فأمّا الآية ١١٩ من سورة المائدة فجاءت في سياق حديث الله مع عيسى يوم القيامة، وبيّن الله فيها أن رضى الله سيكون من نصيب من آمن بعيسى كرسول نبيّ بشر ولم يُشرك بالله من النصارى. وأمّا الآيتان ٧ و٨ من سورة البيّنة فتوضحان أنّ رضى الله مطلق في كلّ زمان ومكان عن كلّ من آمن بالله وعمل صالحاً وتبيّن أنّ الخيرية في مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، وهي قائمة إلى يوم الدين. على هذا الأساس نفهم أنّ رضى الله قائم عن كلّ من آمن به وعمل صالحاً في كلّ الأزمنة والعصور، وليس محصوراً في جيل الصحابة، بل الله راضٍ عن كلّ من آمن به وقام بالعمل الصالح مهما كانت ملته الدينية في كلّ زمانٍ ومكان، لأنّ أساس الإسلام هو الإيمان بالله والعمل الصالح الذي به تتحقق خيرية الإنسان لأن الإيمان بالله يتجلى في محبّة الإنسان لله ورغبته في التقرّب إليه والفوز برضاه بالعمل الصالح طاعة له سبحانه وتعالى.

فالإنسان بحكم طبيعته البشرية نَزّاع للأمور الإيجابية والسلبية على السواء أي لفعل الخير والشرّ وعلى السواء، فينتصر الخير الذي فيه مرّة ومرّة ينتصر الشرّ من خلال صراع الخير والشرّ فيه. وانطلاقاً من هذا الصراع تفاعل الصحابة مع الوحي الإلهي، كما تفاعل معه من كان قبلهم من أتباع عيسى وكما تفاعل ويتفاعل معه من بعدهم على مرّ العصور. ونحن نقرّ بأنّ الله قد رضي عن الصحابة كما رضي عمّن كان قبلهم وكما رضي ويرضى عمّن جاء بعدهم بكلّ ما فيهم جميعاً من عيوب وأخطاء كلّ حسب زمانه بشرط أن يميلوا إلى الخير قدر استطاعتهم ويحرصوا على انتصاره على الشرّ، لأنّ رضى الله مرتبط بالإيمان به والعمل الصالح وهذا يؤكد أنّ التاريخ يسير دائماً للأمام وليس العكس لأنّ القيم الإنسانية تترسّخ بتطوّر مستوى وعي الإنسان. وهذه القيم راسخة أكثر بكثير ممّا كانت عليه منذ أربعة عشر قرناً.

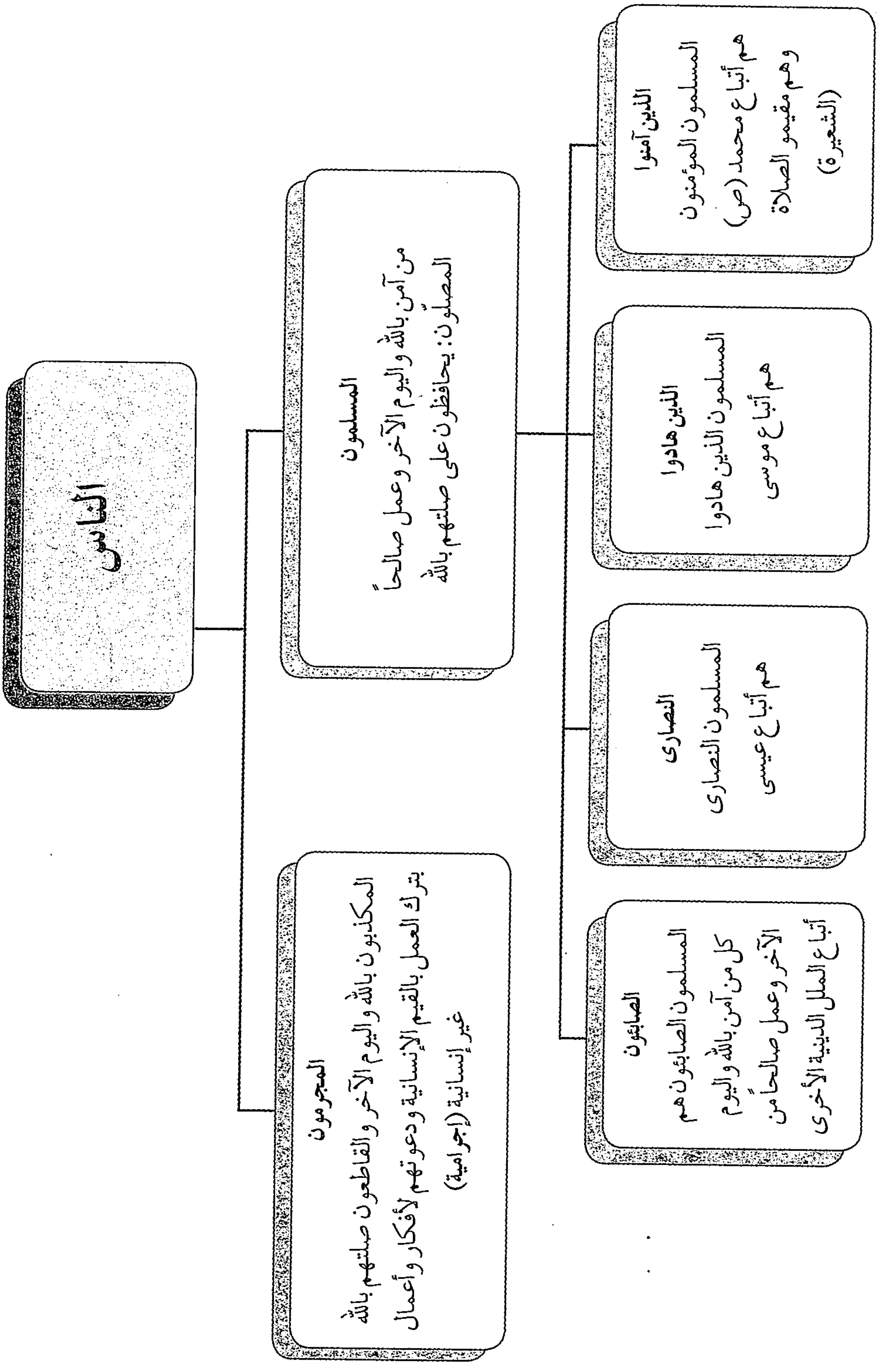
الناس
المسلمون
من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً
المصلون: يحافظون على صلاتهم بالله
المجرمون
المكذبون بالله واليوم الآخر والقاطعون صلاتهم بالله
بترك العمل بالقيم الإنسانية ودعوتهم لأفكار وأعمال
غير إنسانية (اجرامية)
الذين آمنوا
المسلمون المؤمنون
هم أتباع محمد (ص)
وهم مقيمو الصلاة
(الشعيرة)
الذين هادوا
المسلمون الذين هادوا
هم أتباع موسى
النصارى
المسلمون النصارى
هم أتباع عيسى
الصابئون
المسلمون الصابئون هم
كل من آمن بالله واليوم
الآخر وعمل صالحاً من
أتباع الملل الدينية الأخرى

الفصل الثاني

من هم المؤمنون؟

عندما يعي الفرد المنتمي إلى أمّة محمّد (ص) الحياة، يجد نفسه يعيش في مدينة يُرفع فيها الأذان خمس مرّات يومياً، وتقام فيها الاحتفالات ابتهاجاً بقدوم شهر رمضان لصيامه وقيامه، كما يشهد العديد من الولائم التي تُعدّ لاستقبال الحجّاج القادمين من البقاع المقدّسة بعد أدائهم مناسك الحجّ، ويرى انتشار ظاهرة إخراج الزكاة على الفقراء والمساكين. فيكبر الفرد وفي أعماقه هذه الصورة الجميلة للحياة الدينية في مجتمعه التي تجعله يحبّ القيام بالشعائر لأنه يشعر بأنها تمثل جزءاً من هويّته وثقافته التي غرست في داخله منذ نعومة أظافره. لكن هذا الأمر يدفعنا إلى طرح سؤال جدّ مهم وهو: إن كان الإسلام كما رأينا يحتوي كلّ الملل الدينية على اختلافها، أي إنّ كلّ من يؤمن بالله وباليوم الآخر ويعمل صالحاً فهو مسلم مهما كانت ملّته الدينية؟ فأين تصنّف هذه الشعائر التي نؤدّيها ونفتخر بها في مجتمعاتنا؟

هذا السؤال يحتّم علينا البحث في نصوص كتاب الله عن معنى الإيمان كما بحثنا سابقاً عن معنى الإسلام حتى نتبيّن الفرق بين الإسلام والإيمان من خلال هذه النصوص، ونفهم على أساس فهمنا للإيمان كما جاء في كتاب الله مكانة الشعائر التي نؤدّيها نحن متّبعي الملّة المحمّدية.

١- معنى الإيمان من كتاب الله

نبدأ بالبحث عن معنى الإيمان من خلال ما جاء في قوله تعالى:
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ...﴾ (النساء ١٣٦)،
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد ٢٨)،
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (محمّد ٢).

نلاحظ في هذه الآيات أنّ فعل آمنوا يتكرّر مرّتين في كلّ آية. فلماذا هذا التكرار؟ وما معنى أن يخاطب تعالى الذين آمنوا، فيأمرهم بأن يؤمنوا بالله ورسوله، لا يمكن أن يكون الأمر مجرّد تكرار لأنّ ذلك يُعدّ حشواً في الكلام، وعليه يصبح التكرار بمعنى أنّ الذين "آمنوا" المذكورة في المرة الأولى لم يؤمنوا بعد برسوله (ص) لهذا طلب منهم الإيمان به في المرة الثانية؟ وما معنى أن يأمر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يؤمنوا بما نزل على محمّد (ص) كما جاء في الآية ٢ من سورة محمّد، إلاّ إن كان هؤلاء لم يؤمنوا بالرسالة المحمّدية بعد؟

في واقع الأمر، لا تحتاج هذه الآيات إلى تأمّل عميق لربط دلالاتها مع ما قلناه سابقاً عن معنى الإسلام والمسلمين. فإذا فهمنا أن الإسلام هو الإيمان بالله وباليوم الآخر والعمل الصالح، فهمنا أن المقصود بقوله "الذين آمنوا" المذكورة في المرة الأولى في الآيات الثلاث هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وأن الله يطلب من هؤلاء في قوله "آمنوا" الثانية أن يؤمنوا برسوله محمّد وما نزل عليه (ص). من هنا نفهم أنّ المسلم يجب أن يكون حتماً مؤمناً بالله وباليوم الآخر ويعمل صالحاً، ولكن لا يشترط أن يكون متّبعاً

للملة المحمّدية، لأنه قد يكون من ملّة دينية أخرى، لأن الملة الدينية عبارة عن طريقة ممارسة الشعائر الدينية، وتختلف كلّ ملة عن أخرى حسب طريقة تأديتها للشعائر من صوم وصلاة وحج وزكاة. وهكذا نستنتج أنّ المقصود في قوله تعالى "الذين آمنوا" الأولى الواردة في الآيات السابقة هم المسلمون جميعاً مهما كانت مللهم الدينية لتسليمهم بوجود الله إيماناً به، أمّا المقصود بقوله تعالى "آمنوا" الثانية فهم "المؤمنون" من أتباع محمّد (ص)، أي إنّ أتباع محمّد (ص) هم مسلمون لأنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر ويعملون صالحاً، وهم فوق ذلك مؤمنون لأنهم آمنوا بالنبي (ص) ويتبعون ملته في الشعائر. وهم يسمّون بذلك "مسلمين مؤمنين". ومن هنا ينجلي لنا الفرق بين كلّ من "الإسلام" و"الإيمان" الذي يتضح جليّاً من خلال قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾ (الحجرات ١٤)، فالآية تبيّن صراحة أنّ ثمّة فرقاً بين الإسلام والإيمان، وهكذا نفهم أيضاً أن الإسلام هو الحد الأدنى المطلوب من الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر ٢).

من هنا نفهم أنّ أركان الإسلام التي تتضمّن التسليم إيماناً بوجود الله واليوم الآخر والعمل الصالح يجب أن تتوفر في الإنسان كي يكون ضمن دائرة الإسلام كما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأحقاف ١٥). لاحظ معي عزيزي القارئ كيف قرنت هذه الآية العمل الصالح المتمثل في برّ الوالدين بالإسلام لأنه قال: ﴿وإنّي من المسلمين﴾، ولم يقل: "وإنّي من المؤمنين" لأن العمل الصالح ركن من أركان الإسلام لا الإيمان وذلك يؤكده قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة ٢٧٧)، إذ نجد هذه الآية تفصّل بين العمل الصالح وبين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أي بين العمل الصالح وبين الشعائر، بحيث نفهم من هذه الآية أنّ المؤمنين أي أتباع النبي (ص) إذا قاموا بالعمل الصالح من باب الإسلام ثم قاموا بالشعائر من باب الإيمان به (ص) فلهم أجرهم عند ربّهم على إسلامهم وعلى إيمانهم أي على الاثنين معاً. وهذا يبيّن لنا أنّ الإيمان يقوم على محورين: الأول الإيمان بمحمّد (ص) وما ينجرّ عنه من وجوب طاعته كرسول في الرسالة التي جاء بها، والمحور الثاني يتمثل في أداء الشعائر. على ضوء هذا المعنى للإيمان والمؤمنين، نحاول أن نفهم قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة ٢٨٥)، بحيث نلاحظ قوله (المؤمنون) جاء بعد الرسول، وبما أن أتباع محمّد (ص) هم المؤمنون قال: ﴿... وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾. وبالتالي هم "مسلمون مؤمنون"، فهم مسلمون وفقاً لقوله الذي جاء في الآية السابقة: ﴿كل آمن بالله وملائكته﴾ لأنّ الإيمان بالله وملائكته من الإسلام، وهم مؤمنون لأنهم آمنوا بالنبي محمّد (ص) وما جاء به، وبما أنّ الرسالة المحمّدية هي آخر الرسالات فالنبي (ص) يؤمن بمن قبله من الرسل والرسالات وما جاؤوا به من كتب ومن يؤمن به (ص) عليه أن يؤمن كذلك بهؤلاء الرسل ورسالاتهم وما جاؤوا به من كتب سماويّة. وبما أنّ الطاعة تكون للرسل في ما جاؤوا به لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ...﴾ (النساء ٦٤)؛ وبما أنّ تسمية "المؤمنون" جاءت في من آمن بالنبي (ص) حصراً، فقد أمرهم الله عزّ وجلّ بطاعته (ص) كرسول لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران ١٣٢)، وهذا معناه وجوب اتباعه (ص) في ما جاءه من رسالة بما فيها من تكاليف وعلى رأسها الشعائر.

نجد الإيمان بمحمّد (ص) كنبي ورسول في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحديد ٢٨). وأمّا وجوب اتّباعه في الشعائر باعتبارها تكاليف على المؤمنين به (ص) فنجد ذلك في قوله تعالى:

– إقامة الصلاة: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء ١٠٣)،

– إيتاء الزكاة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون ١–٤)،

– صيام رمضان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٨٣)،

– حج البيت: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ (آل عمران ٩٧).

والشعائر عبارة عن تكاليف لا تتماشى مع الفطرة لهذا جاء في الآية ٢٨٦ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (البقرة ٢٨٦)، لأنّ التكاليف يجب أن تتناسب مع وسع واستطاعة الإنسان. لكن بما أنّ الاستطاعة تتفاوت من إنسان إلى آخر، بيّن الله لنا أنّ التقوى تأتي متفاوتة من إنسان إلى آخر في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا...﴾ (التغابن ١٦)، فالطاعة المذكورة هنا مطلوبة من المؤمنين من أمّته وبالتالي جاءت الآية تطلب طاعته (ص) في التكاليف أي الشعائر لهذا جاء قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾. وهذا يتعارض ظاهريّاً مع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ١٠٢)، إذ تأمر هذه الآية الذين آمنوا بأن يتّقوا الله حقّ تقاته، أي بغضّ النظر عن الوسع والاستطاعة. لكنّنا إذا انتبهنا إلى آخر الآية لوجدنا فيها قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي إنّ الخطاب في هذه الآية موجّه للمسلمين وهم

المؤمنون بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، على خلاف آية التغابن ١٦ التي نجد الخطاب فيها موجّهاً للمؤمنين بمحمّد (ص) .فالفرق إذاً بين تقوى الإيمان وتقوى الإسلام يكمن في أنّ المطلوب في تعاليم الإسلام أن تطبّق حق تطبيقها كاملة:

أ- فليس هناك إيمان بوجود الله ما استطعنا.

ب- وليس هناك إيمان نبذل فيه كلّ جهدنا بأن الساعة آتية.

ت- وليس هناك اجتناب لشهادة الزور وللغش في المواصفات على قدر الاستطاعة والوسع، كأن يأتينا من يقول إنه بذل جهده لئلّا يزني فلم يستطع، أو أنه حاول وسعه ألا يقتل فلم يقدر، فنقول له نحن أحسنت، لأن الله لا يكلّف نفساً إلا وسعها.

من هنا نفهم أننا في القانون الفطري الأخلاقي (أركان الإسلام) ، نتّقي الله حق تقاته، ولهذا ختم تعالى الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾. أما في أركان الإيمان المتمثلة في الشعائر فإننا نتّقي الله ما استطعنا لأنّ الله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾، فالمريض مثلاً معفى من الصوم لأنّه لا يستطيعه لكنه غير معفى من أن يكون متخلّقاً بالقيم، والحجّ مربوط أساساً بالاستطاعة ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ المالية لا الاستطاعة الأخلاقية، والزكاة تسقط عمّن لا مال له، لكن الأخلاق لا تسقط عمّن لا مال له، وهنا الفرق واضح بين القيم الإنسانية الفطرية وأركان الإيمان التي تُعدّ تكاليف غير فطرية، وهي تؤدّى حسب الاستطاعة والوسع. هذا ما يبيّن لنا أنّه لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين نصوص كتاب الله إن نحن فهمناها بمنهجية علمية لأنه حاشاه عزّ وجلّ أن يصدر عنه التناقض تبارك وتعالى.

بعد هذا كله نصل إلى أن الإسلام أعمّ من الإيمان، لأن الإسلام دين عالمي إنساني لكلّ أهل الأرض، ولهذا سُمّي الدين الإسلامي لا الدين الإيماني، ولهذا

أيضاً قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ...﴾ (آل عمران ١٩)، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران ٨٥). أما الإيمان فخاصّ بأتباع محمّد (ص)، ولهذا سمّاهم الله عزّ وجلّ في كتابه "المؤمنين"، ولهذا أيضاً سُمّي عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ولم يُسمَّ أمير المسلمين، وسُمّيت زوجات الرسول أمّهات المؤمنين لا أمّهات المسلمين. لهذا أخبر الله رسوله (ص) في التنزيل الحكيم بأنّ كلّ أهل الأرض لن يكونوا مؤمنين أي من أتباعه، ولا يجوز إكراههم على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩)، وهنا نلاحظ دقة كتاب الله عزّ وجلّ، إذ قال عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل له "حتى يكونوا مسلمين". وبما أنّ أتباع محمّد (ص) هم المؤمنون به وملزمون بطاعته كما جاء في كتاب الله، فمن حقهم أن يوضّح لهم في كتابه كيفيّة اتباع نبيّه (ص) الذي آمنوا به حتى يؤمنوا به ويتّبعوه على بيّنة، ومن أجل ذلك عرّف لهم عزّ وجل الفرق بين الرسالة والنبوّة وكيف يطاع (ص) والمجال الذي يطاع فيه بما في ذلك الشعائر.

٢- الفرق بين الرسالة والنبوّة

جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب ٤٠)، وهذه الآية تذكر ثلاثة مقامات لمحمّد (ص) هي:

أ- مقام محمّد الرجل

ب- مقام محمّد النبيّ (النبوّة)

ت- مقام محمّد الرسول (الرسالة)

أ- مقام محمّد الرجل

نفى الله عزّ وجلّ في كتابه وجود أيّ عصمة تكوينية للرسول، ما يجعلنا نستنتج أنه كان من الناحية التكوينية رجلاً ككل الرجال، وهو مقام خاصّ بحياته الشخصية كإنسان، لهذا عند قوله تعالى في آية الأحزاب ٤٠ المذكورة أعلاه، حين نفى أن يكون محمّد أبا أحد من رجالهم إنما كان يقصد ضمنياً أنه بما أنه ليس أبا أحد من رجالهم فهو بالضرورة رجل ككل الرجال بداهة بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ (الكهف ١١٠) و(فصلت ٦). فككل إنسان، كانت للرسول (ص) سلوكاته الطبيعية الإنسانية التي لا علاقة لها لا بالدين ولا بالوحي بل تدخل في إطار التكوين الطبيعي الخاص به كإنسان ومرتبطة بالأعراف والتقاليد المتعلقة بمجتمعه يومها.

ب- مقام محمّد النبيّ (النبوّة)

مدح الله عزّ وجلّ مقام النبوّة في كتابه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب ٥٦)، لأهمية هذا المقام التي تتمحور حول محورين اثنين هما:

- مهمّة النبوّة الموجودة في الغيبيّات داخل كتاب الله، وهذا المقام ضروري لبعثه رسولاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب ٤٥).
- مهمّة الاجتهاد في السلطة وممارستها والقيادة العسكرية وتنظيم أمور المجتمع.

١. مهمّة النبوّة:

هي مهمّة تبليغ النبوّة، وتحتمل صفتي الصدق أو الكذب، حيث بلّغ النبي

(ص) ضمنها الأنباء الغيبية (الكونية والتاريخية) التي أوحيت إليه دون التمكن من شرحها لأهل زمانه، وفي ذلك مهمّة عظيمة وشاقة، إذ كيف يمكن إقناعهم بشيء لا يمكنهم إدراكه كعلم الجينات الوارد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٤)، فهذا النبأ الغيبي جاء في سطر واحد دون أن يكون النبيّ قادراً على شرحه لمن معه، لكن بعد عصور من تبليغه صار معروفاً بعد أن تم تأويله بفضل تطوّر العلم الحديث، حيث احتاج الأمر إلى مجلدات ضخمة أُلِّفت تحت مسمّى "علم الجنين"، وهذا العلم لم يكن معروفاً في فترة نزول هذا النصّ إلا عند الله عزّ وجلّ دون النبيّ أو الصحابة. لكن الأسئلة التي يجب طرحها هنا تدور حول بعض الصفات الخارقة التي نُسبت له (ص) من مقام النبوّة ومدى صحّتها أو خطئها وهي: هل كان النبي (ص) يعلم الغيب؟ هل كانت له معجزات مادّية؟ وهل ثبتت له الشفاعة؟

أ- النبي (ص) لم يكن يعلم الغيب

الغيب لغة هو كلّ ما غاب عن حواسّ الإنسان، وعن معارفه وأرضيته العلمية. والغيب بمنظور الزمان ثلاثة أقسام: غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل. أمّا غيب الماضي فهو غيب ما كان من أبناء الأمم الغابرة والعصور السالفة، وخير مثال على هذا الغيب هو القصص القرآني بدلالة قوله تعالى:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف ٣)،
- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران ٤٤)،

أمّا غيب الحاضر فيكون غيباً رغم وجوده لقصور في الحواس أو في

المستوى العلمي، أو لوجود عوائق تمنع ذلك كقلة المعلومات عن الموضوع. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ...﴾ (التحريم ٣). ومثاله أيضاً ما كان سائداً من أنّ الأرض مسطحة ثابتة والشمس تدور حولها، ما جعل كروية الأرض غيباً في العصر النبويّ. وأمّا غيب المستقبل فهو غيب ما سيكون إلى يوم القيامة، بما في ذلك النشور والحشر والحساب. وهذا الغيب هو المقصود بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ (الجن ٢٥-٢٦-٢٧-٢٨). إننا نلاحظ في هذه الآيات من سورة الجن أمرين على غاية من الأهمية. الأول: أن الله باعتباره عالم الغيب يقرّر قاعدة عامّة أساسية هي أنّه لا يظهر على غيبه أحداً. الثاني: أنه يُستثنى من هذه القاعدة العامّة من يرتضي من رسول، ولم يقل "من يرتضي من نبيّ"، ونفهم بكلّ وضوح أنّ الآية توجّهنا إن أردنا معرفة ما هو الغيب إلى البحث عمّا هو موجود في كتاب الله حصراً. ومنه إذا ألقينا نظرة سريعة على نصوصه كتابه الحكيم وجدناها طافحة بأخبار غيب المستقبل، كقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ...﴾ (الروم ٢-٤). وفي المقابل ينفي أن يكون النبي (ص) يعلم غيب المستقبل وأحداثه إلى يوم القيامة في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام ٥٠)،
- ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ

لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ١٨٨)،

- ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (هود ٣١)،

- ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف ٩)،

هذه الآيات تنفي صفة العلم بالغيب عن النبيّ كليّة، وتبيّن أنّه كان يتبع الوحي فقط وأنّ الغيبيّات التي جاء بها هي فقط المذكورة في كتاب الله. فالله عزّ وجلّ لم يطلع أحداً على غيبه إلّا من ارتضى من الرسل وقد تجسّد الغيب الذي اطلعوا عليه في المعجزات المادّية التي جاؤوا بها وشهدها أهل زمانهم فقط لزوالها بزوالهم مباشرة. أمّا الغيب الذي جاء به الرسول فهو غيب مجرّد ذكر وحياً على صيغة أنباء غيبيّة نطق بها الرسول دون أن يطّلع على ما فيها من إعجاز. وبهذا يكون القرآن هو المعجزة الوحيدة والكافية التي جاء بها الرسول والتي ميّزته لأن إعجاز القرآن يتجلى مع الزمن بتقدّم العلوم والمعارف على عكس معجزات بقيّة الأنبياء والرسل التي اندثرت وغابت مع مرور الزمن، ولم يكن الرسول ليعلم بها لاندثارها لولا أن أعلمه الله إيّاها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود ٤٩)، فقد أعلمه الله إيّاها بإنزالها عليه وحياً منطوقاً موجوداً بين دفتي المصحف.

لقد أدّى النبي (ص) مهمّته على أكمل وجه، حيث بلّغ كلّ الغيبيّات التي أوحيت إليه والموجودة حصراً في كتاب الله، إذ لم يكن أكثر من مبلغ عن الغيب دون أن يكون عالماً به إطلاقاً أي دون شرحه. أمّا مهمّة التفكّر والتدبّر في معانيه فقد أوكلت إلى الناس لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمّد ٢٤)، واكتفاؤه (ص) ببيانه وعدم شرحه إثبات لنبوته التي تخاطب الناس إلى قيام الساعة.

إنّ الأنباء الغيبيّة التي أوحاها الله إلى محمّد (ص) جعلت منه نبيّاً، لذا سُمّي نبيّاً نسبة للأنباء الغيبيّة، وهذه النبوّة تستقرّ على مرّ العصور والدهور، فتطوّر المعرفة الإنسانية له علاقة بالنبوّة حيث قال تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام ٦٧). فمثلاً في عام ٢٠١١ استقرّ نبأ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن ١٧)، عندما اكتشفوا شمسين مشتركتين لمجموعة من الكواكب، وهذا جرّاء النشاط الإنساني، ومن هنا تظهر علاقة معرفتنا بالنبوّة، أي إنّ نشاطنا المعرفيّ مرتبط بالنبوّة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب ٥٦)، لأنّ الصلاة على النبي هنا أتت بمعنى الصلة والعلاقة لا الصلوة (الشعيرة).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤكّد لنا أنّ النبي (ص) لم يفسّر ما جاء من غيبيّات في كتاب الله، وإلّا فما معنى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ...﴾، فالنبوّة غيبيّات، كونيّة كانت أو تاريخيّة، فكيف له أن يفسّرها إذاً؟ ولمن هذا التفسير؟ لمعاصريه أم لمن يولد بعد ألف سنة أو ألفي سنة؟ وهنا نريد أن نوضح أنّ النصّ ثابت والسامع أو القارئ متغيّر، ونفهم بالتالي قول النبي (ص): "بلّغوا عنّي ولو آية، فربّ سامع أوعى من مبلّغ"، فالسامع في القرن الحادي والعشرين أوعى بكثير ممّن بلغه القرآن في عهد النبوّة.

ب- لم تكن للنبيّ (ص) معجزات مادّية

لا يختلف اثنان في أن المعجزات دلائل النبوات، ولا يختلف اثنان في أن المعجزة أمر يأتيه النبي في زمان معيّن لقومه، وأنها وإن كانت سابقة لمستوى وعيهم فإنّ لها علاقة بثقافة زمانهم وبواقعهم المعيش وبما برعوا فيه وأتقنوه

في حياتهم اليومية. فقوم نوح مثلاً كانوا أهل بحر ويابسة، وبناء الفلك عندهم يثير السخرية أكثر ممّا يثير الدهشة والعجب، لكنهم كانوا بالتأكيد يعرفون الحواجز المائيّة من بحار وأنهار عظيمة ويعرفون استحالة تجاوزها. وقوم يوسف لم يكن تفسير الأحلام غريباً عنهم. وقوم موسى أهل سحر وألاعيب يعرفون كيف تتحوّل الحبال في أعين الناظرين إلى أفاعٍ، لكنهم يعرفون يقيناً أنّها في الحقيقة الموضوعية ليست سوى حبال. وقوم عيسى بارعون في علاج الأمراض وتخفيف العاهات وتحضير الأدوية، لكنهم يعرفون استحالة إحياء الموتى وإعادة البصر إلى مَن وُلد أعمى. وقوم صالح أهل نحت وتماثيل لا يعجزهم أن ينحتوا من الصخر ناقة، لكنهم يعلمون أنّ بعث الحياة فيها أمر آخر أكبر من قدراتهم.

إنّ المتأمل في قصص الأنبياء كما جاءت في كتاب الله يلاحظ أمرين اثنين: الأول أنّ معجزات جميع الأنبياء الذين سبقوا النبي (ص) كانت مادّية مشخصة، وأنّ من الأنبياء من أوتي معجزة واحدة، كنوح ويوسف وصالح، ومنهم من أوتي معجزتين كعيسى ابن مريم[1]، ومنهم من أوتي عدداً من المعجزات بلغت تسع معجزات كموسى. ولم نقرأ أو نسمع أحداً من السلف والخلف عاب على نوح أو صالح أو يوسف أنّ له معجزة واحدة، كما لم نسمع أحداً رفع من مقام موسى على مقامات غيره من الرسل لأنّه أوتي تسع معجزات. ونحن وإن كنّا ندرك أنّ النبيّ (ص) كان على خلق عظيم على ضوء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ٤)، لكن كتاب الله لم يذكر أبداً أنّه (ص) جاء بمعجزات مادية بدليل أنه لم يغفل عن ذكر الموقف الذي ضاق فيه (ص) صدراً من سؤال معاصريه عن الإتيان لهم بمعجزة مادّية وعجزه عن ذلك، فجاءه الوحي مثبّتاً له في قوله تعالى:

١ – نشير هنا إلى إحياء الموتى وإلى إبراء الأكمه والأبرص وذوي العاهات. وقد يسأل سائل: أليست ولادته دون أب معجزةً بحدّ ذاتها؟ نقول: نعم، لكنّها معجزة إلهية لا دخل للمسيح بها، فنحن نتحدّث هنا عن المعجزات النبويّة.

- ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأنعام ٣٥)،

- ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (يونس ٩٤-٩٥)،

- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود ١٢)،

فالله عزّ وجلّ لم يثبت في كتابه حدوث أيّ معجزة مادّية مشخّصة (مرئيّة) للنبيّ (ص) في حياته، وهذا ما جعل معاصريه - خصوصاً من أهل الكتاب - يستغربون من ذلك كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ٢٠٣)،

- ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (يونس ٢٠)،

- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت ٥٠-٥١)،

- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (طه ١٣٣)،

- ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء ٥).

هذه الآيات تبيّن أن النبي (ص) لم يأت بمعجزات مادّية حسب قناعتنا

لأن الله عزّ وجلّ في كتابه نفى تماماً أن يكون (ص) قد جاء بأيّ معجزة مادّية مرئيّة، ويُعدّ كتابه الحكيم المرجع الأصلي لنا.

٢. مهمّة الاجتهاد في السلطة

أمّا الأمر بالنسبة للإمساك بزمام الحكم والسلطة، فقد أتيحت له (ص) وما يتعلق بها من مهامّ كتسيير أمور المجتمع والقضاء وكقائد عسكري مع منحه حرّية الاجتهاد في هذه المهامّ من مقام النبوّة، وهو لم يكن بدعاً من الرسل بل كلّ ملوك بني إسرائيل قبله كانوا أنبياء، وحكموا أقوامهم من مقام النبوّة ولم يكن واحد منهم رسولاً عدا موسى الذي وجّه الله إليه وإلى أخيه هارون خطاباً فيه تكليف بمهمّة سياسيّة لهما أمرهما فيها بالتوجّه إلى فرعون والتفاوض معه بدبلوماسية لقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا...﴾، لرفع طغيانه عن بني إسرائيل، ولم تكن لهذه المهمّة أيّ علاقة بالرسالة أي لم يكن لها أيّ علاقة بالتشريع لأنّ الرسالة تشريع، بل كانت مهمّتهما تتمثل في مطالبة فرعون برفع الظلم عن بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ (طه ٤٧). فالرسول (ص) أوتي فضلاً لم يؤتَ لغيره من الرسل هو الحكم من مقام النبوّة وتبليغ الرسالة من مقام الرسالة كما سنرى.

واجتهاداته (ص) في الحكم من تنظيم لأمور المجتمع والقضاء وقيادة الجيش، لا يمكن أن تحمل الطابع الأبدي لأنها اجتهاداته كقائد وحاكم أي كوليّ أمر ولا علاقة لها بالرسالة الإلهيّة، فهو كان يجتهد تحت هدي الرسالة لأن الرسالة إلهية عالمية وأبدية والاجتهاد فيها يبقى إنسانياً مرحلياً وظرفياً مهما كانت الجهة التي يصدر منها هذا الاجتهاد حتى لو كان للنبيّ (ص) نفسه بدليل التعليمات التي جاءته من عند الله بعد وقوعه في الخطأ في الاجتهاد في بعض القضايا. وطاعته في كلّ اجتهاداته بما فيها ما تعلق بالاجتهاد في الأوامر

والنواهي كانت واجبة لمعاصريه فقط باعتباره وليّ أمرهم في كلّ القرارات التي اتّخذها من باب الاجتهاد لتنظيم مجتمعه ولا تلزم طاعته فيها لمن جاء بعد عصره من العصور (كما سنشرح لاحقاً).

فمثلاً في مجال القضاء كان النبيّ (ص) قاضياً من مقام النبوّة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء ٦٥)، ولا يمكن أن يؤخذ قضاؤه على أنّه تشريع أبديّ، ففي ذلك بهتان عليه كبير لأنه حين كان يجتهد في القضاء كان يبني أحكامه القضائية بالتحليل والنظر في ما بين يديه من بيّنات وأدلة وشواهد تساعده في إصدار أحكامه لإحقاق الحق بين المتخاصمين كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري في كتاب الشهادات تحت رقم (٢٥٣٤) عن أمّ سلمة أنّ رسول الله (ص) قال: "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ألحن بحجّته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها"، والحديث متفق عليه بين المحدثين وفيه تصريح لا يقبل الشك ببشريّة النبيّ في الاجتهاد وبأنّ قضاءه ليس بوحي بل اجتهاد مبنيّ على دلائل ومؤشرات قد تكون مقنعة ولكنها قد لا تكون صحيحة أيضاً، فهو لا يعلم الغيب في اجتهاده بصحّتها أو بطلانها بل يحكم بناءً على المؤشرات، ولهذا حذّر معاصريه من تقديم حجج غير صحيحة له ولكنها مقنعة لأنه يترتب عليها حكماً قد يسبّب ضرراً لأحد الطرفين المتخاصمين، ولا يمكن أن يكون هناك دليل أقوى من هذا الحديث على أن قضاءه (ص) ليس وحياً، وبالتالي ليس أكثر من اجتهادات نبويّة ظرفيّة، واعتبارها أبديّة هو بهتان على الله ورسوله. ولنفهم كيف يكون البهتان على الله ونبيّه نحتاج لأن نفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب ٥٦-٥٧)، وإن كنّا

نلاحظ أمراً يدعو إلى الحيرة في الوهلة الأولى في الآيتين إذ كيف يمدح الله عزّ وجلّ مقام النبوّة، وهذا يبيّن عظم هذا المقام بحيث يطلب منّا نحن كذلك الصلاة عليه (من الصلة) كما يصلي عليه سبحانه هو وملائكته صلاة صلة، لكن في الآية الثانية يذكر الذين يؤذون الله ورسوله بسوء، وهنا نتساءل باستغراب: وهل يؤذى الله ورسوله؟ وكيف يمكن ذلك؟ بالنظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا...﴾ (الإسراء ٧)، نتأكد أنّ الله لا يساء إليه ولا يُحسَن إليه، فهل تحصل الأذيّة لله ورسوله كما جاء في الآية ٥٧ من سورة الأحزاب؟

الجواب: نعم، وقد شرحت الآية كيفية هذا الإيذاء الذي يتجسّد في نسبة أقوال إلى الله ورسوله دون أن تكون صادرة عنهما، فنحن نعلم بأنّ الغيبة هي أن نقول ما هو موجود عن شخص ما، أمّا أن نقول ما هو غير موجود فذلك هو البهتان. وعليه فإن إيذاء الله ورسوله يتمثل في البهتان عليهما، وذلك بأن نأخذ ما يسمّى الأحاديث القدسيّة وننسبها إلى الله عزّ وجلّ، مدّعين أنه أوحاها إلى نبيّه (ص)، أو نضيف إلى المحرّمات في كتاب الله محرّمات لم يضعها في كتابه، كتحريم الموسيقى والرسم والنحت والغناء، فهذا إيذاء لله بالبهتان عليه، والبهتان على الرسول (ص) يتم بقولنا إن الله أوحاها له. انطلاقاً ممّا سبق نفهم أنّ مقام النبوّة له هذه الخواصّ:

١- مقام ضروري لبعثه رسولاً لأنّ كلّ رسول يجب أن يكون نبيّاً قبل أن يكون رسولاً والعكس غير صحيح: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا...﴾ (الأحزاب ٤٥).

٢- مقام ضروري لقيادة الدولة والسلطة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء ١٠٥)،

٣- مقام ضروري لقيادة المجتمع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التحريم ١)،

٤- مقام ضروري للقيادة العسكرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ (الأنفال ٦٥)،

٥- ممارسة القضاء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء ٦٥).

كل هذه الأمور تمّت في حياته وانتهت بوفاته، لأنّ الاجتهادات والقرارات التي صدرت منه في فترة حياته في هذه الأمور ليست وحياً ولا ديناً ولا يمكن اعتبارها كذلك بل هي قرارات وليّ أمر وحاكم وقائد أعلى للبلاد اتّخذها لتنظيم أمور مجتمعه. ومنْ الخطأ اعتبارها وحياً لأن طاعته (ص) لم تأتِ واجبة لمقام النبوة لأنّه مقام اجتهادات وقرارات إنسانية فقط، لذا جاءت الطاعة واجبة لمقام الرسالة لأن الرسالة جاءته من عند الله عزّ وجل بينما جاء اجتهاده (ص) من مقام النبوّة بالاعتماد على ما جاء في الرسالة الإلهية الموحاة إليه. فجاءت طاعته (ص) في الاجتهادات التي صدرت عنه في حياته كوليّ أمر و حاكم أعلى لازمة لأفراد مجتمعه فقط، لأنّ ما سنّه من قرارات يُعدّ القانون المدني الذي وضعه (ص) لتنظيم مجتمعه وبالتالي فإنّ طاعته فيها (ص) واجبة على أفراد مجتمعه في حياته (ص) فقط، ولا تتعدّى لغيرهم كما سنشرح لاحقاً.

ت- مقام محمّد الرسول (الرسالة)

تمثّلت وظيفة الرسول (ص) في النطق بالذكر لتبيانه للناس أي بإعلامه لمن حوله وعدم كتمانه عنهم، لأنّ البيان هو الإعلان فقط وهو بمثابة البلاغ وليس الشرح وذلك في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة ١٥٩)،

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة ١٥)،

فالآيتان توضحان أنّ البيان هو الإعلان وهو نقيض الكتمان والإخفاء، ونفهم بذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ...﴾ (آل عمران ١٨٧) أي إنّ البيان لا يعني الشرح. علماً بأنّ الأمر الإلهي ببيان الوحي والنهي عن إخفائه وكتمانه أمر طال جميع الرسل الذين أوتوا الكتاب، من نوح إلى محمّد صلوات الله عليهم أجمعين، وهي الوظيفة التي أدّاها الرسول على أكمل وجه استجابة لأمر ربّه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ (المائدة ٦٧)، أي إن العلنية هي أداة البلاغ. ولأنّ أداء البلاغ بكل أمانة يستدعي العصمة فقد كان (ص) معصوماً في تبليغ الوحي الذي أنزل إليه من ربّه من أوّل سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، لكنّه (ص) لم يكن معصوماً عصمة تكوينية أي لم يكن معصوماً في كلّ شيء. وحتى نفهم هذه النقطة نحتاج هنا إلى وقفة نشرح فيها معنى العصمة حتى نزيل الغموض حولها. ونبدأ بشرح معنى "العصمة التكوينية" لغة، بالبدء بشرح كلمة "العصمة" التي تدلّ لغة على الحفظ والحماية والمنع، ومفردة قرآنيّة وردت ثلاث عشرة مرة في التنزيل الحكيم نكتفي بذكر أربعة منها:

- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة ٦٧)،
- ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...﴾ (هود ٤٣)،
- ﴿... وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران ١٠١)،

– ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ...﴾ (يوسف ٣٢).

أمّا معنى "التكوينية" فجاء لغة من أصل "التكوين" و"الكون" أي الخلق والإيجاد. وعليه فوجود شيء في الإنسان مع ولادته معناه وجوده تكويناً فيه بمعنى أن يولد الأشقر أشقرَ والأسود أسودَ خلقة، فهل الأنبياء والرسل وُلدوا معصومين تكويناً أي خلقة؟

إنّ القول بوجوب العصمة التكوينية للأنبياء والرسل ينكره التنزيل الحكيم، الذي يروي لنا أخباراً ومواقف تتعارض مع هذه العصمة المزعومة لهم:

– في أنباء آدم وزوجه يقول تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة ٣٥–٣٧). فبعيداً عن التفاصيل الخرافية التي نجدها في كلّ الثقافات عن قصّة آدم وحوّاء والحيّة والشجرة الملعونة...، توضح الآيات بكلّ جلاء أنّ آدم وزوجه كانا من ضحايا الشيطان ولم يكونا من المعصومين.

– ففي أنباء نوح نقرأ قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (هود ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون٢٧)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود ٤٦–٤٧). والمتأمّل في الآيات لا

يحتاج إلى جهد كبير ليفهم أن نوحاً عصى أمر ربّه مرّتين ثمّ أدرك أنه كان ضحيّة هاجس شيطاني فاستعاذ بالله، وأنه أتى بما يستوجب التوبة فاستغفر وأناب، وهذا كله ينفي عنه أيّ عصمة مزعومة.

– في أنباء يونس يقول تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء ٨٧–٨٨). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الصافات ١٣٩–١٤٤). فنحن في هذه الآيات أمام رسول غاضب قاده شيطان الغضب إلى الشك في قدرة الله عليه، فأوكله إلى حوت ابتلعه، ثم تاب وسبّح وأقرّ بظلمه ودعا ربّه في ظلمات مادّية هي ظلمات بطن الحوت وظلمات أعماق البحر، وظلمات معنويّة يشعر بها المذنب التائب، ولو كان معصوماً لما أذنب وما تاب.

– في أنباء موسى يقول تعالى: ﴿... فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (القصص ١٥–١٦). ونفهم من هاتين الآيتين أنّ موسى يعترف بقتله رجلاً بدافع العصبية المقيتة، وأنّه كان في ذلك ضحيّة الشيطان الرجيم، ثمّ يطلب المغفرة من ربّه، وهذا – مرّة أخرى – ينفي القول بالعصمة التكوينية.

– في أنباء داود يقول تعالى بعد أن يروي قصة أخوين احتكما إليه في النعاج: ﴿... وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (ص ٢٤–٢٦). والسؤال الذي يمكن طرحه هنا: هل يحتاج داود إلى هذا

التصحيح والتأنيب والوعظ من ربّه لو أنه كان معصوماً؟

العجيب أنّ هناك من يقول: تلك قصص مرتّبة مقصودة، الهدف منها تعليم الناس. ونحن نقول: إنّ هذا غير ممكن، لأنّ الله عزّ وجلّ أعظم من أن يضع "سيناريوهات" سخيفة من هذا النوع، وهو الذي يقول في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل ٩٠)، لا يمكن أن يأمر أنبياءه ورسله بالقتل تارة ليعلّم الناس أنّ القتل ممنوع، وبالمعصية تارة ليعلم الناس أنّ المعصية مرفوضة، وبالتحيّز في الأحكام ليعلّم الناس أنّ العدل مطلوب.

وبناءً على ذلك، فإن العصمة التكوينية صفة مخصوصة تجعل المعصوم مخلوقاً غير عادي، والله تعالى يقول بخصوص النبي (ص): ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...﴾ (الكهف ١١٠)، بما معناه أنه خُلق كأيّ بشر آخر أي إنّ تكوينه بشري عادي وبالتالي فهو غير معصوم في كلّ شيء وإنما كان معصوماً في تبليغ الوحي الذي جاء به فقط. وقد رأينا أنّ النبيّ (ص) كانت له ثلاثة مقامات: فأمّا مقام الرجل فهو مقام الإنسان العادي الممارس للحياة البشرية بشكل عادي ولم يكن معصوماً في هذا المقام لأنه مقام لا يحتاج للعصمة. وكذلك الأمر بالنسبة لمقام النبوة الذي كان فيه قائداً أعلى وقاضياً لمجتمعه فلم يكن معصوماً في اجتهاداته، وقد جاءته تعليمات بتصحيح اجتهاداته ثبتت في كتاب الله، ما ينفي عنه تماماً العصمة في مقام النبوّة لأنّ من غير الممكن أن يكون معصوماً في هذا المقام لأنه مقام اجتهاد وإعمال للرأي وفق ما يتناسب مع ظروف المجتمع. بينما كان معصوماً في مقام الرسالة فقط بحيث قام (ص) بمهمّة بلاغ كتاب الله كله للناس من هذا المقام بالصيغة اللغوية المنطوقة والتعبّدية التي حفظها الله بكلّ أمانة، إذ بلّغ ما أوحي إليه كما أنزل إليه دون نقص أو زيادة. وإذا كان الرسل غير معصومين بمن فيهم خاتم الأنبياء والمرسلين إلّا في مجال بلاغ الوحي، فإنّ غيرهم من البشر أيضاً من

المستحيل أن يكونوا معصومين عن الخطأ بما في ذلك ذرّية الأنبياء والرسل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ٢٦)، فالآية توضح لنا بشكل جليّ لا يدعو مجالاً للشك أنّ هناك من ذرّية الأنبياء والرسل من يسلك طريق الهداية، ومنهم من يسلك طريق الفسق، وهذا ينفي صفة العصمة عنهم مهما كانت اتّجاهاتهم الدينية والفكرية، لأن الهداية والفسق مرتبطان بمدى الالتزام بالصراط المستقيم أي بمدى التمسّك بالقيم الإنسانية ومدى الابتعاد عنها ولا علاقة لهما بأمر آخر لأنه ليس هناك أيّ عصمة تكوينية لأيّ أحد كان من البشر مهما كان، وليست هناك عصمة في إبلاغ الوحي إلا للرسل. وعلينا أن نستوعب ذلك جدّياً حتى لا نغترّ بأيّ خطاب يأتينا من أيّ مصدر ينسب لنفسه العصمة تحت أيّ غطاء كان، لأنّ العصمة المطلقة صفة لا وجود لها ولم تتحقق حتى للرسل، ما يجعل كلّ ما هو خارج الوحي قابلاً للنقاش والأخذ والردّ مهما كان مصدره. وما دام مقام الرسالة هو المقام الوحيد للعصمة، فلا بدّ للرسول الذي يحمل الوحي من أن يبلغه للناس ضمن شرطين أساسين لا حياد عنهما:

١- ألّا يزيد على ما جاءه حرفاً، ولا ينقص منه حرفاً، ولا يقدّم حرفاً في النص الموحى إليه ولا يؤخّر، ولا يضيف إليه ما ليس فيه، تحت طائلة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة ٤٤-٤٧)، أي إنّه معصوم كرسول في البلاغ عن ربّه عصمة مكتسبة لا تكوينية.

٢- مهمّته كرسول تنتهي بإبلاغ رسالته إلى الناس طبقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الأحقاف ٩)، وأنه لا سلطان له على الناس يرغمهم به على الإيمان والعبادة والعمل الصالح بدليل قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي

الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩)، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية ٢١-٢٢).

هذا ما قام به الرسول (ص) دون زيادة أو نقصان، فأدّى الأمانة وبلغ الوحي كما جاءه ووصل أداؤه لمهمّته إلى رضى الله بذلك لأنه أكمل المهمّة التي أوكلت إليه حتى قال عزّ وجلّ: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ (المائدة ٣). وإن كانت مهمّة تبليغ الأنباء تحتمل الصدق أو الكذب، فإنّ مهمّة تبليغ الرسالة تحتمل صفتي الطاعة أو المعصية. والسامع الذي يتلقّى البلاغ الموجه إليه بالخيار إن شاء أخذ به وإن شاء تركه، دون أن يلزم ذلك الرسول في شيء. وعليه يجدر بنا أن نفهم الفرق بين السنّة الرسوليّة والسنّة النبويّة حتى نستطيع أن نستوعب الطريقة الصحيحة التي نطيع بها الرسول (ص) كمؤمنين ويكون لنا قدوة فيها.

٣- السنّة الرسوليّة والسنّة النبويّة

جاءت السنّة من فعل "سنّ" وتعني في اللغة: اليسر والجريان بسهولة كقولنا ماء مسنون أي يجري بسهولة، وجاءت كذلك بمعنى الطريقة والمثال. وبالنظر إلى هذين التعريفين اللغويّين يتّضح لنا جليّاً معنى السنّة، إذ تعني أنه بعد أن يتم وضع طريقة أو مثال ما في نمط عيش معيّن يُتفق عليه، حيث يجري هذا المثال أو هذه الطريقة في المجتمع ويصبح متداولاً فيه بكل يسر وسهولة، مثال أيّ قانون يُسنّ فيصبح بعدها متعارفاً عليه وممارساً في المجتمع. ولأنّ مآل السنن التغيّر والتبدّل فالله في كتابه عزّ وجلّ لم يصرّح أبداً بتثبيت أيّ سنّة من السنن، بل على العكس من ذلك تماماً في كلّ مرة يبيّن لنا أنّها ليست مستمرّة بل مآلها دائماً الزوال والتبدّل بدليل تعدّد السنن وتعاقبها بعضها وراء بعض كما في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال ٣٨)،
- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر ١٣)،
- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (الكهف ٥٥)،
- ﴿... سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (الأحزاب ٣٨)،
- ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران ١٣٧)،
- ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ (النساء ٢٦).

هذه الآيات تصرّح بأنّ سنن الأوّلين قد خلت ومضت، وهذا ينفي عنها صفة الأبديّة، لأنّ أهم صفة للسنّة هي (التسنّه) كما في قوله تعالى: ﴿... فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ...﴾ (البقرة ٢٥٩)، فالطعام يتسنّه بأن يصيبه التغيّر، والسنن تتغيّر حسب ظروف المجتمعات ومتطلباتها وتطوّر مستويات وعيها. وبالتالي فإنّ السنن التي تُسنّ في مرحلة تاريخيّة معيّنة يجب أن يطرأ عليها التغيّر والزوال مع مرور الوقت، كما هو شأن الطعام مع مرور الوقت يصبح غير صالح للأكل. كذلك كان الأمر بالنسبة للسنن الماضية التي صارت غير صالحة بداية من عصور ما قبل البعثة المحمّدية ثمّ عصر المجتمع النبوي ومن جاء بعده من العصور وصولاً إلى عصرنا الحالي. فكلّ تلك السنن قد زالت بزوال عصورها ولم تعد صالحة، أمّا سنّتنا الحالية فهي جارية لنا وصالحة لزماننا فقط وبعد زوال عصرنا تصبح هي الأخرى غير صالحة لمن سيأتي بعدنا وهكذا دواليك... فقد حرص الله عزّ وجلّ في كتابه على بيان تغيّر السنن الإنسانية وزوالها لاتّصافها بصفة النسبيّة وخضوعها لظروف مجتمعاتها، وفي المقابل حرص على أن يبيّن لنا أنّ السنّة الوحيدة الأزليّة والأبديّة هي سنّته عز

وجل، وهي التي تدور كلّ السنن الإنسانيّة في فلكها، لذا ورد ذكر سنن الأوّلين بالجمع والتغيّر بينما ورد ذكر سنة الله بالإفراد والأبدية كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء ٧٧)،
- ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب ٦٢)،
- ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح ٢٣).

كما جاء نفي صفتي التبدل والتحول عن سنته تعالى بالجمع بينهما في قوله: ﴿... فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر ٤٣)، ذلك أنّ هاتين الصفتين أي التبدّل والتحوّل تتصف بهما السنن الإنسانية بتحوّل السنة الواحدة منها من صالحة إلى غير صالحة بعد مرور الزمان عليها، فتُستبدل بسنّة أخرى مناسبة لظروف كلّ مجتمع، وهكذا تتعاقب السنن الإنسانية الواحدة تلو الأخرى. وهذا هو الشأن بالنسبة لكلّ التشريعات التي اختارها أيّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية والتي كان يأمل من خلال وضعها إيجاد حلول عملية تساعد على تسيير أمور حياة أفراده بغضّ النظر عن كونها متوافقة مع القيم الإنسانية أو مخالفة لها، فنتج عن ذلك أن أتت بعض السنن الإنسانية مخالفة للقيم الإنسانية من الشرك بالله، ارتكاب الفواحش وعدم الكيل في الميزان... إلخ. فأرسل الله عزّ وجلّ إليهم الرسل والأنبياء لإرشادهم إلى سنة الله المبنيّة على القيم العليا الصحيحة للدفع بهم إلى طريق الرقيّ الأخلاقي والعلمي. ونظراً لأن مستويات الوعي للمجتمعات السابقة كان يطغى عليها التجسيد جاءت رسائل رسلهم ظرفيّة مناسبة لمستوياتهم ما عدا الرسالة المحمّدية التي جاءت مجرّدة وأبدية لكونها الرسالة الخاتمة. بناءً على ذلك فإن رسالة الله الموجودة في كتابه عزّ وجل

هي السنة الوحيدة المجرّدة والأبديّة، وهي ثابتة في ذاتها ولكنها متغيرة في تطبيقاتها، ما يجعل من التغيّر والتحوّل المقصد الجوهري لها في تطبيقاتها المختلفة باختلاف المجتمعات لأن سنة التغيّر والتبدّل هي سنّة الله في الكون ورسالته هي السنّة الوحيدة الخالدة إلى يوم الدين.

ما دامت الرسالة المحمّدية هي الصيغة النهائية للسنّة الإلهية الأبدية، فقد عُبّر عنها في كتاب الله بأسلوب مجرّد نظري على اعتبار أنّ الرسول خاتم المرسلين وأنّ عصره (ص) كان بمثابة بداية لمرحلة ما بعد الرسالات في تاريخ المسيرة الإنسانية، فجاءت بهذه الصيغة حتى يتمكن الناس من وضع سننهم الاجتهادية التطبيقية النسبية على ضوء سنّة الله الخالدة، ذلك أن سنّة الله مطلقة لأن الله ليس مجتهداً بل هو عالم ذو علم مطلق أبدي بينما الناس متعلمون ومجتهدون بعلم نسبي ظرفي متوافق مع طبيعتهم الإنسانية. وما قام به النبي (ص) في القرن السابع في شبه جزيرة العرب إنما هو الاحتمال الأول لتفاعل هذه الرسالة المجرّدة مع عالم الواقع، لكن هذا التفاعل لا يُعدّ الوحيد ولا الأخير بل هو عبارة عن بداية لتفاعلات تماشت مع متطلبات مجتمعاتها ولا تحمل صفة الأبدية.

بهذا تكون السنة الإلهية الأبدية التي لا تتصف بالتبدّل والتغيّر هي الرسالة الإلهية الأبدية والخاتمة ممثلة في ما جاء في كتاب الله وهي التي تسمّى **السنّة الرسولية**. أما الاجتهادات التي اجتهدها (ص) من مقام النبوة كقائد أعلى للمجتمع وكقاضٍ له كما رأينا سابقاً، فتسمّى **السنّة النبوية**، وهي ليست وحياً من عند الله ولكنّها نابعة من اجتهاداته (ص) وهي مرتبطة بظروف مجتمعه ومستوى معيشة أفراده ومستوى وعيهم، ما يجعل منها اجتهادات ظرفية وغير صالحة لكل زمان ومكان بل طاعته فيها كانت لازمة لمن عاصره من أفراد مجتمعه فقط، على عكس السنة الرسولية التي تكون طاعته فيها لازمة لكل العصور بعده من أتباعه (ص).

٤- الطاعة اللازمة لمقام الرسالة

المعنى اللغوي للطاعة هو الخضوع في لين والانقياد في مرونة، ومنه المطاوعة. والطاعة تعني الاتباع عن طريق الاختيار الحرّ ولا تكون قهراً ولا جبراً أبداً، بل هي موقف يختاره الإنسان لنفسه لأن المعنى المضادّ للطاعة هو الإكراه بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت ١١). وقد حرص التنزيل الحكيم على الحثّ على طاعة الرسول من مقام الرسالة في كلّ ما جاء في الرسالة الإلهية الموحاة إليه كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة ٢٨٥)،
- ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء ٨٠)،
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ...﴾ (النساء ٦٤).

بحيث جعل هنا عزّ وجل طاعته جزءاً متمّماً للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله كما رأينا في آية البقرة ٢٨٥ وتتبع التصديق بالنبوّة التي جاء بها رسله. وبناءً على ذلك فإنّ الطاعة لا تكون إلّا من مقام الرسالة، ووردت في أكثر من موضع من التنزيل الحكيم بقوله: "أطيعوا الرسول"، بينما لا نجد فيه مطلقاً عبارة "أطيعوا النبي"، وسبب ذلك أن طبيعة الرسالة تقتضي الطاعة لكونها جاءت إلهية مطلقة بدلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ...﴾ (النساء ٦٤)، بينما النبوّة تقتضي التصديق لكونها أنباءً، ومن يصدق بنبوّته (ص) فسينقاد طائعاً لرسالته. وقد جاءت الطاعة للرسول على نوعين اثنين:

أ- الطاعة المنفصلة

هي طاعة الرسول التي جاءت منفصلة عن طاعة الله في قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ (النساء ٥٩)،
﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة ٩٢)،
﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (التغابن ١٢)،

فقد جاءت منفصلة عن طاعة الله ومتصلة بالمقابل بطاعة أولي الأمر لأنّ اجتهادات أولي الأمر تخضع للتغيير ولا تكون طاعة هؤلاء إلا في حياتهم فقط، وهذه الطاعة إنما كانت للرسول في حياته فقط من قبل أتباعه في ما جاءه من مقام النبوّة في التعليمات الخاصّة به كقائد أعلى للمجتمع وهي ما نسمّيه القصص المحمّدي، وطاعته أيضاً طاعة منفصلة في اجتهاداته التي صدرت عنه من مقام النبوة وهي التي تسمّى السنة النبوية، لأنه (ص) كان معصوماً في مقام الرسالة ومجتهداً في مقام النبوّة، وقد وضّح لنا عزّ أن الطاعة المنفصلة تدور في محورين هما:

١- **القصص المحمّدي**: أي في ما جاءه (ص) من آيات القصص المحمّدي الواردة في كتاب الله، وهي نصوص لا علاقة لها بأحكام الرسالة، بل خاضعة لظروف تلك المرحلة التاريخية وتناقش قضايا ومشاكل الدولة المحمّدية الفتيّة آنذاك وقضايا الحرب فيها. وهي من القصص القرآني تؤخذ منها العبر فقط، وليس لها أيّ علاقة بالرسالة. لهذا جاءت طاعته فيها منفصلة لأنها كانت واجبة على أفراد مجتمعه فقط، وقد جاءه بعضها بعبارة "يا أيها الذين آمنوا" وهي موجهة للجيل المعاصر للنبي (ص) من أتباعه. فسورة التوبة مثلاً جاءت بدون بسملة لأنّها سورة قتال بالدرجة الأولى، وبالتالي ليست من الرسالة بل

من القصص المحمّدي.

٢- السنّة النبويّة: أي في ما صدر عنه من الاجتهادات التي اجتهدها (ص) في عصره ولزمت طاعته فيها ممّن كان معه من أتباعه من أفراد مجتمعه فقط دون أن تتعدّاهم هذه الطاعة إلى غيرهم من الأجيال. فقد اجتهد (ص) من مقام النبوّة لأفراد مجتمعه كوليّ أمر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾ (النساء ٨٣). هذه الآية تبيّن أن الاستنباط هو من مهمّة النبيّ وأولي الأمر، ومعناه استخراج الاجتهادات من المسائل المتعلقة بتسيير المجتمع وفق ما يتناسب مع ظروفه، فالاستنباط إذاً هو الاجتهاد، وقد رُبطت فيه طاعة الرسول (ص) بطاعة أولي الأمر ليبيّن أنّ طاعته المنفصلة تكون في ما ورد عنه من اجتهادات لتنظيم مجتمعه. علماً بأن الرسول (ص) لم يجتهد إطلاقاً في التحريم لأنّ المحرّمات الـ١٤ عينية وأبدية ومحصورة في كتاب الله كما رأينا، بل اجتهد في الأوامر والنواهي وفي تقييد الحلال الذي لا يُمارس إلا مقيَّداً.

انطلاقاً ممّا ذكرنا، نستنتج أنّ ما يسمىّ بالسنة النبوية الواردة في كتب الأحاديث تلزم فيها - إن صحّت - الطاعة المنفصلة للرسول (ص) أي في حياته فقط لأن ما جاء فيها عبارة عن خلاصة اجتهاداته كنبي (ص) أي ما قام بتشريعه كقانون مدني صالح لمجتمعه فقط. وهذ يدفعنا إلى ضرورة فهم قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر ٧) لإزالة الغموض الوارد فيها حول ما يجب على الأجيال التي جاءت بعد عصره أخذه عنه (ص) وما لا يجب بتحليل قوله الوارد في الآية: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، بالبدء بفعل (آتاكم)، وهو فعل

مشتق من مصدر الإِيتاءُ، ومعناه لغة الإِعْطاء، فإيتاء الشيء هو إعطاؤه، والإنسان لا يمكنه أن يعطي شيئاً لا يكون ملكه، لأن إعطاء الشيء يتطلب أوّلاً امتلاكه لذا قال عزّ وجلّ في محكم تنزيله:

- ﴿... وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ (المزّمل ٢٠)،
- ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً...﴾ (النساء ٤)،

فالمتأمّل في الآيات يستنتج أنه في الآية الأولى أمر إلهي بإيتاء الزكاة أي بإخراجها من المال الخاصّ للشخص، لأنه لا يمكن إخراج زكاة مال إلّا للإنسان الذي يمتلك المال، وبناءً على ذلك فإن الإيتاء "العطاء" يكون ممّا لدى المرء كي يعطيه. وكذلك الأمر بالنسبة للآية الثانية في إيتاء النساء مهورهنّ عطاءً ليس من قبيل المقايضة لأنّ النِحلة هي العطاء دون انتظار المقابل أي إكراماً لهنّ وليس أجراً مقابل النكاح، وهو عطاء يخرج ممّا يملكه الرجل من مال.

بهذا نفهم قوله: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ" أي ما أعطاكم الرسول من عطاء من عنده، ولو كان من عند الله لقال فيه عز وجل: "ما جاءكم به الرسول"، لأنّ إيتاء الشيء يكون في نطاق ما عند الشخص سواء كان غرضاً أو مالاً أو علماً...، ويجيء الإنسان بالشيء من خارج نطاق معرفته مهما كان هذا الشيء. ويظهر ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (مريم ٤٣)، أي قد جاءني علم موحى من خارج ما أعلم، وليس موجوداً عندك، وهذا الأمر يتأكّد بما لا يدعو مجالاً للشك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان ٣٣)، فالآية تحسم معنى كلّ من فعل (جاء) و(أتى) ببيان أن معنى (يأتونك) أي يعطوك من عندهم بينما (جئناك) أي من عند الله ومن خارج نطاق معرفتهم.

على هذا الأساس فإن اجتهادات الرسول جلها من مقام النبوّة وفيها جاءت

الطاعة المنفصلة له (ص) ممّن عاصره من أفراد مجتمعه فقط، ولا تجب على من بعدهم من العصور. وبناءً على ذلك يصبح كلّ ما ورد في كتب الحديث عبارة عن وثائق تاريخية تصلح للدراسة والتحليل فقط وليست ديناً وليس لها أيّ قدسية.

ب- الطاعة المتّصلة

هي طاعة الرسول التي جاءت متصلة بطاعة الله مباشرة كما في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (النور ٥٢)،

﴿... وَمَن يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ (الأحزاب ٧١)،

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران ١٣٢).

وهي طاعة أبديّة للرسول في حياته وبعد مماته، أي كانت لازمة اختياراً على أتباعه في حياته وهي لازمة اختياراً على من جاء بعدهم من أمّته؛ بطاعته في السنّة الرسولية أي في الرسالة الإلهية الواردة في كتاب الله حصراً، بما جاء فيها من قيم إنسانيّة وشعائر وتشريع. فطاعته فيها (ص) طاعة متّصلة لأن رسالته أبديّة عالميّة وشاملة، ويدخل في إطارها طاعته (ص) في تفصيل شعيرتي الصلاة والزكاة لورودها منفردة به في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور ٥٦).

٥- طاعته (ص) في الرسالة طاعة متّصلة

عندما قال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧)، فهذا معناه أنّ الله أمرنا بطاعة رسوله (ص) لأن رسالته بمثابة الرحمة المهداة للإنسانية من الله لأنه سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة في

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...﴾ (الأنعام ٥٤). هذه الرحمة التي تردّدت في مواضع عديدة في التنزيل الحكيم أقرّ الله بوجودها في الدنيا والآخرة، فأمّا في الآخرة فتتعلق بالفوز بالجنّة والنجاة من النار لعباده المؤمنين كما في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (آل عمران ١٠٧)، هؤلاء الذين تطالهم رحمة الله في الآخرة وهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف ١٥٧). فالفوز بهذا الثواب كما تبيّنه آية الأعراف إنما يكون ثمرة اتّباع هؤلاء للرحمة المهداة إليهم في الحياة الدنيا بانتهاج صراطه المستقيم مصداقاً لقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النساء ١٧٥).

فهي الرحمة المهداة إلى الإنسانية جمعاء في رسالته الخاتمة، ومن تمام رحمته أن جعل هذه القيم فطرية في الإنسان وجعلها الركن الثالث للإسلام، أي إن المسلم عندما يؤمن بالله واليوم الآخر ينقاد للقيم فطرة إذا لم يحدث لها تشويه، بحيث يحب القيام بالعمل الصالح الذي يعبّر عن هذه القيم مهما كانت ملته الدينية، أمّا المؤمنون من أمّة محمّد (ص) فيجدونها مذكورة في كتابه عزّ وجلّ، واتّباعهم لما جاء فيه اتّباع للفطرة الإنسانية السليمة الخالية من أيّ تشوّهات وهي فطرة أغلب الناس على العموم. وهكذا فإن عالمية الرسالة المحمّدية تتجلى من خلال القيم الإنسانية التي جاءت بها، والتي تعبّر عن المرجعية الأخلاقية العالمية لأنها تضمّ القيم الإنسانية العالمية التي يتفق عليها جميع الناس لأنها تتماشى مع الفطرة الإنسانية وتمثل جوهر الدين الإسلامي

وروحه. وهي السنّة الرسولية التي يجب اتباع الرسول (ص) فيها في الشعائر وفي التشريع.

أ- طاعته (ص) في التشريع

تتجلى عالمية الرسالة الإلهية في شموليتها لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف ١٥٨)، بحيث تتمثل عالميتها في شمولها لكلّ جوانب التشريع الإنساني من خلال فتحها باب الاجتهاد في تفصيل المحكم. فقد جاءت الرسالة المحمّدية مؤلفة من قسمين: قسم منها ثابت النصّ والمحتوى وهي الآيات المحكمات (أمّ الكتاب) وهي آيات مغلقة لا اجتهاد فيها (ثبات النصّ والمحتوى)، ومن خلالها تظهر الحاكمية الإلهية وقد وجدنا عددها في التنزيل الحكيم ١٩ آية فقط، بينما آيات تفصيل المحكم (تفصيل أمّ الكتاب) فهي آيات تتميّز بثبات النصّ وحركية المحتوى لأنها تخضع للاجتهاد الإنساني، ومن خلالها تظهر الحاكمية الإنسانية الحنيفية، وهي تشتمل على حدود التشريع (نظرية الحدود)، فالنصوص الموضحة لحدود التشريع جاءت من ضمن تفصيل المحكم، وهذه الحدود تعطينا مجال حركة التغيّر في التشريعات الإنسانية. فاستحقت بذلك أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية كلها، لأن ورودها بهذا الشكل جعل منها رسالة قابلة للتطبيق في كلّ زمان ومكان، لاستيعابها كلّ الظروف الإنسانية مهما تعدّدت ومهما اختلفت مستويات وعي المجتمعات، ذلك لأنّ مهمة الاجتهاد في تفصيل المحكم ترجع إلى السلطة التشريعية.

ولأنّ الاجتهاد يكون في النص المقدّس حصراً لا خارجه، وذلك بالاجتهاد في آيات تفصيل المحكم فقط؛ فإنّ صحّة نتيجة الاجتهاد تحدّدها المصداقية

بين النصّ والواقع دون إيقاع الناس في الحرج، وفيه الحدّ الأدنى من تقييد حرّيتهم. فالاجتهاد صحيح ومقبول بمقدار ما يتجاوب مع الواقع الموضوعي، وبعبارة أخرى، بمقدار فهم قارئ النصّ للواقع الموضوعي في لحظة القراءة التاريخية. ومعيار مصداقيّة فهم المجتهد للنصّ هو تجاوب اجتهاده مع الواقع، هذا الأمر هو الذي يحدّد صحّة القراءة أو خطأها، ودرجتها من الصواب والخطأ، وهذا أيضاً ما يحدّد نجاح أو فشل أيّ برلمان في تشريعاته، إذ كلّما كانت التشريعات متطابقة ومتجاوبة مع الواقع الموضوعي كان البرلمان ناجحاً في مهمّته لفهمه الصحيح للواقع المعيش.

وفي ذلك تماشي مع سنة الله في الكون القائمة على مبدأ التغير في كل شيء وعدم الثبات، وتلك هي الفطرة الإنسانية مصداقا لقوله تعالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم ٣٠)، فالحنيفية من أصل "حنف" وتعني في إللغة "الميل والانحراف"، وصفة الحنيفية هي صفة الميل والانحراف في التشريع وفي الطباع والعادات والتقاليد، أي صفة التغيّر "المتغيّرات" كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام ١٦١)، إذ يجب أن تكون هناك ثوابت يحتاج إليها الإنسان في حياته، يتمكن على ضوئها من الاجتهاد، وهي الصراط المستقيم الذي تشير إليه الآية ١٦١ من سورة الأنعام، وهو كما عرفناه سابقاً القيم الإنسانية بما فيها من محرّمات ونواهٍ كما جاءت في كتاب الله، تضاف إليها حدود الرسالة الإلهية. هذه الأمور كلها ثابتة وعلى ضوئها يحنف الإنسان في قراراته وفي تشريعاته بأخذ المتغيّرات في الظروف ومستوى الوعي في الاعتبار، وهذه هي الحكمة الإلهية من جعل رسالته عالمية وأبدية متغيّرة التطبيقات حسب الزمان والمكان رحمة بالناس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٧).

إنّنا كمؤمنين بمحمّد (ص) نفخر بعالميّة الرسالة المحمّدية ونريد أن نرى تحققها على الواقع في كلّ مكان، وهذا ما يحصل فعلاً، فقد تحققت فعلاً في كلّ بلاد العالم حتّى في البلدان التي ليس لها علاقة بكتاب الله لأنها رسالة تتماشى مع الفطرة الإنسانية بفضل الاجتهادات الإنسانيّة التي تسير إلى الأمام. لأنه كلما تقدّم مستوى وعي الناس ظهر البعد الإنساني للرسالة كما جاءت في كتاب الله من خلال مختلف الاجتهادات التي تستوعبها هذه الرسالة. ومن خلال فهمنا لمنهجية الاجتهاد في الرسالة كما جاءت موضّحة في كتاب الله نستطيع أن نقول الآن صدق الله العظيم قولاً وواقعاً، لأنّ كلّ أهل الأرض ببرلماناتها يقومون بذلك ولم يخرجوا عن الفطرة في الغالب الأعمّ إلّا بعض الاستثناءات الشاذة.

بهذا نفهم أن صاحب الحق الوحيد في إظهار مصداقية كلام الله هو الخط الكامل للسيرورة والصيرورة الإنسانية كلها، منذ آدم إلى أن تقوم الساعة لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران ١٣٧) وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت ٢٠). وبما أن الدين لا يملك أداة الإكراه كما سنشرح لاحقاً بالتفصيل، لذا فإن الذي يمتلك أداة الإكراه في السلطة لا يحق له التشريع، ومن يمتلك حق التشريع (البرلمان) لا يحق له امتلاك أداة الإكراه. وهذا هو المعنى الحقيقي لمبدأ فصل السلطات.

ب- طاعته (ص) في الشعائر

الشعائر جمع مفرده شعيرة، ورد ذكرها في أربعة مواضع من التنزيل الحكيم:

- ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ١٥٨)،

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا...﴾ (المائدة ٢)،

- ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج ٣٢)،

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ...﴾ (الحج ٣٦).

والشعائر ممارسات دينية محدّدة أمر الله بالقيام بها في أماكن أو أزمنة مخصوصة هي المشاعر، ولكلّ ملّة دينيّة من الملل الإبراهيمية الثلاث (اليهوديّة، النصرانيّة، المحمّدية) شعائرها الخاصّة بها كالوقوف على عرفة والسعي بين الصفا والمروة والطواف بالكعبة في الحجّ عند المؤمنين من أمّة محمّد (ص). ولذا فإن الأقوال والأفعال التي صدرت عنه (ص)، والتي تتضمّن توضيحاً لتفاصيل شعيرة من الشعائر دون أن تتعارض مع ما جاء في كتاب الله، تلزم فيها طاعته (ص) طاعة متصلة أي لازمة الاتّباع والتأسّي به في حياته وبعد مماته، أمّا إذا تعارضت مع كتاب الله فلا يؤخذ بها. وهي: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وهي القاسم المشترك بين كلّ أتباع الملّة المحمّدية من القرن السابع هجري إلى يوم الدين.

لكن علينا هنا أن نتوقف عند مسألة نراها جدّ مهمّة وتستحق التوضيح، والمتعلقة بطاعة الرسول طاعة منفردة في شعيرتي الصلاة والزكاة، وهي الطاعة التي ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور ٥٦)، ونتساءل: لماذا يا ترى يأمرنا سبحانه بطاعة الرسول منفرداً في هذه الآية تحديداً دون أن يربطها بطاعته عزّ وجلّ كما جاء في آيات الطاعة المتّصلة التي ذكرناها سابقاً؟

الجواب: هو أنه سبحانه لما كلف المؤمنين من أمّة محمّد (ص) بإقامة

الصلاة وإيتاء الزكاة لم يفصّل لهم كيفية تأديتهما في كتابه، حيث لم يرد ذكر كيفية أداء الصلاة فيه بالتفصيل ولا نصاب الزكاة. ولهذا أتبَعَ التكليف بأمر إرشادي يأمرهم بطاعة الرسول (ص) الذي علمه جبريل كيف يقيم الصلاة ومتى يؤدّي الزكاة.

وما دامت الشعائر محاور أساسية لضمان استمرارية الأمة المحمّدية، فقد ورد الأمر بأدائها في كتاب الله على شكل خطاب موجّه إلى المؤمنين جميعاً من أمّته (ص) سواء ممّن عاصره أو من جاء بعده، فطاعته فيها (ص) طاعة متصلة.

١- في الصلاة

يقول تعالى في كتابه الحكيم عن الصلاة كشعيرة (صلوة) وليس صلة: ﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء ١٠٣)، ويقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النور ٥٦)، والأمر في الآية الثانية واجب الطاعة أمّا كيفيّة أداء الصلاة فبالرجوع إلى سنته (ص) المنقولة بالتواتر الفعلي أو بالرجوع للأحاديث لندرك كيف كان النبي (ص) يصلي.

٢- في الزكاة

جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة ٤٣)، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ...﴾ (البيّنة ٥). أضف إلى ذلك مواضع لم تُذكر فيها الزكاة صراحة، بل أشير إليها بذكر صفاتها، كقوله تعالى:

- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة ٣).

– ﴿... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (البقرة ٢١٩)،

– ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٦٠).

– ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (التوبة ١٠٣)،

– ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج ٢٤–٢٥).

انطلاقاً من ذلك، نقول إنه لا بدّ لمن يتصدّى للحديث عن الزكاة من أن يلحظ خيطاً يربط – بشكل أو بآخر – بين النفقة والصدقة والزكاة، يبدأ من عبارة: ﴿... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (البقرة ٣)، مروراً بعبارة: ﴿... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ...﴾ (البقرة ٢١٩). فقد كان من الطبيعي العفوي عند المؤمنين بالرسول (ص)، وهم يسمعون قوله تعالى عن المنفقين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة ٥)، أن يسألوه: ماذا ينفقون ليكونوا من أهل الهدى وأصحاب الفلاح؟ وكان من الطبيعي أن يأتي الجواب ليوضح أن الإنفاق المقصود ليس شراء الحاجيات من مأكل ومشرب وملبس ومسكن، بل هو ما فضل بعد ذلك، وهو ما سمّاه التنزيل الحكيم "الإنفاق في سبيل الله" تارة (البقرة ١٩٥، ٢٦٢ والأنفال ٦٠) و "لوجه الله" تارة أخرى (الروم ٣٩ والإنسان ٩).

ثمّ يتابع الخيط ليضم الصدقات في عبارة: ﴿والمتصدّقين والمتصدقات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾. والصدقة هي الجزء الذي ينفقه المرء ممّا رزقه الله لوجه الله وفي سبيله، ولا يشوبه بمنٍّ ولا أذى ولا ينتظر عليه أجراً ولا نفعاً، وهي العفو الذي أمر سبحانه رسوله الكريم بأخذه في آية الأعراف ١٩٩. وكما

يتضمّن الإنفاق الصدقات، كذلك تتضمّن الصدقات الزكاة حسب الشكل التالي:

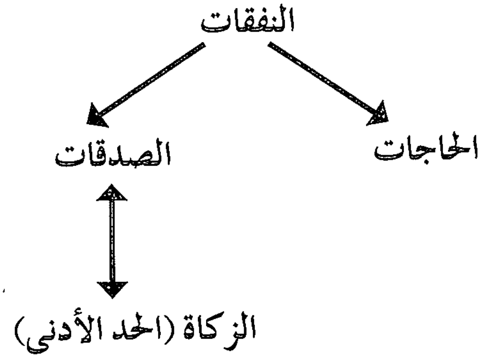

كانت الزكاة في مكّة قبل الهجرة بدلاً فائضاً من المال يؤدّيه الميسورون من المؤمنين تطوّعاً، لا يحدّهم في ذلك زمان ولا مكان ولا مقدار. ثم تحوّلت إلى تكليف فرضه الله تعالى بعد الهجرة، بدلالة الآية ١٠٤ من سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، ثمّ تمّ تحديد وجوه صرفها في آية التوبة ٦٠: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، دون ذكر نصابها ومقدارها ونسب توزيعها، حيث ترك سبحانه ذلك لرسوله بمقتضى آية النور ٥٦: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقد وضع نصابها (ص) بتوفيق من الله كحدّ أدنى للزكاة بـ٢,٥%.

٣- في الصيام

يقول تعالى في كتابه:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾ (البقرة ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥)،

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...﴾ (البقرة ١٨٧)،

نقف هنا عند عبارة: ﴿... كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من الآية ١٨٣، لنفهم أن الصيام من الشعائر التعبّدية التي عرفتها أمم سالفة قبل نزول الكتاب على النبيّ (ص)، أي إنّ الإمساك عن الطعام والشراب كان معروفاً عند الأمم السالفة، أمّا عندنا نحن الأمّة المحمّدية فيتمثل بالإضافة إلى الإمساك عن الطعام والشراب في الإمساك عن الجماع من مطلع الشمس إلى غروبها طيلة شهر رمضان.

لقد جاء تفصيل الصيام لأتباع النبي (ص) في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٨٤) لنجده يتحدّث عن حالة الذين يقدرون على صيامه، ودليل ذلك فعل (أطاق من أصل طوق) الذي جاء لغة معنى ما يقدر عليه. وبناءً على ذلك فإنّ هذا الجزء من الآية يتوجّه بالخطاب إلى الذين يطيقون صيام رمضان أي يقدرون على أدائه لكنهم لا يرغبون في ذلك لسبب أو لآخر، وهؤلاء تم بيان حالتهم بأن جعل لهم الله عزّ وجلّ في كتابه فدية مقابلة عدم صيامهم رمضان ممثلة في إطعام مسكين على الأقل عن كلّ يوم، ثم يوضح

لهم أن أجر الصيام عند الله أكبر وخير من أجر الفدية (إطعام مسكين). وبالتالي فإن عدم الصيام ليس له كفّارة (غرامة) بل تجب فدية على من لا يرغب في الصوم مع قدرته عليه لسبب أو لآخر لأن الصيام مسألة شخصية اختيارية ولا إجبار فيها.

فالفرق شاسع بين الفدية والكفارة، بحيث إنه لا كفارة على الصيام في حال عدم القيام به مع الاستطاعة لسبب أو لآخر بل تجب في هذه الحالة الفدية، لهذا لا نجد ذكراً للصيام في كتاب الله مقترناً بالكفارة (غرامة)، بل على العكس من ذلك نجده مذكوراً باعتباره هو نفسه كفّارة (غرامة) عن تصرّفات أخرى يقوم بها الإنسان وهي: قتل النفس في حالة الخطأ، اللغو في الأيمان والصيد في حالة الإحرام. وإذا طبّقنا هذا المعنى في العصر الحالي نجده يتماشى مع ما نجده حاضراً، بحيث إن انتشار المؤمنين من أتباع محمّد (ص) في كلّ بقاع العالم يدفعنا لإعادة الاجتهاد في تفصيل الصيام لأننا نجدهم حتى في المناطق التي يمتدّ فيها اليوم إلى ٢٠ ساعة أو أكثر. فهل يُعقل لهم صيام كلّ هذه المدّة من اليوم حتى لو كانوا يطيقون الصيام أي غير مسافرين وغير مرضى، وهناك من يكون في بلد تغرب فيه الشمس مرة كلّ ستة أشهر فهل يصوم السنة كلها؟؟؟

إنّ الاجتهاد بالمنهج المعاصر في شعيرة الصيام فيه من اليسر للجميع بحيث من أراد الصيام فله ذلك ومن أراد الفدية فله ذلك دون أن يخطّئ أحدهما الآخر، لأن الاجتهاد ضمن آيات تفصيل الصوم يفتح المجال على مصراعيه ليسع كلّ الظروف في كلّ مكان من العالم.

٤- في الحج والعمرة

يقول تعالى في كتابه الحكيم عن الحج ومناسكه:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ

بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾ (آل عمران ٩٦–٩٧)،

– ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج ٢٧–٢٩)،

– ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ (البقرة ١٩٦)، وتابع إن شئت الآيات ١٩٧–٢٠٠ من سورة البقرة.

والحجّ شعيرة جماعية محضة ولا محلّ فيها للفردية مطلقاً. ومعناه لغة القصد والقدوم، ومعناه خصوصاً في كتاب الله قصد البيت الحرام لأداء شعيرة الحج في الأشهر الحرم، فإن تضمّن ذلك الوقوف بعرفة فهو الحج، وإن لم يكن فهو العمرة في الأشهر الحرم أو ما يسمّى الحج الأصغر، وعمرة فقط خارج هذه الأشهر الحرم. وقد ورد تفصيل كيفية أداء الحجّ في قوله تعالى:

– ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة ١٩٧)،

– ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة ٢٠٣)

نبدأ بقوله الوارد في الآية الأولى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ والإشارة

واضحة في لفظة (معلومات) إلى الأشهر الحرم، وهي كما حددها البعض بالشهور التالية: رجب، ذو القعدة، ذي الحجة، محرّم، وهذا التصنيف هو الغالب الأعمّ لكن هناك من يرى غير ذلك على اختلاف في الآراء والدراسات في الموضوع.

علماً بأنه جاء ذكر الأشهر الحرم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...﴾ (التوبة ٣٦). والإشارة واضحة أيضاً إلى أن هذه الأشهر الحرم معروفة ومعلومة ومشهورة عند العرب قبل البعثة المحمّدية، وهذا يقودنا إلى آية الحج ٢٨ في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ...﴾ فكما أنّ ثمة أشهراً معلومات هي الأشهر الحرم، كذلك هناك أيّام معلومات معروفات ومشهورات هي الأيام التسعة الأولى من شهر ذي الحجة وآخرها يوم الوقوف بعرفة. ولا يطعن في معلوميتها وشهرتها أنها لم تُذكر بالنص في كتاب الله، فهي الموسم السنوي الأبرز عند أهل شبه الجزيرة العربية قبل البعثة المحمّدية، وفيها كانت قريش تمارس دور المضيف في رفادة الحجاج وسقايتهم منذ عهد إبراهيم، بدليل أن الإشارة إلى هذه الأيام المعلومات وردت في سياق خطابه تعالى لإبراهيم ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ...﴾ (الحج ٢٧-٢٨) أي إنّ الأيّام المعلومات بدأت منذ إبراهيم عليه السلام.

ويجدر بنا أن نوضح في هذا المقام أن الشعائر التي هي من أركان الإيمان، يتميّز بها أتباع الرسالة المحمّدية عن غيرهم، بحيث خضعت الشعائر للاختلاف بين الملل عبر مر التاريخ، ولكلّ ملّة دينيّة شعائرها دون تناقض بينها. لكن بما أن الشعائر عبارة عن تكاليف فهي تختلف عن العبادة لأن العبادة تتماشى مع الفطرة على عكس الشعائر المناقضة لها لأنّ فيها تكليفاً ومشقّة، ومثال ذلك

الفرق بين الصلاة بمعنى الصلة أي كعلاقة مع الله وبين الصلاة بمعنى صلوة أي شعيرة، بحيث إنّ كلتيهما تندرج تحت الاختيار الشخصي للإنسان بكل طواعية لأنّها علاقة تقرّب الإنسان إلى الله لكنّ الأولى تكون معنوية بالذكر والتسبيح، والثانية شعيرة بمعنى علاقة رمزية بين العبد وربّه لها شروطها التي تؤدّى بها وفيها نوع من التكليف لأنّها عملية لأنها ضدّ الفطرة. فقد فرّق الله عزّ وجلّ في الآيتين التاليتين بين العبادة والشعائر في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤). وهذا معناه أن الإنسان يقيم الصلاة داخل المساجد ولكنه يعبد الله داخلها وخارجها بالالتزام بالصراط المستقيم وتجنّب المحرّمات أي القيام بالعمل الصالح، لأنه عزّ وجلّ في قلوبنا داخل المساجد وخارجها، فهو في وجداننا في كلّ مكان بقبولنا الطوعي لأوامره واجتنابنا لمحرّماته ونواهيه داخل المساجد وخارجها.

الفصل الثالث

لا إكراه في الإسلام

لأن الإسلام على اختلاف ملله الدينية، يعبّر عن الفطرة الإنسانية الممثلة في القيم التي يتعامل بها الناس بينهم بكلّ حرّية ودون إجبار، فهو يمثل الهويّة الحقيقيّة للإنسان في هذا الكون التي يسير بها حيثما شاء وأينما شاء، وهي هويّة لا تخضع بل ولا ترضى بالخضوع للقهر والاستعباد في أيّ زمان أو مكان. فالإنسان قديماً وحاضراً ومستقبلاً حرّ ويتعامل بقيمه الإنسانية في جلّ ميادين حياته بكلّ حرّية وسيبقى كذلك إلى يوم الدين، وانقياده لهذه القيم لا يكون إلّا عن اختيار ورضى وبرغبة كاملة في التعبير عن إنسانيته المطلقة في تحقيق معنى خلافته لله في هذا العالم. وإن كان هناك إكراه فلا يمكن أن يكون من الدين أبداً، وقد وضّح لنا الله عزّ وجل ذلك في كتابه الحكيم، وطلب منّا عدم الرضوخ للإكراه مهما كان نوعه لأنه يلغي صفة الإنسانية عن الإنسان.

١- الفرق بين الطاعة والإكراه

جاءت الطاعة في اللغة من أصل "طوع" ومعناه الانقياد والخضوع. ويأتي معنى الطاعة بالانقياد للآخر لكن بكلّ حرّية لأنها تأتي من الطوعية أي الخضوع

الإرادي والموافقة على الانصياع لقرارات الآخر بملء الاختيار والرضى. وهي لغة عكس الإكراه لأن الطاعة متعلقة بالاختيار والإكراه متعلق بالإجبار، ما يظهر علاقة تناقض بينهما واستحالة اجتماعهما معاً في نفس الموقف لدى نفس الشخص. ولذا فإن الطاعة تترتب عليها مسؤولية لأن الإنسان لا يطيع ولا ينقاد لقرارات الآخر بملء إرادته إلا وهو مقتنع بهذه القرارات فينشأ عن ذلك أن الإنسان يصبح مسؤولاً عن طاعته بتطبيقه لتلك القرارات. وهكذا عندما قال تعالى في محكم تنزيله:

- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران ٣٢)،

- ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران ١٣٢)،

بحيث يقصد عند قوله: ﴿أَطِيعُوا اللهَ﴾ الانقياد الطوعي لله عزّ وجلّ بكلّ اختيار وحرّية، في الامتثال لحاكميته الإلهية بالالتزام الإرادي بما جاء في دينه "الإسلام" من قيم إنسانية ممثلة في تجنّب محرّماته عزّ وجلّ والامتثال لأوامره ونواهيه، لهذا نجده في الآية ٣٢ من آل عمران عندما طلب الله طاعته وطاعة الرسول طاعة متصلة بملء الاختيار لهذا أتبعها بقوله "فإن تولّوا" ليبيّن أن الطاعة تكون بملء الإرادة لأنه ذكر أنه عند توليهم لن يجبرهم الرسول (ص) على طاعته، وهذه هي خاصّية الدين الإسلامي الذي يقوم على الطوعية وعدم الإكراه، ولأن الطاعة جاءت مقرونة بالمسؤولية لتعلقها بالاختيار المسؤول أو الحرّية المسؤولة، فقد اعتبر ذلك أمانة لم تتمكّن السماوات والأرض من حملها وحملها الإنسان لأنه خليفة الله في الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب ٧٢)، وهذه الأمانة هي حرّية الاختيار المسؤولة أي الانقياد والطاعة الواعية لله ورسوله بدليل أن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا

* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب ٧٠-٧١)، وسياق الآيات يوضح أنّ الطاعة الاختيارية هي أمانة حمّلها الله للإنسان عند نفخة الروح التي أصبح بها الإنسان واعياً ومدركاً ومن ثمّ قادراً على اتّخاذ القرارات بكل حرّية بما فيها الطاعة المسؤولة لله والرسول في ما جاء به عن ربّه عزّ وجلّ من رسالته الخاتمة، وعلينا التقرب من معنى الإكراه في كتاب الله لنتمكن من خلاله من أن نفهم العلامة الفارقة بينه وبين الطاعة.

أمّا الإكراه فيدلّ لغة على خلاف الرضى والمحبّة، أي إنّ الفعل أو التصرّف أو القول إذا بدر من الإنسان بغير رضاه أو رغبته فهو صادر منه عن إكراه بصورة أو بأخرى، والكره بالفتح بمعنى المشقة النفسيّة كقوله تعالى: ﴿... وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات ١٢)، بالضمّ بمعنى المشقّة الجسدية كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...﴾ (الأحقاف ١٥)، أو بالاثنين معاً كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢١٦).

وقد يمارس الإكراه على الإنسان من قبل شخص آخر، وهذا هو الإكراه الذي يهمّنا في دراستنا هذه، وذلك بأن يجبر الإنسان على إصدار قول أو القيام بفعل دون رضاه كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (التوبة ٥٣)،
- ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه ٧٣)،

- ﴿... إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾ (النحل ١٠٦)،
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩)،
- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٥٦)،

هذه الآيات تبيّن لنا أن الإكراه قد يمارس على الإنسان من قبل شخص أو هيئة، بحيث توضح الآية ٥٣ من سورة التوبة أنّ الإنسان قد ينفق ماله بكل رضى أو طواعيةً كما قد ينفقه مكرهاً أي مرغماً من طرف آخر، فيما الآية ٧٣ من سورة طه تبيّن أن فرعون كان قد أرغم السحرة على ممارسة السحر وهم له كارهون بدليل تحوّلهم عنه بمجرد إيمانهم بربّ موسى. وهذه الآيات تبيّن أن هنالك بعض الإكراهات المرفوضة وهناك بعض الإكراهات المسموحة كما في سورة التوبة بحيث كان المنافقون مرغمين على إنفاق أموالهم في تجهيز جيش المسلمين رغم كرههم لذلك، ولكن كان عليهم الخضوع لسلطة المجتمع الذي كانوا يُحسبون عليه رغم أنهم لم يكونوا يشعرون بالانتماء إليه وجدانيّاً. ومن أهمّ الإكراهات المرفوضة نجد الإكراه الديني كما توضح ذلك الآية ١٠٦ من سورة النحل: ﴿... إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ...﴾، لأنّ الله ترك كامل الحرّية للإنسان دون إكراه في الدين، بدليل عتابه للرسول الوارد في الآية ٩٩ من سورة يونس ليعلّمه أنّه لا إكراه في الدين بصريح العبارة التي جاءت في الآية: ﴿... أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، فهذه الآية تبيّن بما لا يترك مجالاً للشك أنّ الحرّية الدينية متاحة لكل الناس على اختلاف مللهم، لأنّ الله عزّ وجلّ عاتب النبي (ص) لأنه كان يريد أن يكون كلّ الناس "مؤمنين" به أي من أتباع ملّته، وهذا غير ممكن لأن مجال الحرّية الدينية مفتوح للجميع وكلّ إنسان من حقه أن يتبع الملة الدينية التي يريد لأنّ كلّ الملل الدينية من

الإسلام، والله عزّ وجلّ يحب أن يعبد ويمجدّ بكل الملل ما دام هناك إيمان به وعمل صالح يرجى منه التقرّب إليه سبحانه وتعالى. وفي هذا قمّة التسامح الديني والوعي برحابة الدين الإسلامي، بأن تقبل كلّ ملّة الملل الأخرى كما هي ما دام الكلّ يؤمنون بالله ويتقرّبون إليه بدليل قوله تعالى: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾ (الحج ٤٠)، فالله عزّ وجل يُذكر في الكنائس والكنيست والمساجد والمعابد الدينية الأخرى، ولا يحق لأيّ ملة أن تكره أحداً من ملّة أخرى على اتّباعها، بل الدين الإسلامي يتّسع للجميع.

ما دام الإكراه في الدين مرفوضاً رفضاً تامّاً من دون نقاش، فإنّ كلّ تعابير التحريم والأمر والنهي في ما يتعلق بكلّ من القيم الإنسانية جاءت تعبيرات لا تحمل معنى الإكراه إطلاقاً في كتاب الله، إذ جاءت فيه الأوامر والنواهي بعبارات: يوصيكم، كُتب عليكم، لا تجسّسوا، لا تقربوا، لا تلمزوا، لا تنابزوا، لا تقتلوا أنفسكم... وفي هذه الأوامر والنواهي ما هو محرّم وما هو منهيّ أي إن أداة لام الناهية والتحريم والأمر الواردة في التنزيل لا تحمل أداوت الإكراه. وإذا أخذنا كلّ مركبات الدين الإسلامي فإننا لا نرى في أيّ مركب منها الإكراه فالدخول في الإسلام يتمثل في الإيمان بالله واليوم الآخر من باب العقيدة، وهذا الأمر ليس فيه أيّ إكراه، وكذلك الأمر بالنسبة للعمل الصالح بتطبيق القيم الإنسانية التي ليس فيها أي إكراه وهي المحرّمات كلها التي لا إكراه فيها، وكذلك الأمر بالنسبة للأوامر والنواهي، وحتى الشعائر هي الأخرى خالية من كلّ أنواع الإكراه، لأن الانقياد للدين سواء من جانب العقيدة أو السلوك أي العمل الصالح يكون طواعيةً.

فقد أعلن الله عزّ وجلّ أنه لا إكراه في الدين كما جاء في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة، فالآية تحمل خطاباً مباشراً من الله إلى الإنسان، يوضح له فيه أنه ليس هناك أيّ إكراه منه عزّ وجلّ على الإنسان في الدين في قوله الذي جاء

على شكل إعلان إلهي: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...﴾، مع الإشارة إلى أن اللام الواردة في هذا التصريح إنما هي اللام النافية لجنس الإكراه في الدين وليست اللام الناهية، إذ إنها تنفي وجود الإكراه مطلقاً في الدين أي إن الإكراه غير موجود في الدين أصلاً. فالآية تبيّن بصريح العبارة أنّ الإيمان بالله مقابل للكفر بالطاغوت أي إن من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى، ونحن نعرف كيف يكون الإيمان بالله أي الإيمان تسليماً به وباليوم الآخر والالتزام بكلّ طواعية بالعمل الصالح بما فيه من تجنّب للمحرّمات والتزام للأوامر والنواهي، وهو ما يمثّل الدين الإسلامي على اختلاف ملله، وعلينا الآن أن نعرف ما هو الطاغوت المضادّ للإيمان تسليماً بالله حتى نتمكّن من استيعاب الفرق بينهما.

جاء اسم الطاغوت من فعل (طغى) ومعناه لغة مجاوَزَة الحدِّ في العِصيان، والطاغوت اسم على وزن "فاعول" ويعني الاستمرارية في العصيان، لكن ماذا يقصد الله بالطاغوت في هذه الآية؟ إنه يقصد كلّ من يصرّ على عدم احترام حرّيات الناس التي يدعو إليها عزّ وجلّ في كتابه، بممارسته الإكراه عليهم. فالطاغوت يتمادى في استعمال قوّته لقهر غيره وإخضاعه لسلطانه وإرادته وجعله تحت إمرته ولن يتمّ له ذلك إلّا باستعباد الناس وسلبهم حرّياتهم، لكنّ نصوص كتاب الله وإن كانت قد أشارت إلى الحرّية بعبارة "العروة الوثقى" فإننا نتساءل لماذا استُعمل هذا المصطلح بدل مصطلح "الحرّية" صراحة؟

الجواب عن هذا السؤال تظهره الآية نفسها التي ذُكرت فيها "العروة الوثقى"، فهذه الرمزية في الإشارة إلى الحرّية لها سببها المباشر في تاريخ الإنسانية الذي أوضحته الآية عندما ربطت الحرّية بثنائيّة (الإيمان بالله والكفر بالطاغوت)، فالتقاطع بينهما هو الذي يحقق العروة الوثقى أو الحرّية بصريح العبارة. فالطاغوت حالة متغيّرة عبر الزمان والمكان، وطريقة الكفر به والتمرّد

عليه متغيّرة أيضاً حسب الزمان والمكان، وحسب معتقدات المجتمعات ومستوياتها، ولذلك فقد عُرّفت الحرّية في الآية بنقيضها في مختلف العصور لأنّ مظاهر الحرّية مختلفة على مرّ الزمان والمكان أيضاً. وبالرجوع إلى التنزيل الحكيم نجد أنّ مفردة الحرّية لم تُذكر صراحة إلّا عند تحديد نوع الطغيان المقابل لها، إذ ذُكرت الحرّية في مقابل الرقّ كما جاء في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...﴾ (المائدة ٨٩)، لأن الرقّ (العبودية) ينبني على علاقة غير متكافئة بين الطرفين، وهو نتاج الحروب والغزوات والصراعات الدائرة فيها، لكن تم التعارف عليه مثل العبودية تماماً كقانون من قوانين الحرب لأنّ كلّ طرف كان يأخذ أسرى من الطرف المنهزم لاستعبادهم أو امتلاكهم كرقيق (عبيد)، وبناءً على ذلك فإن معانينا للحرّية في القرن الواحد والعشرين تختلف عن معاني القدماء، وكذلك الطاغوت يختلف معناه عندنا عن معناه عند القدماء، لكن يبقى هناك عامل مشترك بينهما يتمثل في أن الطاغوت في كلّ مكان وزمان، يتمادى في استعمال قوّته لقهر الآخرين وإخضاعهم لسلطانه وإرادته وجعله تحت إمرته ولن يتم له ذلك إلا بسلب الناس حرياتهم. لهذا فإن الكفر بالطاغوت ورفضه مرتبط بإيمان الإنسان بحرّيته التي تمثل رمز الإنسانية، لأنّ الإنسان لم يُخلق مسلوب الإرادة بل خُلق كامل الحرّية في حالة الفطرة، وبإرادته الحرّة يستطيع أن يتبع الصراط المستقيم في الحياة ليحقق إنسانيته مهما كانت ملته الدينية لأنّ كلّ الملل المؤمنة بالله تسليماً تدخل في دائرة الدين الإسلامي.

بناءً على ذلك، يكون الانقياد الطوعي للدين الإسلامي على اختلاف ملله، مسألة فردية بحتة بحيث تبقى مسألة الدين علاقة خاصّة بين الإنسان وربّه وتتسم بطابع الاختيار عن دراية وإدراك والتزام شخصي دون إكراه من قبل أيّ طاغوت مهما كان، لذا قال الله عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ (الروم ٣٠)، أي إن الدين فطرة في الإنسان خُلق عليها تمكّنه من أن يدرك وحدانية الله ويقتنع بذلك من خلال تدبّره في ملكوت الله وفي نفسه، ويدرك القيمة المعيارية للقيم الإنسانية التي جُبل عليها من حبّ للخير لبناء مجتمع متمدّن، بالامتثال طواعيةً لها بكلّ حرّية بروح مسؤوليّة عالية. فالله خلق الناس عباداً له يعبدونه بملء حرّيتهم أمّا الطاغوت فيريد أن يجعل منهم دائماً عبيداً له بالإكراه، وأيّ سلطة تأخذ شرعيتها من الدين تُعدّ سلطة طاغية. وهنا يكمن الفرق بين الإيمان بالله عن حرّية واتباع الطاغوت بالإكراه، لهذا نحتاج لأن نفهم الفرق بين العبادية والعبودية لندرك بعدها الفرق بين أن نكون عباداً لله وبين أن نكون عبيداً للطاغوت.

٢- الحرّية أساس العباديّة

تجمع المعاجم اللغوية العبد على عباد، وتجمعه على عبيد. لهذا نجد هذه المعاجم تضع فعل "عبد" من أفعال الأضداد، لأنه يحتمل معنيين أي يحتمل معنى الطاعة ومعنى الرفض. وهكذا فإن خاصّية التضادّ في فعل "عبد" تضعنا أمام أول فرق بين معنى "عبد الرق" ومعنى "عبد الله"، فعبد الرق طاعته إجبارية لسيّده إذ لا يحقّ له عصيانه، وخضوعه لسيده يكون بالإكراه ولا خيار له في قبول طاعته أو رفضها، وعبد الرق يُجمع على "عبيد". أمّا عبد الله فيحمل الضدّين معاً أي له حرّية طاعة الله أو معصيته بكلّ اختيار بحرّية مسؤولة ويُجمع على "عباد الله"، ونرى ذلك واضحاً في العديد من الآيات كقوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام ١٨)،
- ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر ٤٩)،

- ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾ (الزمر ٥٣)،
- ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ (ابراهيم ٣١)،

من الواضح في الآية ١٨ من سورة الأنعام أنه سبحانه عزّ وجلّ يتحدث عن عباد الله أي عباده عموماً، أمّا في الآية ٤٩ من سورة الحجر والآية ٥٣ من سورة الزمر فإنه يتحدّث عن عباده العصاة، وأمّا الآية ٣١ من سورة إبراهيم فإنه يخاطب عباده المؤمنين به المطيعين له. ونخلص من ذلك إلى القول بأن الله عزّ وجل في كتابه الحكيم حين يذكر العباد والعابدين، فهو إنّما يعني العصاة والمطيعين، الرافضين والخاضعين على حدّ سواء. وذلك واضح في كثير من الآيات، كقوله تعالى:

- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر ٤٨)،
- ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ...﴾ (ق ١٠-١١).

فالعبد (عبد الله) هو الإنسان المخيّر، الذي توجّه إليه الأوامر الإلهية، فإما أن يطيعها وإمّا أن يعصيها. فإن أطاع فهو عبد طائع، وإن عصى فهو عبد عاصٍ، لكنه لا يخرج أبداً عن كونه عبداً لله سواء في الطاعة أو المعصية، لهذا أمر الله تعالى عباده بطاعته وعبادته كما في قوله:

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات ٥٦)،
- ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (مريم ٣٦).

لقد جاء فعل العبادة هنا، وفي الكثير من الآيات الأخرى، بمعنى الطاعة والامتثال للأوامر، مع بقاء إمكانية المعصية موجودة وممكنة. وجاءت رسل الله تعالى تدعو إلى عبادته سبحانه طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء ٧). وهؤلاء

الرسل أنفسهم، لم يخرجوا في طاعتهم لأوامر الله عن كونهم عباداً يهدون بأمر الله العباد العصاة إلى سواء السبيل، وذلك واضح في قوله تعالى:

- ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم ٢، ٣)،
- ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص١٧)،
- ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص ٣٠)،
- ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ...﴾ (ص٤١)،
- ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (ص ٤٥)،
- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...﴾ (الإسراء ١).

فكان من المنطقي، والرسل يدعون أقوامهم إلى عبادة الله، وطاعة أوامره والانتهاء عن نواهيه، أن يُسأل هؤلاء: وكيف نعبد الله؟ وما هي الأوامر والنواهي التي إن خضعنا لها ولم نستكبر عنها، حققنا العبادة المطلوبة منا؟ ونعود إلى نصوص كتاب الله لنستقرئ الجواب:

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة ٥-٦)،
- ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس ٦١)،
- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ (المؤمنون ٧٤)،
- ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا...﴾ (الأعراف ٨٦)،

حتى نربط ما جاء في هذه الآيات، وما ذكرناه سابقاً في العمل الصالح، نقول بأنّ الصراط المستقيم هو طريق الله وسبيله، وأنّ السير فيه وعليه هو العبادة بمعنى العبادية أي عن اختيار وقناعة. ويمثّل الصراط المستقيم الوصايا أي القيم الإنسانيّة التي بدأت بنوح، وتراكمت على أيدي الأنبياء والرسل، واكتملت بمحمّد (ص) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ

وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام ١٥٣)، فالمحرّمات والأوامر والنواهي الإلهية تمثل الصراط المستقيم، وقد جاءت مرتبة متراكمة من الناحية التاريخية. لكن هناك سؤال مهمّ قد يخطر على بال أيّ واحد منّا: إن كان العباد من العبادة، وقد أسلفنا شرح ذلك، وإن كان مفردها (عبد)، كما قلنا، لا علاقة له بموضوع الرقّ مطلقاً، فمن هم العبيد والإماء الوارد ذكرهم في كتاب الله؟

نبدأ القول إن مصطلح "عباد" كما ورد في التنزيل الحكيم يشمل الذكر والأنثى، ولا يقتصر على الذكور فقط. وذلك واضح في قوله تعالى:

- ﴿... وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (غافر ٣١)،
- ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة ١١٨)،
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر ٣٩-٤٠)،
- ﴿... وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (الإسراء ١٧).

على ألّا ننسى ما سبق أن قلناه، من أن العباد في جميع هذه الآيات هم العصاة والطائعون من ذكور وإناث من الناس دون فرق بينهم. ونسأل مرة أخرى: فأين الرق والعبودية إذاً في كتاب الله؟ ونعود إلى نصوص كتابه عزّ وجلّ لنجدها تتحدّث في آية وحيدة فقط عن الرقّ والعبد المملوك في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل ٧٥). لقد وصف تعالى العبد المملوك في الآية بأنه الذي لا يقدر على شيء، أي الذي فقد القدرة على الاختيار بين نعم ولا. وقارنه بمن رزقه فأنفق، أي بمن ملك القيومية على رزقه، وملك الحرّية بالتصرّف في إنفاقه بالوجوه التي يختارها. وذلك ليؤكد أن الله خلق العباد أحراراً، وأن العبودية والرق من صنع الناس.

ومن هنا نفهم أن التنزيل الحكيم لم يقرّ الرقّ والعبودية، ولم يعترف به، كما يحلو للبعض أن يتوهّم.

لقد رأينا التنزيل الحكيم يجمع عبد على عباد، ورأيناه يعني بذلك الذكور والإناث الطائعين والعصاة، فكيف جمع التنزيل العبد المملوك ذكراً وأنثى؟ ويجيبنا التنزيل نفسه عن السؤال: الجمع هو العبيد. لقد ورد مصطلح العبيد (جمع عبد مملوك وأمة مملوكة) خمس مرات من آيات كتاب الله، فلننظر في الآيات الخمس مع سياقها:

- ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران ١٨١-١٨٢)،
- ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (الحج ٩-١٠)،
- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت ٤٥- ٤٦)،
- ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق ٢٨-٢٩).

عند مقاربة الآيات الخمس مع سياقاتها، نلاحظ ما يلي:

١- **ذوقوا عذاب الحريق ====> وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد**

٢- **ونذيقه عذاب الحريق ====> وأن الله ليس بظلّام للعبيد**

٣- **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليهـا ====> وما ربّك بظلام للعبيد**

٤- **ما يبدّل القول لديَّ ====> وما أنا بظلّام للعبيد**

إنّ أول ما نلاحظه عند ترتيل الآيات، أنها تتحدّث عن يوم الحساب ويوم

القيامة ومرحلة ما بعد الموت، ونفهم في ضوء هذه الملاحظة الأمور التالية:

أ- الناس عباد لله في الدنيا، عبيد لله في الآخرة.

ب- يفقد الإنسان بموته القدرة على الاختيار، فيصبح عبداً مملوكاً لله لا يقدر على شيء (الملك يومئذ لله).

ت-لا عبادة يوم القيامة، وبالتالي فالناس يوم الحساب ليسوا عباداً، بل عبيد، لأن العبادة مطلوبة من العباد في الدنيا.

ث- في الدنيا هناك حرّية اختيار بين الطاعة والمعصية، أما في الآخرة فهناك سَوق فقط لا خيار فيه بدليل قوله تعالى:

- ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة ٣٠)،
- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ (الزمر ٧١).
- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا...﴾ (الزمر ٧٣).

ج- يوم القيامة هو يوم الحساب ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...﴾ (فصلت ٤٦)، وليس فيه تكاليف ولا أوامر تطاع وتُعصى، وليس فيه صلاة ولا صوم.

إذا فهمنا هذا كله، فهمنا بعده أنّ العباد القادرين على الاختيار بين الطاعة والمعصية في الحياة الدنيا فقط، أمّا في الآخرة فالكلّ عبيد بمن فيهم المطيع والعاصي، لأنهم جميعهم لا يقدرون على شيء يومها، ولا يحتاجون إلّا إلى محاكمة عادلة، فجاءت الآيات تطمئنهم إلى عدل الله المطلق الذي لا يظلم العبيد أمامه مثقال ذرة ممّا عملوا من عمل صالح في الدنيا باختيارهم لمّا كانوا عباداً وقبل أن يصبحوا عبيداً. انطلاقاً من هذا الفرق بين الوضعين نستطيع أن نقارب بين قوله تعالى عن العباد في الدنيا: ﴿... وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (غافر ٣١)، وقوله عن العبيد في الآخرة: ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران ١٨٢، الأنفال ٥١). ونستطيع أن نستنتج أن الحكم والمحاكمة يوم الحساب لا تكون إلا على أفعال عباد كانوا أحراراً مختارين بملء إرادتهم،

ولم يكونوا عبيداً لا يقدرون على شيء، وإلّا فالمحاكمة لا معنى لها وذلك بدلالة قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ (غافر ٤٨)، أمّا لحظة المحاكمة فهم عبيد لا يقدرون على شيء لأن الحياة هي دار العمل والآخرة هي دار الجزاء، إذ يتحوّل الناس يوم المحاكمة والحساب من عباد إلى عبيد، فتُجزى كلّ نفس بما كسبت، ويجدون ما عملوا حاضراً، ثمّ يصدر الحكم، فيُساق الجميع إلى حيث حكم الله، الذين كفروا إلى جهنّم، والذين اتّقوا ربّهم إلى الجنة. بعد ذلك كله يتحوّل أصحاب الجنّة من عبيد إلى عباد ولكن بدون أوامر وتكاليف هناك. وهذا واضح في وصف التنزيل الحكيم لأهل الجنة:

- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (الأنفال ٥٠-٥١)،
- ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان ٦)،
- ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ (يس ٥٧)،
- ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق ٣٥)،

هذه الآيات تبيّن أنّه بعد المحاكمة يبقى أصحاب الجحيم عبيداً كما جاء في الآية ٥١ من سورة الأنفال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، لأنهم يصبحون هناك خاضعين للعذاب بالإكراه، ويصبح أصحاب الجنّة عباداً أي أحراراً ينعمون في الجنة بما يشاؤون، لكن حرّية الجنّة تختلف عن حرّية الحياة الدنيا، لأن الأولى ترتبط بالمساءلة على الأعمال التي يقوم بها الإنسان فيها أما حرّية الجنة فلا مساءلة عليها لأنه ليس هناك تكاليف وأوامر ونواهٍ يلتزم الإنسان بممارستها وطاعتها.

يهمّنا، في هذا المقام الحديث، عن الحرّية في الحياة بحيث نفهم ممّا سبق أنّ الحرّية أي حرّية الاختيار، هي النعمة الكبرى التي أنعم الله بها على الإنسان،

وليس لأحد الحق في أن ينتزعها منه، ونفهم أنّ الله طلب من الناس أن يعبدوه دون غيره، وأن يكونوا عباداً له دون غيره، يعصونه إن اختاروا العصيان، ويطيعونه إن قرّروا الطاعة بملء إرادتهم، ويبقون في الحالين عباده، وقد بدأ آدم بالتعبير عن عباديّته لله في المعصية لا في الطاعة. من هنا جاء التأكيد من جمع الرسل والأنبياء أولاً وقبل أي شيء آخر على التوحيد، وعلى عدم إشراك شيء مع الله الذي منحنا هذه الحرّية بالخلق، طاعة ومعصية، لأننا في هذه الحالة نكون قد جسّدنا الله بآخرين، وهذا هو الشرك، فإذا قلنا إن زيداً منح الحياة للناس، نكون قد جسّدنا الله في زيد، وإذا قلنا إن عمراً منح الحرّية للناس، نكون قد جسّدنا الله في عمرو، سبحانه وتعالى عمّا يصفون. ومن هنا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (النساء ٤٨).

أمّا العبودية فلا تكون في الحياة الدنيا إلّا لغير الله بحيث يصبح الناس مستعبدين لا يقدرون على شيء. وقد وصف تعالى الناس في هذه الحالة بالفاسقين، الذين فقدوا القدرة على قول "كلا" وبقيت قدراتهم محصورة بـ"نعم"، وفقدوا بذلك كرامتهم وحرّيتهم، في قوله تعالى عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف ٥٤). هذه هي صفة الطاغوت (النظم الاستبدادية) على مرّ التاريخ، فهو وإن تغيّر في الشكل، فإنّه نفسه في المضمون، يرغم الناس على طاعته بالإكراه ويسلبهم كلّ حرّياتهم وحقوقهم الإنسانية. أمّا المؤمن بالله فهو المؤمن بإنسانيته التي يستمدّ قوته منها بالنهوض ضد الطاغوت والوقوف في وجهه، وبفضل هذا التصدي يحقق الغاية التي خلقه الله لها. فالحرّية إذاً تصرّف (ACT) سواء فعل أو قول يقوم به الإنسان ليبيّن به إنسانيته، باختيار منهج حياة إنساني راقٍ بالتحلي بالقيم الإنسانية، لأنّ العروة الوثقى أو تقاطع الإيمان بالله والكفر بالطاغوت يتجسّد في التصرّف الإنساني لا في تصوره أو شعوره فتبرز حريته وتظهر

في سلوكياته، لأن الإنسان بإرادته الحرة يستطيع أن يتبع الطريق المستقيم. فالحرّية إذاً تصرّف (ACT) يستطيع الإنسان أن يُظهر من خلاله رفضه الخضوع لكلّ الضغوط التي تُمارس عليه لسلبه إنسانيته، وذلك برفضه الخضوع للطاغي ولطغيانه وإيقافه عند حدّه، لأن الحرّية قيمة إنسانية من أرقى القيم، والإنسان مفطور عليها، وهي وسيلته لرفض كلّ أنواع الخضوع والاستعباد، وفي ذلك كمال إنسانيته.

من هنا يختلف الناس حسب اختلاف تصرّفاتهم وقراراتهم التي ينقادون إليها بملء إرادتهم، لهذا جاء قوله تعالى يبيّن هذا الاختلاف الناشئ عن الحرّية الإنسانية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾ (هود ١١٨-١١٩)، فالآية تجعلنا نفهم أن حرّية الاختيار وانقياد الإنسان الطوعي لاختياراته، يولدان الاختلاف بين الناس لهذا قال ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي إنهم ما داموا أحراراً فالاختلاف سيظلّ قائماً بينهم وهذا الأمر طبيعي فهو يولّد الإبداع الخلّاق لدى الإنسان، لأنّ الآية تبيّن أنه لو شاء الله لجعل الناس ينقادون جميعاً لسلوك أحادي وذلك لا يمكن أن يتحقق إلّا بالإكراه، لكنّ الله لم يشأ ذلك، لهذا أعطى للإنسان كامل حرّيته وطلب منه الانقياد للدين بكلّ طواعية واختيار، ومن ثمّ يكون الثواب والعقاب نتيجة اختيارات الإنسان، لأنه لا ثواب ولا عقاب إلّا مع الحرّية التي تُعدّ كلمة الله التي سبقت لكل أهل الأرض كما جاء في قوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس ١٩)، وقد سبقت كلمة الله بجعلهم أحراراً ممّا ينتج الاختلاف بينهم في الخيارات والآراء والتصوّرات للأمور ونظراتهم لها، وطرق تفكيرهم، لهذا قال في سورة هود الآية ١١٩ ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أي خلقهم كي يتمتعوا بكامل حرّيتهم ويختلفوا نتيجة ذلك لتحقيق إنسانيتهم.

٣- أنواع الطغيان التي على الإنسان مواجهتها

إنّ حرّية الاختيار تؤدّي إلى التغير الذي يولّد التطوّر في المجتمعات، ويجب أن يبدأ بالنفس لأنّ الإنسان هو العامل الأساس في تطور المجتمعات. وعملية تطوير النفس تنطلق من تغيير طريقة تفكيرها نحو الأصلح، لأن التفكير الإنساني هو صانع التطوّر الحضاري ومبدعه. لهذا يجب على الإنسان أن يحرص على تطوّر مستواه لتحقيق التطور الحضاري الذي جاءت كلّ الرسالات الإلهية للدعوة إليه. غير أنه قد توجد الكثير من العوائق التي تحيط بالإنسان في مجتمعه وتمنعه من تغيير طريقة تفكيره وتطوير نفسه، وبالتالي تمنعه من تحقيق التطوّر المنشود لمجتمعه. وهذه العوائق التي تقف في وجهه وتسدّ عنه منافذ التطوّر، تختلف حسب اختلاف نوعها لكنها تدور جلها في دائرة الطغيان، وسنشرحها حتى نفهم كيف يمكنها أن تمنع الإنسان عن التطوّر، وبالتالي تسلبه إنسانيته دون أن يشعر، ومن ثمّ تجعله عبداً لها لأنها تجعله خاضعاً لشروطها، ولا يستطيع الإنسان استرجاع إنسانيته المسلوبة إلّا بمواجهتها ليستعيد حرّيته وعباديته لله وحده.

أ- الطغيان العقائدي

هو الاقتناع بأنّ أعمال الإنسان ورزقه وعمره مكتوبة عليه منذ الأزل، وهذا ما يجب أن نرفضه جذرياً. ذلك لأنّ الله سبحانه لم يكتب على زيد منذ الأزل أن يكون غنيّاً، وعلى عمرو أن يكون فقيراً، ولكن يوجد في علم الله منذ الأزل الغنى والفقر كضدّين، أمّا من هو الغنيّ ومن هو الفقير، فهذا غير مكتوب على أحد، بل إرادة الإنسان هي التي تعمل ضمن قوانين ربّ العالمين، والتي تجعل الإنسان غنيّاً أو فقيراً. فالخير والشرّ موجودان في متناول إرادة الإنسان، يتجسّدان في الهدف من أفعاله. وهنا يكمن العدل الإلهي المطلق في الخلق،

فكلّ الأفعال في بنية الإنسان مطواعة له للخير والشرّ على حدّ سواء، والإنسان نفسه هو الذي يسخّرها لهذا أو ذاك، بواسطة ضميره الإنساني.

إن أول ما يجب علينا تغييره في أنفسنا، هو اقتناعنا بأنّ الله لم يكتب الشقاء والسعادة، والغنى والفقر، وطول العمر وقصره على أحد أبداً منذ الأزل، بل وضع النواميس العامّة التي من خلالها يتصرّف الناس بملء إرادتهم وحرّياتهم، وفي هذا يقع الثواب والعقاب والمسؤولية، لأنّ وضع الإنسان أمام احتمال واحد فيه نوع من الإكراه وذلك يتناقض مع مبدأ حرّية الاختيار، ولهذا نجد كلّ الاحتمالات متاحة للإنسان انطلاقاً من هذا المبدأ، وبالتالي فإنّ ما يقع على الإنسان من ظلم واضطهاد ليس مكتوباً منذ الأزل، والذي يضطهدنا ويستعمرنا يفعل ذلك بإرادته الشخصية واختياره الحر، لأنّ الظلم والعدل متكافئان في علم الله تماماً. لهذا نستطيع أن نتغلب على ما في أنفسنا من عقد، وأن نحاسب الآخرين، وأن لا ندع أحداً يضطهدنا ويجوّعنا ويقصف أعمارنا ويذلّنا.

ب- الطغيان الاجتماعي

تقترن سلطة المجتمع بالسلطة التي تفرضها العادات والتقاليد على أفراده، والإنسان في معظم الأحيان مغلوب على أمره أمامها ولا يستطيع رفضها رغم عدم وجود أيّ سلطة رسميّة تفرضها عليه، وإنما تدفعه إلى ممارستها سلطة المجتمع القائمة على قبول الناس لها. وتتفاوت درجات العادات والتقاليد في المجتمع، إذ هناك التقاليد العائلية والتقاليد القبلية ثم التقاليد الاجتماعية في المجتمعات المدنية بمختلف درجات تطوّرها.

مع الإشارة إلى أن أغلب المجتمعات العربية تكون التقاليد العرفية فيها أقوى من الدين، إذ يتم تجاوز تعاليم الدين فيها أحياناً من أجل الخضوع للتقاليد، وقد تتحوّل بعض التقاليد فيها إلى جزء من الدين، ممّا ولد فيها

أنواعاً مختلفةً من الدين، بحيث نجد دين المشرق يختلف عن دين شمال أفريقيا. ونلاحظ هذه الفروقات لدى الجاليات المؤمنة من أمّة محمّد (ص) في البلاد الأوروبيّة والأميركيتين، فالأساس الذي يجمعها جميعاً هو الشعائر لكنها تختلف في التقاليد الدينية.

فالتقاليد الدينية لها تأثّر من منطلق مبدأ الآبائية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة ١٠٤). فالآبائية هي اعتقاد الصواب المطلق في اجتهاد الآباء وآرائهم إلى حدّ يبلغ القداسة، بحيث يفضي اتباعهم وتقليدهم إلى الجمود، مع رفض ومهاجمة كلّ محاولات التجديد ودعوات مراجعة تراث الآباء ونقده. هذه الظاهرة القديمة قدم الزمان وتتابع العصور، كانت على رأس قائمة الأمور التي كلف الرسل والأنبياء بالتصدّي لها، وهي ظاهرة ما تزال عائقاً أمام كلّ من سار على هداهم وتلمّس خطاهم من المجدّدين المصلحين، فما من نبيّ أو رسول إلّا حاربه قومه بحجّة أنه جاء بغير ما ألفوه من قول أو عمل، ومخافة أن يفسد عليهم ميراث آبائهم. وقد تعدّدت الآيات التي تصوّر هذا التدافع بين دعوة الإصلاح وقوى الآبائية كقوله تعالى:

- ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الزخرف٢٣-٢٤)،
- ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٧٨)،

لقد جاء ذمّ هذا المبدأ في الآيتين لأنه يبعث على مهاجمة كلّ من يحاول انتقاده، بحيث يتحوّل التعصب فيه في بعض الأحيان إلى مأساة عندما يحمل طابع العنف والصراع الدموي بين المتعصّبين. لهذا نجد المصابين بمرض "الآبائية" يقدّمونه على الحقيقة لأنّه يتحكّم تماماً في عقولهم ويسيطر عليها.

والعقل العربي المتشبّع بهذا المبدأ حتى أصبح سجيناً له بحيث صار همّه الوحيد منصبّاً في الحفاظ على صورته في المجتمع (IMAGE)، حتى صارت هي التي تحدّد سلوكه فيه، وصار هاجسه الوحيد هو عدم تشويهها بأيّ وسيلة كانت حتى إنه قد ينجر إلى تصرّفات وسلوكيات مخالفة تماماً للمنطق كي يحافظ على صورته في المجتمع. فتتحوّل هذه الصورة إلى التمثال الذي يصنعه كلّ فرد لنفسه ويربط علاقته بأفراد المجتمع من خلاله بحيث يرفض رفضاً مطلقاً تغييرها أو حتى نقدها من الآخر مهما كان. ولهذا يجب على العقل العربي أن يحطم هذا التمثال الذي يسجن نفسه داخله ويتحرّر من فكر "الآبائية" بعاداتها وتقاليدها حتى يستطيع الخروج إلى فضاء التفكير الرحب ويكتسب حرّيته العقليّة كي يتمكن من الشعور بحلاوة التحرّر والثقة أكثر بنفسه.

ت- الطغيان الفكري

إنّ عشرات الآيات الواردة في كتاب الله تحثّ على التعقل والتفكّر، من بينها حثّه عزّ وجلّ على النظر في الأرض ونشأتها في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت ٢٠)، ولو كان مستحيلاً أن يتمكن الناس من النظر في الأرض والسير فيها، ومعرفة بدء الخلق لما أمرهم بذلك. وقد طبق الأوروبيّون هذه الآية وما زالوا يعملون بها حتى اليوم، فتوصّلوا بذلك إلى فهم مسألة بدء الخلق باختراع الكثير من التجهيزات التي ساعدتهم على المعرفة، وعلى التطوّر العلمي والطبّي الهائلين. أمّا نحن فقد تركنا العمل بالآية، واكتفينا فقط بالنظر في كتب السلف، وجعلناها حجّتنا في فهم بدء الخلق، ورفضنا ما توصّل إليه العلماء من نتائج مذهلة، ضاربين بالآية عرض الحائط وكأنّها لا تعنينا.

لقد أسقط هذا الطغيان الفكري، والنظرة الدونية للذات في كلّ مجتمعاتنا،

على كلّ نواحي الحياة، فالطالب يفوّض إلى أستاذه التفكير عنه، حتى غدا المنهج التربوي التعليمي من الناحية التربوية تقليداً أعمى، ومن الناحية التعليمية تلقيناً من الأستاذ للطالب، وغدت الامتحانات ذاكرة حفظية، لا امتحانات فهم للمعلومات وتفاعل معها، مع إهمال أنّ أساس التعليم، هو تعليم الإنسان كيف يفكر، وأنّ القادر على التفكير هو القادر على الإبداع. لقد أصبنا بداء الكسل الفكري في ظلّ هذا النوع من الطغيان، فأصبحنا نفوّض إلى الآخرين التفكير عنّا، ونأخذ ما قالوا دون مناقشة، فالمهمّ عندنا من قال، وليس ماذا قال، لأن فكرنا التراثي مبنيّ على الثقة السماعيّة لا على الحجة العقلية.

ث- الطغيان العلمي

بالنظر إلى قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٢-١٤)،

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر ٢١)،

نتساءل ماذا كتب المؤمنون (أتباع الملة المحمّدية) عن هذه الآيات المختلفة خلال أربعة عشر قرناً:

١- لا نجد في كتب التراث كلها الحديث عن آيات خلق الإنسان، سوى بضع صفحات فيها كثير من الوهم العلمي، علماً بأنّ أيّ عالم من علماء الأجنّة، يرى فيها صورةً كاملةً لتطوّر الجنين في رحم الأم، ويقبلها كحقيقة علمية موضوعية. فإذا استعرضنا ما كُتب عن هذا الموضوع في العالمين الغربي

والأميركي خلال النصف الأخير من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، نجدها مئات المجلدات، كلّ ما فيها ضروري ومفيد لتطوّر علم الأجنّة وعلم الطبّ الخاصّ به.

٢–آية الينابيع والزرع في سورة الزمر، فيها علمان من أكبر العلوم وأعقدها، هما علم المياه الجوفية (الهيدرولوجيا) وعلم أصل وتطوّر النبات (بوتاني)، لا يحوي التراث عنهما سوى القليل من الصفحات معظمها خطأ، ونرى في المقابل مئات المجلدات التي كُتبت عن هذين العلمين في القرنين العشرين والواحد والعشرين في العالمين الغربي والأميركي، وكلها ضرورية ومفيدة لتطوّر هذين العلمين.

يتبيّن لنا من ذلك نقطة التخلف التي نعاني منها، وهي طغيان العلم التراثي على فهمنا لكتاب الله. وعندما تمرّ الأجيال المتعاقبة بهذه الحالة، تصاب بداء الجهل المطبق، وتفقد ملكة المحاكمة العقلية وملكة التفكير، لأن العلوم تحتاج إلى فكر ومحاكمة عقلية هي مفقودة لعدّة قرون في تاريخنا، فخبا معها الفكر العربي ونام. لهذا نرى أننا بحاجة إلى إعادة النظر في مدى صلاحية أدوات المعرفة المستعملة لدينا باستعمال أدوات معرفية جديدة للقرن الواحد والعشرين، تمكننا من فهم نصوص كتاب الله فهماً صحيحاً، حتى نؤسّس، يالاعتماد عليها، فكراً معاصراً يتماشى مع التطوّرات العلمية الجديدة. وهذه هي المعركة الكبرى التي على الأجيال القادمة أن تخوضها، لأنّ سرّ التقدّم الفكري يكمن في هذه النقطة بالذات، أي بوجوب إدخال أدوات المعرفة المعاصرة في فهم كتاب الله، لتحديث طريقة تفكير العقل العربي، وهذا هدف يستحق التضحية من أجله.

ج– الطغيان السياسي

جاء فرعون في كتاب الله لقباً وليس اسم علم لشخص بعينه، وجاء مرتبطاً

بالطغيان السياسي والانفراد بالسلطة، فمقوّمات هذا الطغيان والانفراد هي: ادّعاء الربوبية، وادّعاء الألوهية، وبإسقاط هذه المقوّمات على العصر الحالي نجدها متوفرة في القائد الذي يظنّ نفسه خالداً وغير قابل للنقد والمراجعة وكلّ شيء يتمّ تحت مظلته من ناحيتين اثنتين:

١- ادّعاء الربوبية كما في قوله تعالى: ﴿... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات ٢٤)، وقوله: ﴿... يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف ٥١)، بحيث يدّعي لنفسه صفات الربوبية التي وردت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (البروج ١٢-١٦).

٢- ادّعاء الألوهية كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ (القصص ٣٨)، ففرعون يدّعي صفة الألوهية التي جاءت في قوله تعالى: ﴿... أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (الكهف ٢٦).

فالحاكم المتألّه يبدأ بالادّعاء أن كلّ البلد ملك شخصي له، ويتصرّف على هذا الأساس ﴿... أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ...﴾ (الزخرف ٥١) ثمّ ينتقل إلى التصرّف على أساس أنّ الناس ملكه أيضاً، تمهيداً للادّعاء الثاني وهو ادّعاء الألوهية، الذي يختصّ بالعاقل فقط كما في قوله: ﴿... يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ (القصص ٣٨)، ليصل إلى ادّعاء ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء ٢٣). فالألوهية تتضمّن الطاعة الكاملة من الناس لفرعون، بألا يتصرّفوا بشيء بقناعتهم الشخصية دون إذن منه، لذا قال فرعون للسحرة: ﴿... آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾ (الأعراف ١٢٣) وأنزل بهم العقوبة بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف ١٢٤)، لا لأنهم آمنوا بربّ موسى وهارون، بل لأنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم. وهذا ما يفعله الدكتاتور عندما يشتدّ عليه

الضغط للقيام بالإصلاحات في المجتمع، وذلك بالسماح بوجود معارضة على شرط أن تتقيّد بشروطه التي يضعها لها، مع وجود دستور يوضع بإرادته وبمقاسه، بحيث ينتقل الحاكم الطاغي إلى البطش والإعدام عند حصول تمرّد عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر ٢٥-٢٦). هذا النوع من الطغيان لا يجوز السكوت عنه، لأنه يحتقر حرّية الإنسان وكرامته، ويمنعه من الحصول على حقوقه وحرّياته المشروعة، ويجعله يخضع له بالإكراه لفرض سيطرته عليه.

ح- الطغيان الاقتصادي

تجسّدت ظاهرة الطغيان الاقتصادي في شخصيّة "قارون" كما وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿... وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ...﴾ (القصص ٧٦). فالظاهرة القارونية (الطغيان الاقتصادي) ليس لها وطن ولا قومية، بحيث كان قارون من قوم موسى لكن ذلك لم يمنعه من أن يطغى عليهم، وهذه سمة الشركات الاحتكارية العالمية سواء ذات الجنسية الواحدة أو المتعدّدة الجنسيات. فالقارونية لا علاقة لها بالغنى الوطني (البروجوازية الوطنية) التي تؤدّي دوراً إيجابياً في تطوّر المجتمع واقتصاده. وخير مثال على الظاهرة القارونية: احتكارات النفط، والكمبيوتر، والسيّارات، والتعدين... التي ليس لها وطن، بل هي متعدّدة الجنسيّات تضع الدول وأجهزتها في خدمتها. لهذا يجب أن تُفهم الظاهرة القارونية حتى نتمكّن من عدم الخضوع لطغيانها، مثلاً الشركات والمصارف الأميركية- اليابانية والأوروبية التي تحكم العالم عملياً، داخل بلادها وخارجها.

إنّ الفارق بين الدين والطاغوت بكلّ أنواعه، يتجلّى في أنّ الدين يتدخل في

حياة الناس برغبتهم، أمّا الطاغوت فيتدخّل فيها بالإكراه وفي المقابل يمنعهم من التمتّع بحقوقهم الإنسانية، لأنّ الدين يرتبط بحياة الأفراد الشخصيّة من باب العبادية فقط لا العبودية أي من باب حرّيتهم الشخصية واختيارهم الكامل لا من باب الإكراه، ولأنّه كذلك فهو صاحب الحق الوحيد في التدخّل في حياتهم بكامل إرادتهم ورغبتهم، ولا يحقّ لأيّ طرف آخر التدخّل فيها مهما كان. ويصبح بذلك الضمير الإنساني هو المتحكّم الوحيد في زمام أمور الإنسان وضابطاً له عن اختيار كامل منه بإرادة مسؤولة، بالقيام بالعمل الصالح والتحرّر من كلّ قيود التبعيّة (العبوديّة) سواء للشهوات والغرائز أو لأيّ نوع من الضغوط والإغراءات اللاأخلاقية، من خلال تعبيره عن رفضها لأنها منافية للقيم الإنسانية. وعندما يختار الإنسان الالتزام بالدين الإسلامي مهما كانت الملة الدينية التي ينتمي إليها، عن طواعية، يلتزم بمحض إرادته باتباع القيم الإنسانية فتظهر حرّيته الشخصية في القيام بالعمل الصالح الذي من خلاله يعيش إنسانيته بما تحبّه من خير وصلاح. وما دامت الحرّية تصرّف (ACT) فإن التعبير عنها بإيجابية من خلال العمل الصالح الذي فيه خير للإنسانية لما يتضمّنه من قيم نبيلة هو قمّة الإنسانية التي يحبّ الإنسان أن يرتقي إليها بواسطة أفعاله، لأنّ حرّية الإنسان يجب أن تتجسّد في القيام بالعمل الصالح الذي يُعدّ رمز الحرّية الإنسانية.

٤- عقدة الذنب

الإسلام دين يتّسم بالرحمة والشمول ويتجلى في تعاطي الناس به بعضهم مع بعض من خلال القيم الإنسانية المطلقة غير القابلة لأن يتاجر بها أحد مهما علا مقامه. هذه القيم ليست بحاجة لأن تفرض على الإنسان بالإكراه، والإنسان بذاته ليس بحاجة لمن يكرهه عليها ويرغمه على ممارستها لأنها الجوهر الخالص من إنسانيته، فالجوهر الإنساني الراقي فيه يدفعه إلى القيام بالعمل الصالح، وذلك

يشعره بالرضى عن نفسه وعن سلوكياته. وهذا الشعور الإيجابي يكون حافزاً له للتقدّم في حياته بإيجابية فيكون راضياً عن نفسه من جهة، ومساعداً لغيره من جهة أخرى وتلك هي السعادة النفسية التي يتمنّى الوصول إليها كلّ إنسان. لكن أحياناً يتصرّف الإنسان تصرّفات مخالفة للقيم الإنسانية، فيدخل هنا عامل الشعور بالذنب وتأنيب الضمير عند اقتراف هذه التصرّفات، وأحياناً يصل به الشعور بعقدة الذنب إلى حدّ العيش في حالات نفسيّة صعبة تصل به إلى حد الكآبة أو قد تدفعه إلى ارتكاب أفعال غير صائبة نتيجة حالته النفسية المضطربة بسبب الشعور بعقدة الذنب. لذا نحن بحاجة إلى أن نفهم ما معنى الذنب في كتاب الله، وما الفرق بينه وبين السيّئة، ونفهم العلاج الذي قدّمه لنا كتاب الله لهذا النوع من الحالات حتّى نتمكّن من العيش في تناغم مع أنفسنا ومجتمعاتنا والاستمرار في العيش بإيجابية رغم ما قد نقترفه من أخطاء أو زلّات في حياتنا.

فقد ورد الذنب، بمختلف اشتقاقاته، في ٣٩ موضعاً من كتاب الله، نلاحظ منها ثمانية عشر موضعاً يرتبط فيها الذنب بالمغفرة، كما وردت السيّئة، بمختلف اشتقاقاتها، في ستين موضعاً من التنزيل الحكيم، نلاحظ منها خمسة عشر موضعاً ترتبط فيها السيّئة بالتكفير. ونلاحظ أيضاً أنّ العكس غير صحيح، فالذنب لم يرد أبداً مقترناً بالتكفير، والسيّئة لم ترد أبداً مقترنة بالمغفرة، بل رأينا التنزيل يجمع الذنب والمغفرة والسيئة والتكفير في قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران ١٩٣). من هذا كله، نمضي إلى شرح الذنب والسيّئة، كما فهمناهما في التنزيل الحكيم بالبدء بالذنب والمغفرة.

أ- الذّنب والمغفرة

جاء الذّنب في اللغة بمعنيين: "أحدها الجُرم، والآخر مؤخّر الشيء"، وقد وردت كلمة "الذّنب" في نصوص كتاب الله تحمل المعنيين معاً، بحيث رأينا

سابقاً أنّ الجرم هو قطع الصلة بالله نهائيّاً عن قناعة وقصد وهو ضدّ الإسلام، لكنّ الذنب لا يعني قطع الصلة نهائياً بالله عن قصد بل هو اقتراف عمل فيه معصية أي قطع الصلة بالله عن غير قصد، أي إنّ المذنب ليس كالمجرم لأنّ المجرم يقطع صلته نهائياً بالله عن اقتناع، فلا يؤمن بالله ولا يحترم القيم الإنسانية عمداً بل يتجاوزها عمداً، لكن المذنب يقترف عملاً يفسد به صلته بالله. فإذا ارتكب إنسان الفاحشة التي حرّمها الله، فإنّه لا يقطع صلته بالله نهائيّاً كالمجرم، فالمذنب لا يقصد ذلك ولكنّه بارتكابه المعاصي يفسد صلته بالله. من هنا نقول إنّ التصرّفات التي فيها تجاوز على محرّمات الله وأوامره ونواهيه تُعدّ ذنوبا.

أمّا السيّئة فقد جاءت لغة من فعل سوأ بمعنى "القبح"، بحيث نقول رجل أسوأ أي قبيح، وامرأة سواء أي قبيحة. والسيّئة من الإساءة وهي عمل غير صالح كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية ١٥). لكنّ الله عزّ وجلّ لا يخضع للإحسان ولا للإساءة لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا...﴾ (الإسراء٧)، بل يُعبد طاعةً ومعصيةً بحيث يُعصى باقتراف الذنب في حقه تعالى بانتهاك محرّماته ونواهيه. وهكذا علينا أن نفهم أنّه ليس هناك سيّئة دون ذنب وقد يكون هناك ذنب دون سيّئة، فأمّا الحالة الأولى فتتمثّل في أنّ ارتكاب تصرّف محرّم ضدّ أيّ من المخلوقات الأخرى كإنسان أو حيوان، هو إفساد لصلة الإنسان بالله من جهة واقتراف لأمر سيّئ في حق مخلوق آخر من جهة أخرى كارتكاب محرّم البغي بغير حق كالسرقة، والحالة الثانية تتمثل في ارتكاب محرّم من محرّمات الله أي ارتكاب معصية في حقّه دون المساس بالمخلوقات الأخرى وحقوقهم كالشرك بالله وأكل الميتة...

بناءً على ذلك، فإنّ الذنب المرتكب في حق الله قابل للمغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر ٥٣). وقد شرحنا سابقاً أنّ كلمة "عبادي" الواردة في الآية تتضمّن كلّ عباد الله، الطائعين منهم والعصاة في حالة توبتهم. ونفهم في ضوء ذلك، أنّ الله سبحانه يخبرنا بأنّ كلّ الذنوب المرتكبة بحقه قابلة للمغفرة بدليل قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ...﴾ (غافر ٣)، باستثناء ذنب واحد لا يمكن غفرانه هو الشرك، ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ (النساء ٤٨ و١١٦). بهذا المعنى خاطب سبحانه عزّ وجلّ رسوله الكريم قائلاً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ...﴾ (الفتح ١–٢)، بحيث يبدو واضحاً من الآية أنه تعالى يغفر سلفاً لرسوله الكريم ما تأخر من ذنبه، أي ما سيقع منها بعد نزول الآية، ويبدو واضحاً أيضاً وهو العادل أنه يقصد الذنوب المحصورة بالعلاقة بينه سبحانه وبين رسوله، وأنّه لا يعني الإساءات التي للآخرين حقوق فيها، إذ عندما أساء النبي الكريم لابن مكتوم بإعراضه عنه، نزل الوحي بسورة معاتبة هي سورة عبس وفيها عاتب سبحانه نبيّه على السيّئة التي ارتكبها في حق الأعمى، وهذا الأمر يقودنا إلى الحالة الثانية وهي حالة اقتران الذنب بالإساءة التي يجب توضيحها لأهمّيتها في علاقات الناس في ما بينهم.

ب- السيئة والتكفير عنها

قلنا إنّ السيئة تكون بين الإنسان والمخلوقات الأخرى، عاقلة وغير عاقلة، فقد يسيء الإنسان إلى إنسان آخر، وقد يسيء إلى المخلوقات الأخرى في الطبيعة (تعذيب البهائم، قطع الغابات، تلويث المياه...)، أمّا أن يسيء الإنسان إلى الله، فهذا محال. فإذا غشّ زيد عمراً، فقد أساء إليه، وارتكب بحقه سيّئة لا تزول إلا بإصلاح آثار الإساءة، وعليه فإن للسيئة جزأين: جزءاً متعلقاً بالله، وجزءاً متعلقاً بالآخرين. فأما بالنسبة للجزء المتعلق بالله فيتمثل في ارتكاب

أحد المحرّمات أو النواهي فيكون دواء هذا الجزء من السيئة التكفير عنها لقوله تعالى: ﴿... وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (القصص ٥٤)، أي أن يُكفَّر عنها لأنها تُعدّ ذنباً في حقّ الله، والتّكفير من فعل كفر، ومعناه لغة "التغطية مع سابق علم"، يقابلها في الإنجليزية (cover) ويمكن أن نفهم التغطية بالمثال التالي:

إذا أراد شخص استيراد سيّارات من اليابان، فأول ما يفعله بعد الاتفاق مع الشركة الصانعة على المواصفات والعدد وجدول التسليم، أن يفتح اعتماداً لدى المصرف ويُعلم الشركة بذلك، فترسل السيارات المطلوبة، وتذهب إلى المصرف لتقبض حقها. ويعطي المصرف للمشتري تغطية (cover)، ويكفله أمام الشركة الصانعة، ويتعهد بتسليم حقوق الشركة عنه. هذا بالضبط معنى قوله تعالى﴿...يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾، إذ معنى الآية أنه كي يكفر الله عنّا سيّئاتنا يقابلها بحسناتنا بمعنى أن حسناتنا تغطي عنّا سيئاتنا، لكنّ هذا التكفير يكون في الآخرة فقط أي يوم الحساب، إذ نلاحظ في المحاكم أن أوّل سؤال يسأله القاضي للمتّهم أمامه: هل تقرّ بذنبك؟ تماماً مثل يوم القيامة، حيث لا يدخل أحد جهنّم إلّا بعد اعترافه بذنبه، الذي ورد بقوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك ١١)، أي إنّ التكفير عن ذنوب الإنسان يكون يوم القيامة بحيث هناك يصبح ميزان الحسنات والسيئات عند الله غير متساوٍ، فهو يجزي الحسنة بعشر أمثالها، ويجزي السيئة بمثلها، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام ١٦٠). فإذا كان تكفير الله عزّ وجلّ عن ذنوب الإنسان وسيّئاته يتحقّق يوم القيامة، فكيف يجري التعامل معها في الحياة الدنيا؟

الحقيقة التي لا يجب أن ننكرها هي أنّ حياة المجتمعات الإنسانية في الدنيا مبنيّة على القوانين والتشريعات التي تضمن للناس حقوقهم، وبالتالي إذا ألحق

إنسان بإنسان سيّئة فإن القانون هو الذي يحكم بينهما على حسب نوع السيئة كشهادة الزور مثلاً. لكن هناك نوع من السيئات ليست عليه عقوبات قانونية كالغيبة مثلاً، وفي هذا النوع يكتفي الإنسان المسيء بطلب الاعتذار ممن أساء إليه، وفي المقابل على من أسيء إليه قبول الاعتذار لقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى ٤٠)، إذ لا يكفي التوبة إلى الله دون طلب الاعتذار ممّن أسأنا إليه، وإذا أمكننا إتباع الاعتذار بالإحسان إليه كان ذلك أحسن لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود ١١٤).

الآن علينا أن نفهم معنى الخطيئة كما جاء في كتاب الله والفرق بينها وبين الذنب حتى نفهم لماذا يُكفَّر عن الذنب ولا يُكفَّر عن الخطيئة من الله. لقد قلنا سابقاً إنّ الذنب يكون عن غير عمد ولهذا يشعر الإنسان بعقدة الذنب لأن ضميره الإنساني يرفض هذا الأمر ويستنكره، وهنا يأتي دور التوبة التي تكفّر ذنب الإنسان لأنّ توبته تعني اعترافه بفعلته بكلّ شجاعة أمام الله والناس وبالتالي رفضها والحرص على عدم الوقوع فيها ثانية، فالحسنات تكفّر عن السيّئات عند توبة الإنسان عن السيّئات. أمّا إذا لم يتب عن ذنبه أو سيّئته وأصّر عليهما فيتحوّل كلّ منهما إلى خطيئة، وبناءً على ذلك فإن الخطيئة معناها ارتكاب الذنب أو السيّئة والإصرار عليها، ونجد هذا المعنى للخطيئة في قوله تعالى:

- ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة ٨١)،
- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (النساء ١١٢).

وبما أن إخوة يوسف كادوا له عمداً وبإصرار فقد قالوا:

- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف ٩١)،
- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف ٩٧)،

نلاحظ هنا كيف أتبعوا قولهم (ذنوبنا) بقولهم (خاطئين)، أي إنهم أساؤوا ليوسف عن سابق إصرار ووعي ولم يتوبوا ولم يحاولوا إصلاح تصرّفهم فكانوا خاطئين. فالذي يرتكب ذنباً أو سيّئة عن إصرار دون أن يتوب أو يصلح تصرّفه، له جزاؤه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة ٣٦–٣٧)، كما هو شأن قوم نوح لمّا عاندوه، وكذبوه وجادلوه عن إصرار: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا...﴾ (نوح ٢٥). أمّا الخطأ غير المقصود، بمعنى الذنب أو السيّئة غير المتعمّدة فقد جاء في قوله تعالى:

- ﴿... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب ٥)،
- ﴿... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا...﴾ (البقرة ٢٨٦)،
- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً...﴾ (النساء ٩٢)،
- ﴿... وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ...﴾ (البقرة ٥٨).

إن الخطيئات هي الذنوب والسيئات عن إصرار ودون توبة، أما الخطايا فهي الذنوب التي تتبعها التوبة والإصلاح. وقد وردت الخطايا بهذا المعنى في خبر سحرة فرعون، إذ آمنوا بألوهية فرعون وربوبيته طمعاً بمكافأته، لكنّهم لمّا واجهوا موسى وشاهدوا ما شاهدوا، عرفوا أنّهم على باطل وأن موسى على حقّ، فآمنوا بربّ موسى وهارون قائلين:

- ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا...﴾ (طه ٧٣)،
- ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء ٥١).

هذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام ٥٤)، وقوله : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ...﴾ (النساء ١٨). وهكذا فإن قانون "الحسنات يُذهبن السيئات" مفتوح أمام الذين يرتكبون الخطايا ثمّ يتبعون السيئة بالحسنة مع نيّة صادقة في التوبة إلى الله، وليس على الذين يصرّون على ارتكاب الخطيئات.

ت- الحسنات يُذهبن السيّئات

ذكر الإحسان في قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾ (البقرة ١١٢). فما هو الإحسان وكيف نفهم قوله تعالى ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾؟

بما أنّ الإحسان جاء بمعنى ضد الإساءة لغةً، فهو في علاقة جدلية معها، والمطلوب من الإنسان في حياته أن يرجّح كفّة الإحسان على كفّة الإساءة، فالإحسان يكون للنفس، ويكون للغير من المخلوقات. لكنه لا يكون لله كما ذكرنا سابقاً، فهو أعز وأكبر وأعظم وأكمل من أن يُحسَن أو يُسَاء إليه. فنحن كبشر واعين ومسؤولين علينا أن نتعامل مع كلّ عناصر الوجود الأخرى، على أساس الإحسان لا الإساءة. علينا أن نحسن لكلّ الناس وعلينا أن نُتبع السيّئة بالحسنة كي نلغيها، وأن ننطلق في نظرتنا للآخرين من زاوية إحسانهم ونفعهم وعملهم الصالح لا من ناحية شكلهم أو غناهم أو مناصبهم. فالطبيب مطالب بالإحسان في عمله، وكذلك المحامي والمدرّس والعامل والمزارع... حيث إنّ مجالات الإحسان واسعة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- الإحسان إلى الوطن: ويتجلى في الغيرة على الوطن ومحبته، والحرص على سمعته أمام الأجانب، وعلى صناعته وزراعته وحدوده، والتصدّي لمن يعتدي عليه.

٢- الإحسان إلى الآخر: أي أن يحسن الإنسان إلى أخيه الإنسان مهما كانت ملته الدينية، وهناك ممارسات عدّة للإحسان لمن يريد فالغنيّ يحسن إلى الفقير مثلاً. والإنسان يمكنه أن يحسن للآخرين بأيّ طريقة يرى أنه قادر على الإحسان بها كمن يتطوّع في الأعمال الخيرية ومن يتبرّع مهما كان نوع هذه الأعمال...

٣- الإحسان إلى المكان: ويتجلى في نظافته وترتيبه كمكان العمل، ومكان الإقامة، وبالتالي الحارة والشارع والمدينة...

٤- الإحسان إلى الحيوان: وذلك بمعاملتها برفق، وعدم الإساءة إليها، حتى الذبيحة علينا أن نحسن إليها بذبحها بسكين حادّة، فالرفق بالحيوان يدخل تحت باب الإحسان.

٥- الإحسان إلى النبات: وذلك برعاية الأشجار والغابات وعدم إبادتها لأغراض التوسّع السكني، والمحافظة على نظافتها ونظافة المياه الجارية التي تشرب منها.

٦- الإحسان إلى الطبيعة عموماً: وهو ما انتهت إليه الإنسانية اليوم في جميع أقطار المعمورة، حيث انصبّت الاهتمامات على التلوّث بمختلف أشكاله وأنواعه، سواء منه ما يتعلق بالماء أو بالهواء، أو بالأرض. ومكافحة التلوّث تدخل حتماً تحت باب الإحسان.

٧- الإحسان إلى النفس: وهو قسمان، قسم يختصّ بالجسد، أي بالمحافظة على الصحّة، والتزام قواعد الطبّ الوقائي، والعلاج والرعاية في حال المرض، والعناية بالهندام واللباس وقصّ الشعر والأظافر، ما يجعل الإنسان مقبولاً اجتماعياً. وقسم يختصّ بالنفس كنفس، وهو التقوى الفرديّة، وتكون في الطاعات التي تكفّر السيّئات، وتزيد من رصيد الإنسان في مصرف ربّ العالمين. وتكون بإقامة الشعائر (صلاة، صوم، زكاة، حجّ).

هذه كما قلنا أمثلة عن الإحسان، الذي أوجزه تعالى بقوله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾،

والذي تدخل فيه كلّ أنواع النشاطات الدنيوية التي تدخل تحت بند العمل الصالح، والتزامنا بالإحسان فيها لا يعني أبداً نسياننا للآخرة، فالدنيا مزرعة الآخرة، ولولا الدنيا لما كانت الآخرة، ولما انتصب ميزان، ولما قام حساب، وحقّ الثواب والعقاب. فإذا فهمنا هذا صار للحياة طعم ومعنى، وأصبح بإمكاننا أن نشارك في صنع الحضارة الإنسانية، وفي صنع التاريخ.

يجب علينا الانتباه إلى وصف ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الذي جاء في الآية ١١٢ من سورة البقرة: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾، وفي الآية ١٢٥ من سورة النساء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء ١٢٥). ونفهم من آية البقرة أنّ الأجر في الآخرة مرتبط بالإحسان في الدنيا، وأنّ الدنيا فعلاً مزرعة للآخرة، نزرع فيها إحساناً، فنحصده عند ربّنا أجراً. ولما كان تسجيل الحسنات والأجر عند الله فردياً، فقد قال بصيغة المفرد: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، أما عندما قال بصيغة الجمع ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فهي لجميع المحسنين في الآخرة، وأنّ الإحسان في الدنيا لا يعني فقدان الآخرة وبيعها. أما في آية النساء فيقول: ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، ونفهم منها أنها تتكلم عن أيّ ملة دينية مهما كان توجّهها عندما:

يسلم الإنسان فيها وجهه لله + وهو محسن = فهي ملّة دينيّة مقبولة

فالدين بكلّ ملله هو ما دان به الإنسان من أحكام مدنية وأخلاقية، تتجلى بالإحسان انعكاساً على الفرد والمجتمع، وهذا هو معنى الإسلام، الدين الإلهي الواحد الذي جاء من نوح إلى محمّد (ص). فالإحسان في الإنتاج، مثلاً، هو التقيّد بالمواصفات الإنتاجية التي ينطبق عليها قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن ٩)، وهذه المواصفات تتغيّر وتتطوّر مع التقدّم العلمي والتكنولوجي، فمواصفات السيّارة الحسنة في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، تختلف عن مواصفات السيارة الحسنة في العقد

الأخير من القرن العشرين. وبالتالي يمكننا أن نفهم أنّنا إذا طبّقنا المواصفات القديمة على الميزان اليوم لما كنا محسنين، ولما شملنا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، لأن الإحسان يرتبط بالحنيفية في الإسلام التي تراعي تطوّر وتغيّر معنى الإحسان بتغيّر الزمان والمكان.

إنّ من رحمة الرحمات الإلهية أن تذهب الحسنات بالسيئات، ما يجعل باب التوبة مفتوحاً للجميع فتصبح الفرصة لكل من أذنب أو ارتكب سيئة بأن يرجع عن الأمر فيكفّر عن ذلك بحسنة تقابلها وتذهب ما جاء به من سيئة أو ذنب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر ٥٣)، لأن الله برحمته الواسعة يعلم أن الإنسان قد يخطئ وقد يذنب وقد يسيء إلى الآخر لكنه إذا لم يكن متعمّداً فسيشعر بالندم ولأن الشعور بالندم قاتل ما لم يتم إصلاح الأمر للشعور بالرضى، فقد جعل الفرصة قائمة دائمة للتكفير عمّا قد يقترفه الإنسان من ذنوب أو سيّئات. على هذا الأساس نقول بكل اقتناع، إنّ الجنّة أوسع من النار لأنّ رحمة الله أوسع من كلّ شيء آخر: ﴿... قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (الأعراف ١٥٦) لأن العدالة الإلهيّة تقتضي أن يكون سكّان الجنّة أكثر من سكّان النار. وإذا أردنا تقريب الصورة للقارئ الكريم، فإننا نقول إنه يمكننا أن نفهم الأمر على أنّ سكّان الجنّة هم سكان الأرض، وأهل النار هم من في السجون في الأرض جميعاً. فهذه المقاربة تجعلنا نفهم أن الأرض التي مساحتها حوالى ١٢٠ مليون كلم٢، ومساحة السجون بالمقارنة مع مساحة الأرض صغيرة جداً، فالأمر كذلك بالنسبة للجنّة والنار، إذ الجنّة كما وصفت في كتاب الله بعرض السموات والأرض: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد ٢١)، ولا يقصد من العرض هنا المقياس بل هو العرض

بمعنى (EXIBITION)، أي إنّها ستكون يومها معروضة أمامنا كما هي معروضة الآن السماوات والأرض. أمّا جهنّم فقد قال عنها تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (ق ٣٠)، وهذه الآية تبيّن لنا مسألة في غاية الأهمية تتمثّل في أنه لا يمتلئ إلّا الشيء المحدود، ما يبيّن أنّ مساحة جهنّم محدودة مقارنة بمساحة الجنّة، مثلما هو الأمر بالنسبة لمساحة الأرض ومساحة السجون فيها، كما تبيّن هذه الآية أنه رغم محدودية مساحة جهنّم تشتكي إلى الله قلة النزلاء بقولها ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾. وهذا يجعلنا نفهم أنّ أهل الجنّة يوم القيامة هم أكثر بكثير من أهل النار لأن رحمة الله الواسعة اقتضت ذلك وبالتالي لا يجب أن يقنط الإنسان من رحمة ربه كما قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الحجر ٥٦).

هنا علينا أن نطرح سؤالاً مهمّاً: ما دامت رحمة الله وسعت كلّ شيء، وهو عزّ وجلّ مَن بيده المغفرة والعذاب وهو الغفّار لذنوب عباده أو المعذّب يوم القيامة، بينما التشريع الإنساني هو من يقنّن العقوبات في حال اقتراف سيّئات تكون فيه أذيّة للآخرين وللمجتمع، فهل يحق للناس الحكم بعضهم على بعض خارج إطار القانون؟ أي هل يحق تكفير الآخر والحكم عليه؟

٥- قضيّة التكفير

يقول تعالى في كتابه الحكيم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر ٥٣)، لكنه يقول بالمقابل: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء ١١٦). ونفهم مبدئيّاً من الآية الأولى أنّ الذنوب جميعاً قابلة للمغفرة، أمّا الآية الثانية فتبيّن لنا أنّ كلّ الذنوب قابلة للمغفرة إلّا الشرك فهو ذنب غير قابل للمغفرة، هنا نحتاج لأن

نفهم معنى الشرك الذي جاء في كتاب الله لنزيل التناقض الحاصل بين الآيتين.

أ- معنى الشّرك

نجد من أسماء الله الحسنى اسم "الباقي"، وهو اسم حصري لله عزّ وجل لأنه لا أحد يمكنه أن يتّصف بالبقاء عدا الله لأنّ البقاء لله وحده: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن ٢٦-٢٧). وبما أن الشّرك لغة من أصل "شرك" وله في اللغة أصل واحد وهو جعل شيء ندّاً لشيء آخر ومكافئاً له، فالشرك كما ورد في التنزيل الحكيم يحصل عندما توصف الظواهر الطبيعية والاجتماعية بالبقاء أي وضع صفة الأبدية لظاهرة ما مهما كانت، وعدم الأخذ في الاعتبار سنّة التغيّر والزوال التي تصيب هذه الظواهر، نجد أنّ هناك نوعين من الشرك هما:

١- الشرك الخفيّ "شرك الربوبية": وهو إطلاق صفة البقاء على الظواهر الطبيعية والاجتماعية عند مرحلة معيّنة والاعتقاد بثباتها أي جعل الطبيعة والظواهر الاجتماعية متكافئة مع الله في البقاء.

٢- الشرك الظاهر "شرك الألوهية": كعبادة الأصنام ومظاهر الطبيعة وعبادة الفرد "التأليه" وعبادة الهوى ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (الفرقان ٤٣)، والاعتقاد بأنّ هؤلاء يمكنهم أن يقدّموا نفعاً أو يدفعوا شرّاً.

وقد سبق شرح كيف يحصل الشرك بوصف الظواهر بالبقاء، وكيف يحصل التوحيد بوصفها بالتغيّر والزوال من خلال المثال الذي قدّمه لنا عزّ وجلّ في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف ٣٢-٣٨).

نلاحظ من المحاورة الرمزية بين رجلين في الآيات، كيف جاء موقف الأول عندما ظنّ أن ما يملك بساتين وزرع... يحمل صفة البقاء لذا قال: ﴿... مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، ممّا أدّى به إلى نكران الساعة واليوم الآخر حيث إن الساعة ونفخ الصور هما تغيّر كامل في حالة الكون الذي سيزول وينشأ على أنقاضه كون جديد، لذا أتبع بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً...﴾، فظنّ هذا الرجل بأنّه ليس هناك يوم قيامة جعل أمر يوم القيامة لا معنى له لأنّه قال: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، فهو مقتنع بعدم زوال ما بين يديه من نعمة ويضع أمر يوم القيامة احتمالاً ضعيفاً وفي حال حصوله فهو مقتنع بأن ما ينتظره عند ربّه أحسن ممّا كان بين يديه في الحياة الدنيا.

نفهم في المثال الإلهي السابق أنه عندما ردّ أحد الرجلين على صاحبه، أجابه بموقفين: الأول اتّهمه بالكفر بقوله: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾، لأنّ موقف الرجل الأول كان موقف كفر والكفر لغة هو التغطية أي إنّه غطّى وتجاهل قانون التطوّر والتغيّر والفناء في الكون مع علمه بأن هذا القانون موجود موضوعياً بدليل أنّ صاحبه ذكّره به في قوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾، وسنرى معنى الكفر لاحقاً. أمّا الاتّهام الثاني فهو الشرك بالله لقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، لأنّ ما قام به الرجل الأول هو موقف شرك بالربوبية لهذا ردّ عليه صاحبه: ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

هنا نقول إنّ من يؤمن بثبات الأشياء كالظواهر الاجتماعية وعدم تغيّرها وفنائها يصبح موقفه موقف شرك بربوبية الله وناكر لقانون التطوّر والتغيّر، بينما من يعبد الأصنام والظواهر الطبيعية والاجتماعية والأفراد من وليّ أو

زعيم أو فقيه بعد موته فهو شرك بالألوهية لأنّ الشرك بالألوهية تنتج عنه طاعة هؤلاء جميعاً، بينما الشرك بالربوبية تنتج عنه قناعة ونظرة خاطئة إلى الكون والحياة لدى الإنسان. لذا نجد الله عزّ وجلّ يوضح لنا في كتابه توحيد الربوبية في قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام ١٦٤)، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء ١١١). فالحقيقة العلمية اليوم أثبتت لنا حسب قانون الهلاك في الطبيعة أنه لا ثبات في الأشياء والمجتمعات والصناعات والاختراعات والأفكار، وكل شيء في الكون متغيّر ومآله الزوال لأنّ الثبات لله وحده. وعلى هذا الأساس لا تكون الطاعة مطلقة إلّا لله سبحانه لأنه الوحيد الباقي، وبالتالي فإن ما وُضع لنا من شعائر تمثّل صلة الإنسان بربّه الباقي ثابتة لذا نقول "لا يُعبد الله إلّا بما شرعه هو لنا لأنّه باقٍ ونحن فانون"، وللحفاظ على التعدّدية والتغيّر جعل الاختلاف في الشعائر بين الملل المختلفة، وكذلك ما وضعه من ناموس التشريع الإلهي من خلال مبدأ الحنيفية الذي نجد فيه نظرية الحدود التي يمشي عليها كلّ أهل الأرض في كلّ زمان ومكان في اجتهاداتهم.

لهذا فإنّ من أدق ما يمكننا أن نفهمه من المثال الإلهي السابق أمرين اثنين هما:

الأول: أن الشرك، بنوعيه الظاهر والخفيّ، رُبط بالظلم في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (الكهف ٣٥). فلماذا يا تُرى رُبط الشرك بالظلم؟

الظلم لغة بمعنى "وضع الشيء في غير محله عن غير قصد أو غصباً"، وبتطبيق هذا المعنى على ما جاء في الآية نفهم أنّ على المسلم حتى لا يظلم نفسه أن يبتعد عن الشرك بنوعيه الظاهر والخفيّ، لأنّ معنى الظلم هنا هو

الوقوع في الوهم لذا طلب منا الله عزّ وجلّ عدم ظلم أنفسنا بعدم الوقوع في وهم الشرك أي بإدراك أنه لا يمكن أن توجد ظاهرة البقاء في الأشياء وفي الظواهر الاجتماعية وفي القوانين التشريعية، ويؤمن بأنّ كلّ شيء خاضع للتغيّر والزوال في الكون بما فيها القوانين التشريعية الإنسانية وبالتالي فإنّ الشيء الثابت الوحيد الذي جاءنا من عند الله هو الشعائر وحدود الرسالة الإلهية، والقيم الإنسانية أي المحرّمات في تعدادها، التي تشكّل الصراط المستقيم "الثابت"، أمّا تطبيقات الحدود الإلهية من قبل الإنسان فهي متغيّرة وكذلك الأمر بالنسبة لتطبيقات القيم الإنسانية، فهي متغيّرة لأن هذه التطبيقات إنسانية.

الثاني: أنّ المشرك لا يقول عن نفسه إنه مشرك: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (الكهف ٣٥)، لأن الشرك لسان حال وليس لسان مقال، إذ ليس هناك إنسان أو مجموعة من الناس قالت أو تقول عن نفسها إنّها مشركة. وحين يُطلب من المشرك الإيمان بالتطوّر والتغيّر يرفض ذلك ويتحجّج بأن هذا ما ورثه عن الأسلاف: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الزخرف ٢٢).

كان العرب قبل الإسلام مشركين شرك ألوهية لأنهم كانوا يعبدون الأصنام بعد أن نسبوا إليها صفة البقاء. فكان الشرك لسان حال حياتهم وسلوكهم دون أن يقولوا ويعلنوا أنهم مشركون بل على العكس كانوا يعلنون أنّ عبادتهم للأصنام تقرّبهم إلى الله مع علمهم بأنّه سبحانه وتعالى هو الخالق لكلّ شيء: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت ٦١)، لذلك وصفهم الله عزّ وجلّ بالمشركين، لكن من أعلن منهم شركه بلسان مقال أي بتصرّف من قول أو عمل أو موقف (سلوك معاد)، أصبح - بالإضافة إلى شركه - كافراً كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (التوبة ١٧)، فالآية تبيّن أنه عندما

يعبّر المشرك بلسان المقال والموقف عن الشرك يوصف بالكفر بالإضافة إلى الشرك لأنّ الشرك اقتناع والكفر تصرّف.

ب- معنى الكفر

جاء الكفر من فعل "كفر" ومعناه في اللغة "التغطية والستر ونكران الموجود" أي نكران شيء ما عن سابق معرفة بواسطة موقف علني. وجاء فعل "كفر" بهذا المعنى اللغوي المادّي المباشر في قوله تعالى: ﴿... كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا...﴾ (الحديد ٢٠)، فكلمة "الكفار" هنا جاءت بمعنى الناس الذين يعملون في الزراعة حيث إنهم يحرثون الأرض ويضعون البذور فيها ثمّ يغطونها ويسترونها بالتراب عن سابق معرفة بماهيتها ووجودها تحت التراب. ومثال ذلك عندما ينشر صحافي ما مقالاً في صحيفة ضدّ السلطة، فتعتقله على ذلك وتضعه في السجن، لأنّها بحبسه تعبّر عن كفرها بما جاء في مقاله الذي كتبه، وبالتالي لا تريد من الصحافي الكلام ولا تريد من الجمهور أن يطلع على كلامه، لأنّ زجّه في السجن بمثابة وضع حجاب بينه وبين المجتمع كي تمنع كلامه من الوصول إلي الناس عن سابق معرفة. فسجناء الرأي تضعهم السلطة في السجون لأنها تكفر بآرائهم ولا تريدها أن تصل للناس، وبالتالي فهي بسجنها لهم تحجب بينهم وبين المجتمع. وهذا بالضبط معنى الكفر لغة ويقابله كلمة (COVER) بالإنجليزية.

والكفر بمعناه العقائدي، أي الكفر بالله هو إظهار عدم الوفاق به والعداء له، ويُعبَّر عن هذا الموقف بلسان مقال لا بلسان حال أي بتصرّف من قول أو عمل كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (الفرقان ٥٥)، فهو يؤكد هنا أن الكافر هو من يكون ظهيراً على ربّه أي عدوّاً علنيّاً له وذلك بإعلانه شركه بالله جهاراً.

وبينما نجد الشرك لسان حال أي قناعة، نجد الكفر لسان مقال أي

تصرّف وموقف عدواني، مع الإشارة إلى أنّ الكفر صفة إضافية لصفة الشرك فالكافر مشرك معلن عن شركه قولاً أو عملاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ (الأحقاف ٣)، إذ نلاحظ هنا قوله ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي إن كفرهم هنا عبارة عن لسان حال أي تصرّف من قول أو عمل لأن الإعراض تصرّف وليس قناعة فقط كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿... وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (الروم ٥٨)،
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سبأ ٧)،
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ...﴾ (سبأ ٣١)،
- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا...﴾ (هود ٢٧).
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ (المائدة ٧٢)،
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ...﴾ (المائدة ٧٣).

نلاحظ في كلّ هذه الآيات أنّ الكفر عبارة عن تصرّف علني، وقد عُبِّر عنه هنا بالقول لأننا نجد في كلّ الآيات فعل "قال" و "ليقولنّ". وليبيّن لنا الله عزّ وجلّ الفرق بين الشرك الذي هو لسان حال والكفر الذي هو لسان مقال، قال: ﴿... قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (غافر ٨٤)، فهنا جاءت "كفرنا" أي اتّخذنا موقفاً علنياً من خلال قولهم "قالوا".

وبما أن الكفر لسان مقال فلا يمكن إطلاق صفة الكفر على أيّ إنسان إلّا بتحديد ما كفر به، أي أن يقال هو كافر بماذا؟ وذلك بعد إعلانه هو شخصياً عن ذلك موقفاً، كقول أحدنا: أنا كافر بالطغيان أي رافض له، وأنا كافر بالظلم أي رافض له، وهذه قضايا اجتماعية إنسانية لا علاقة لها بالكفر بالله. فأنا أقول بكل صراحة: "أنا كافر بالدكتاتورية" بمعنى أني أعلن عدائي الشديد لها.

لهذا فإن وصف "الكافر" في الحروب يصبح وصفاً يتراشق به الطرفان أو الأطراف الأعداء في الحرب، فكلّ طرف بالنسبة للآخر هو كافر به لأنه أظهر العداء له، وهذا العداء وصل إلى درجة استعمال العنف (الحرب). وقد جاءت البعثة المحمّدية، وكان ثمّة أصنام تُعبد وأوثان تُقدَّس، فقضى عليها التوحيد بدعوة الرسول (ص)، وقد سُمّي البعض ممّن لم يؤمن به "مشركين" والبعض الآخر "كافرين" بناءً على فارق أنّ المشركين لم يؤمنوا به لكنه لم يصدر منهم تصرّف معادٍ له من قول أو موقف، أمّا الكافرون فبالإضافة إلى شركهم أعلنوا ذلك من خلال تصرّف معاد له عن طريق قول أو تصرّف، وقد أوضح عزّ وجلّ هذا الفرق في قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة ١٠٥)، ولأن الكافرين من خلال موقفهم كانوا يطلبون من الرسول (ص) التخلي عن رسالته واتّباعهم في ما يعتقدون به قال له عزّ وجل: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان ٥٢)، فقد طلب منه عزّ وجلّ بالإضافة إلى عدم طاعتهم جهادهم لأنه كان في حالة حرب معلنة من قبلهم وخاضعة لقوانين الحرب آنذاك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة ٧٣)، كما أنّ المنافقين جاؤوا في حكم الكفّار أي إنه كان يظهر من تصرّفهم النفاق بمعنى أنّ نفاقهم أيضاً كان لسان حال أيّ تصرّف ومواقف فطلب منه عزّ وجل معاملتهم معاملة الكفار في الحرب. وقد تمّ على هذا الأساس التفريق في التسميات بين "دار الإسلام" و"دار الكفر" (دار الأعداء) في كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، ونحن نرى أنّ هذه التسمية تاريخيّة بحتة ولا علاقة لها بالدين، لأنّ أوصاف النفاق والشرك والكفر التي وردت في القصص المحمدي في حق الفريق المعادي لأتباع النبي (ص) هي أوصاف متعلقة بتلك الفترة الزمنية فقط، لأن النبي (ص) وأتباعه كانوا في حالة

حرب مع غيرهم ممّن عاداهم وحاربهم، فكان الموالون للنبي (ص) يسمّون أنفسهم "المسلمين" ويسمّون المعادين له (ص) المحاربين له "الكافرين"، مع أنّ التنزيل الحكيم سمّى الموالين للنبيّ (ص) وأتباعه في تلك الفترة وبعدها "المؤمنون". لكن ظلّ الاستعمال التاريخي لهذه التسميات والأوصاف حتّى بعد وفاته (ص)، مع أنّ الآيات التي ذُكر فيها القتال هي قصص محمّدي وتُعدّ من القصص القرآني، وتدخل في حكم السرد التاريخي كباقي القصص القرآني وليست جزءاً من الرسالة المحمّدية الخاتمة التي تتّسم بالرحمة، وعليه لا يمكن استنتاج أيّ أحكام تشريعيّة ممّا جاء فيها، ولا يمكن القياس عليها في أيّ زمن من الأزمان في التشريع أو الحكم على الآخرين بأحد هذه الأوصاف أو تسميتهم بها.

ت- الله هو الوحيد صاحب الحق في معاقبة من كفر به يوم القيامة

ظلت فكرة تجسيد الله قائمة في أذهان الناس عبر التاريخ، ولكنهم في كلّ زمن يعبّرون عنها بشكل مختلف متعلق بمستواهم المعرفي، وكان الرسل يأتون لدعوتهم إلى التوحيد عبر مرّ تاريخ وصولاً إلى زمن موسى الذي جاءته الوصية الأولى بصيغة: "لا تجسّدني" لأن التجسيد كان راسخاً في أذهان الناس يومها كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ...﴾ (الأعراف ١٤٨)، حيث جسّد السامري الإله على عهد موسى في صورة عجل.

لكن وجود هذه الفكرة لدى الناس استمرّ حتى بعد دعوة موسى إلى التوحيد، فبعث الله المسيح عيسى ليساعد الناس على تجاوز هذه الفكرة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الصف ٦). فتصديق ما بين يديه من التوراة

تأكيد لدعوة الرسل قبله ممثلة في التوحيد: ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران ٥١)، لكن دعوته لم تلق القبول الذي كان يتمناه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ٥٢). وقد كثرت الآراء بعد عهد عيسى حول طبيعة المسيح أهي إلهية أم بشرية، وهل هي واحدة أم متعددة، وانقسمت إلى ثلاثة آراء:

١- قسم قال بالطبيعة الواحدة الإلهية للمسيح، وأنه هو الله مجسَّداً، وهذا القول من بقايا تجسيد السامري في زمن موسى، إذ طوّروا بعده التجسيد من العجل إلى المسيح.

٢- قسم قال بطبيعتين للمسيح إلهية وبشرية، منهم من غلّب الطابع الإلهي ومنهم من غلّب الطابع البشري.

٣- قسم قال ببشرية المسيح، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وأنّ مريم ليست أمّ إله.

وقد سرد لنا كتاب الله هذه الاختلافات وعلاقتها بفكرة التجسيد التي كانت ما تزال قائمة في الفكر الإنساني سواء عند من تحوّل من بني إسرائيل إلى المسيحية أو من بقي على ملته الدينية في قوله تعالى:

- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة ٧٢)،

- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة ٧٣)،

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ

لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ (النساء ١٧١)، بحيث نجد في الآية ٧٢ من سورة المائدة وصفاً للذين قالوا بأنّ الله (هو) المسيح ابن مريم بأنهم كفّار، لكنّ الآية تنوّه بأنّ المسيح لم يطلب منهم أن يشركوا بالله: ﴿... وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ...﴾، وبيّن لهم أنّ من يشرك بالله يحرّم عليه تعالى الجنةّ ﴿... فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ...﴾، لأنّ عيسى لم يقل لهم أبداً إنه إله ولم يكن مجسّداً بل دعاهم إلى عبادة الله (توحيد الألوهية) وتنزيهه سبحانه وتعالى عن التجسيد، ونعتقد أنّ المجسّدين للإله قلائل في الأرض.

أمّا الآية ٧٣ من سورة المائدة فلا يمكن فهمها إلا بمقاربتها بالآية ٣٠ من سورة التوبة التي تذكر أن النصارى قالوا بأن المسيح ابن الله، وبالتالي يصبح المسيح هو ابن الله وهو ثالث ثلاثة أي الله - الروح القدس - المسيح، وقد صرّح الله عزّ وجلّ في الآية ٧٣ من سورة المائدة بأن القول بذلك كفر، لأنّ فيه نفياً لوحدانية الله كما يؤكّده قوله: ﴿... وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾، ويشير القول الذي بعده إلى أنّ عدم الانتهاء عن هذا القول جزاؤه عقاب من الله ﴿... لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾.

علينا الانتباه هنا إلى الفرق الموجود بين الآيتين ٧٢ و٧٣ من سورة المائدة، إذ نجد في الأولى أنّ الله عزّ وجلّ حرّم على المجسّدين الجنّة بينما اكتفى في الثانية بذكر عقوبة العذاب الأليم للقائلين بالتثليث لكنّه في هذه الآية يضيف شرحاً آخر مهمّاً وهو أنّ هذا العذاب سيصيب القسم الذي كفر من القائلين بالتثليث لا كلّهم، وهذا يقودنا إلى العودة إلى الحديث عن الفرق بين الكفر والشرك، فإن المقتنعين بالتثليث مشركون لكنّهم لا يصبحون كفاراً إلّا عند الإعلان عن ذلك بتصرّف معادٍ من قول أو عمل.

أمّا في الآية ١٧١ من سورة النساء، فقد جاء وصف كلّ من اعتقد بتجسيد الله واعتقد بالتثليث بأن ذلك غلوّ في الدين، والغلوّ لغة هو مجاوزة الحدّ المعقول

في أمر ما كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ...﴾، وهذا ردّ على كلا الفريقين يوضح أن اعتقاد كلّ منهما خطأ ويبيّن لهما أنّ المسيح رسول الله وكلمته في قوله: ﴿... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...﴾، وطلب منهم العدول عن هذا المعتقد الخاطئ والإيمان بالله ورسله: ﴿... فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ...﴾ ونهاهم عن القول بأن هناك ثلاثة آلهة لأن كلّاً من عيسى والروح الأمين رسول أمّا الله فواحد لا شريك له كما جاء في الآية: ﴿... إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ...﴾.

لكن ما تجدر الإشارة إليه في هذه الآية على عكس الآيتين السابقتين أنّ فيها خطاباً إلهياً ألطف بكثير من الخطاب الموجود في الآيتين، فلم يُذكر فيها حرمان من الجنّة كما جاء في الآية ٧٢ من سورة المائدة، ولم يذكر فيها وعيداً بالعذاب كما جاء في الآية ٧٣ من نفس السورة، بل الخطاب في هذه الآية لا يخلو من الاعتدال الهادئ ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ لأنه خطاب ليّن فيه فتح المجال للتوبة والاستغفار لكل من الفريقين في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، كي يبيّن لهم أنّ الحرمان من الجنّة ودخول النار والوعيد بالعذاب الأليم من نصيب من يصرّ على كفره فقط لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (البقرة ١٦١)، أمّا من يتوب إلى الله فسيجده غفوراً رحيماً. فقد أعطى الله عزّ وجلّ الفرصة لكلا الفريقين بالرجوع عن المعتقد الخاطئ، وهذا يبيّن لنا أنّ الشرك والكفر ليسا صفتين لصيقتين على الدوام بل متغيّران بتغيّر معتقد الإنسان، فقد يكون الإنسان مشركاً أو كافراً ثم يتحوّل إلى التوحيد فتنتفي عنه صفة الشرك أو الكفر.

وإذا نظرنا حولنا اليوم، فإننا نجد الإنسانية أحسن حالاً ممّا كانت عليه في مسألة الشرك بالله والكفر به، لذا من المضحك أن نرى من يدمّر التماثيل

التاريخية كأبي الهول في مصر، خوفاً من عبادتها، أو أن نظنّ أنّ الناس في أميركا يقدّمون القرابين لتمثال الحريّة زلفى إلى الله، فقد ابتعدت أذهان الناس تماماً عن التشخيص والتجسيد، على اختلاف مللهم الدينية، وانغرس في أذهانهم التجريد، واتّسعت مداركهم عن الكون وأبعاده، وزادت معارفهم عمقاً في فهم آيات الله تعالى، وأصبحوا بعيدين عن الاختلاط الوثني المشخّص، وهذا كلّه ممّا تركه لنا إبراهيم أبو المسلمين حين نقلنا من التشخيص إلى التجريد، فسلام على إبراهيم.

والخلاصة أنّ علاقات الملل بعضها ببعض تبقى علاقات يطبعها الاحترام المتبادل المبنيّ على احترام الحرّية الدينية والفكرية لكلّ ملّة، لأنّ الأساس في العلاقات بين الناس هو التعارف لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣). وعليه، لا يحق لأحد أن يحكم على أحد بأنه مشرك بالله أو كافر بالله إلّا إذا أعلن عن ذلك هو بنفسه. وحتى عند إعلانه عن كفره بالله، فما لم يستعمل وسائل العنف والإكراه في فرض إيديولوجيته على الآخرين، لا يحق لأحد معاقبته على ذلك، بحيث يبقى أمر الكافر بينه وبين ربّه إن تاب واستغفر فقد استغلّ الفرصة الإلهية المتاحة له للعودة إلى الإيمان وإن لم يفعل فإن أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران ١٢٩). لقد فتح الله عزّ وجلّ باب التوبة والعودة إلى الإيمان على مصراعيه، فالعذاب والغفران على الشرك أو الكفر به إلهي حصراً، ولا يحقّ لأحد غيره سبحانه وتعالى، لأن الله وحده فقط يعلم بالسرائر وما تخفي الأنفس، وهو الذي يفصل بين الناس يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج ١٧). أمّا إذا اتّخذ من كفره إيديولوجيا

وفَرضها على الناس بالإكراه كنظام سياسي، وهذا لا يكون إلّا في مجتمع يحكمه نظام دكتاتوري كما فعل نظام الاتحاد السوفياتي الشيوعي، هنا يجب التصدّي له ومواجهته والردّ عليه حسب الوسيلة التي يستعلمها. علماً بأنّ من يمارس العنف تحت أيّ شعار إيديولوجي ولو كان باسم الدين وإكراه الناس عليه كما تفعل المنظمات الإرهابية التي تحوّل الموت إلى مؤسّسة باسم الدين، فإن ذلك يُعدّ كفراً بالله وبالقيم الإنسانية التي جاءت في الإسلام وعلى رأسها الحرّية، والتصدّي لها واجب وشرف في نفس الوقت من قبل الإنسانية جمعاء لأنها مؤسّسات طاغية جعلت من الدين غطاءً لها للوصول إلى غاياتها ومطامعها بإخضاع الناس لإيديولوجياتها بالعنف، والدين بريء من ذلك كلّ البراءة بل ويأمر بالوقوف في وجه هذا النوع من الطغيان الذي يريد تحويل الناس إلى عبيد وقد خلقهم الله عباداً أحراراً، لأنه لا يحق لأحد مهما كان ممارسة الإكراه على أحد باسم الله ما دام هو نفسه عزّ وجل لم يمارسه.

ويبقى أن نشير إلى أنه من أعلن عداءه لقضيّة ما (كفر بها) يمكن التعامل معه بنفس الوسيلة فالمقال يقابله المقال والرسم الكاريكاتوري يقابله مثله، أمّا التعبير بالعنف فمرفوض في كلّ الملل الدينية لأن حرّية التعبير عن الرأي والرأي المضاد هي الوسيلة الأمثل في طرح القضايا المختلف فيها بين الناس وتحليلها وهي وسيلة حضارية وأخلاقية ومشروعة قانوناً وديناً.

الفصل الرابع

المواطنة والولاء للإسلام

يعيش العالم العربي في الوقت راهن مشهداً سياسيّاً غير معهود ومجهول النتائج والتوقعات، تُردَّد فيه شعارات متداولة ومتصاعدة، البعض منها يدافع عن القومية، والبعض الآخر يدافع عن النزعة الدينية أو السياسية المتباينة. هذا التداخل والاختلاط في المفاهيم، إنما يعبّر في ذاته عن مدى التداخل بين حدود الانتماء الديني والمذهبي والقومي مع الانتماء السياسي (الملكي أو الجمهوري أو الدستوري) في هذه الدول حتى ضاعت، في ظلّ هذا التداخل، الفوارق بين الأمّة والوطن، وبين الدين والدولة، مع أن هذه المفاهيم ليست جديدة على ثقافتنا، بل قديمة قدم وجودنا التاريخي. لذا نجد أننا بحاجة إلى قراءة واعية لهذا الموضوع من نصوص كتاب الله مباشرة لفهم المعاني المقصودة من هذه المصطلحات بشكل لا يدع مجالاً للشكّ.

١- معنى الأمّة والقومية والشعب

تُستعمل هذه المصطلحات كثيراً في الحياة اليومية لمجتمعاتنا في مختلف المجالات بمعانٍ متداخلة أحياناً ومتناقضة أحياناً أخرى، لهذا نحن بحاجة

إلى فهم معانيها تماماً كما جاءت في نصوص كتاب الله حتى نستوعب الفروق بينها وحدود استعمال كلّ واحد منها.

أ- الأمّة

جاء مصطلح الأمّة من أصل (أمّ)، ولهذا الأصل في اللغة معانٍ عدّة ما يهمّنا في منها في هذا المقام معنى مصطلح الأمّة بالسلوك الإنساني المشترك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ...﴾ (القصص ٢٣)، فالسلوك المشترك الذي يجمع الأمّة في الآية هو السقاية.

وقد استُعمل مصطلح (الأمم) بمعنى السلوك المشترك للناس والبهائم معاً، بحيث نجده عزّ وجلّ أطلقه على البهائم في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام ٣٨). كما أطلقه على التجمّعات الإنسانية الأكثر بدائية أي قبل نوح التي كانت تجمّعات واعية في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة ٢١٣). واستعمله من ناحية ثالثة على التجمّعات الإنسانية الحديثة في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران ١٠٤). هذا يعني أنه عند وجود سلوك معيّن لدى تجمّع ما سواء حيواني أو بشري، فإنّ هذا التجمّع يسمّى (أمّة).

نحن نعلم أنّه في فترة ما قبل نوح وما قبل الأنبياء كان الناس أمّة واحدة، ثمّ بدأت التجمّعات الإنسانية بالتشكل، وبدأت مرحلة اختلاف الثقافات

والسلوك، وهي مرحلة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود ١١٨)، واستمرّ الاختلاف بين الناس في السلوك إلى يومنا هذا، وسيستمرّ إلى نهاية التاريخ بسبب تطوّر المعارف والشرائع والعادات. فقد ظهرت الاختلافات بين الناس في السلوك نتيجة الاختلاف في الوعي، ما أدّى إلى بعث الأنبياء بداية من نوح مبشّرين ومنذرين، ومع ازدياد الاختلاف في ما بينهم أنزل الله إليهم الرسل. وقد انعكس هذا التسلسل في النبوّات والرسالات بما تحمله من بيّنات وتشريعات على أهل الأرض جميعاً، وعلى معارفهم وقيمهم الأخلاقية، فأصبحوا أمماً مختلفة بسبب اختلاف ثقافاتها وتفاوت تطوّرها، وأصبح بذلك مصطلح الأمة يصبّ في معنى السلوك الواعي للإنسان وهو ما نسمّيه في عصرنا الحالي الثقافة.

انطلاقاً من هذا المعنى للأمّة، نجد أنّ الله سبحانه وتعالى عندما يطلب من الناس القيام بعمل مشترك، والأخذ بقناعة مشتركة، يطلب ذلك على أساس الأمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ (آل عمران١٠٤). وعندما نجده يذكر التطوّر التاريخي، يكون في سياق تطوّر العبادات والسلوكيات والشرائع، والاختلاف بينها، واندثار أمم وظهور غيرها، واندثار ثقافات وظهور ثقافات أخرى جديدة كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة ١٣٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف ٣٤).

علينا الإشارة هنا إلى أنه سبحانه وتعالى لم يستعمل مصطلح الأمّة للفرد إلّا مع إبراهيم، لأنه شذّ عن قومه في سلوكه وتفرّد به عنهم (التوحيد والحنيفية) فأصبح أمّة وحده لتفرّده بالسلوك عن قومه كما قال تعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل ١٢٠).

ب- القومية

لقد جاء معنى القوم في كتاب الله أعلى درجة من معنى الأمّة وبعدها زمانياً وفق المعاني التالية:

١- جمع امرئ بحيث ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود ٧٨)، علماً بأنّ معنى القوم في الآية تعني حصراً جمع الذكور، إذ ختم الآية بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾، من جهة ثانية.

٢- مجموعة من الناس العاقلين، ذكوراً وإناثاً، في بيئة اجتماعية معيّنة، وقد ورد هذا الخطاب ابتداءً من نوح بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (نوح ١-٢).

٣- مجموعة من الناس العاقلين لهم لغة مشتركة (وحدة اللغة) كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ (إبراهيم ٤)، وعلينا أن نلاحظ هنا كيف حدّد القوم باللسان، وكيف عرّف البيان على أنّه بمعنى الإيضاح وأنّه وظيفة اللسان.

إذا دخلنا في تفصيل المعنيين الثاني والثالث، أي إنّ القوم هم مجموعة من الناس العاقلين لهم لغة مشتركة عبّر عنها الله في كتابه باللسان، يؤدّي بنا ذلك إلى استنتاج أنّ الناس كانوا أمّة واحدة، ثمّ أصبحوا بعد ذلك أمماً مختلفة في الثقافات بما فيها من معارف وتشريعات متغايرة. وبما أنّ الثقافة تحتاج إلى لغة، أصبح الناس قوميّات أيضاً نتيجة لاختلاف ثقافاتهم. وما دام معنى الأمة جاء تاريخياً قبل معنى القوميّة لأنّ الأمة جاءت بمعنى أوّلي يتمثّل في السلوك البهيمي الغريزي (طبائع البهائم)، ثمّ تطور إلى معنى السلوك العاقل الواعي (ثقافة مجتمع عاقل)، بحيث تنوّعت الثقافات فأصبح الناس أمماً مختلفة بسبب

الثقافات، لكنّهم اختلفوا أيضاً بسبب اختلاف ألسنتهم فصاروا قوميّات.

إنّ القومية صفة ملازمة لتجمّع من الناس العاقلين لهم لغة مشتركة يتواصلون بها، فلا يوجد عرب بدون قومية عربية، ولا توجد قومية عربية بدون لسان عربي. وبهذا تصبح القومية العربية من هذا المنظور، وجوداً حقيقياً غير وهمي، شأنها في ذلك شأن القوميات الأخرى: التركية والكردية والإنكليزية... فالقومية العربية هي الانتماء الواعي إلى القوم العرب لغة وثقافة.

ت- الشعب

جاء مصطلح الشعب في اللغة من فعل "شعب" وهو من أفعال الأضداد، ويعني التجمّع والفرقة، أمّا التفرقة فنجدها في قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (المرسلات ٣٠)، وهذا المعنى نراه واضحاً عند قولنا "تشعّب الأمر"، أي تفرّق إلى عدّة نواح، وقد يأتي بمعنى التجمّع والفرقة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣)، فقد أورد سبحانه في هذه الآية الشعوب والقبائل، وأغفل الأمم والقوميّات، لكنها جاءت متضمّنة في الشعب والقبيلة. فالشعب هو مجموعة من الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ العاقلين، قد يكون لهم لسان واحد (لغة واحدة) أو ألسنة مختلفة (لغات مختلفة) لأنهم قد ينتسبون لنفس القومية أو لقوميات مختلفة، وهم إمّا أمّة واحدة بسبب وحدة السلوك أو أمم مختلفة بسبب اختلاف السلوكيات الثقافية والدينية. وهكذا فإنّ معنى الشعب، من حيث إنه قد يكون مكوّناً من أمّة واحدة أو أمم مختلفة، أو من قوميّة واحدة أو من قوميّات عدّة، أعمّ من معنى الأمة والقومية لأنه يتضمّنهما معاً.

كان العرب قبائل متعدّدة مع أنّهم من قومية واحدة، بحيث كانت القبيلة الواحدة منها تضمّ عدّة عشائر، والعشيرة تضمّ عدّة أسر، وكان لكلّ قبيلة مجالها

الحيوي الذي تعيش فيه وتدافع عنه، وتغزو عند الشحّ والأزمة الاقتصادية على مجال قبيلة أخرى. وكان لكلّ قبيلة رأس ومجلس استشاري ومحاربون أي جهاز كامل يمثّل - رغم كونه بدائياً - نظام السلطة للقبيلة ويحمي مجالها الحيوي. أمّا عندما تتّحد مجموعة قبائل، طوعاً أو كرهاً، وتضمّ مجالاتها الحيويّة بعضها إلى بعض، فإنّها تكوّن شعباً له قوانينه الاقتصادية والقانونية الخاصّة ومجال حيوي موحدّ له حدود تمثّل الوطن، فالوطن والشعب إذاً مرتبطان ارتباطاً عضوياً لا انفصام فيه، والقوميّة والأمّة عنصران متضمّنان (SUBSTRUCTURE) في تركيبة الشعب.

كي نفهم معنى الشعب، لا بدّ من أن نربطه بمعنى متقدّم جداً، هو الدولة ذات الكيان السياسي والاقتصادي كي نفهم كيف يمكن أن تجتمع كلّ من القوميّة والأمّة في مصطلح الشعب، وكيف يمكن أن تشتمل الأمة (السلوك=الثقافة بما فيها التوجّهات الدينيّة) على قوميّات (لغات) مختلفة، وكيف يمكن للقومية (اللغة) أن تحتوي على أمم مختلفة (ثقافات مختلفة بما فيها التوجّهات الدينيّة المختلفة). فالشعب إذاً، يتمثّل في أنّ كلّ أفراده المختلفين في ما بينهم يعيشون ضمن نفس القوانين الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية في ظل الدولة الواحدة لأن الشعب يضم مجموعات مختلفة من الأفراد يختلف بعضها عن بعض سواء بسبب اختلاف الثقافات بينها أي تصبح هناك أمم مختلفة داخل نفس الشعب، إذ يكون لكلّ واحدة منها ثقافتها الخاصّة (أمّة)، أو بسبب اختلاف قوميّاتها (لغاتها) أي إنّ هناك قوميّات مختلفة في نفس الشعب بحيث يكون لكلّ قومية لغتها الخاصة، وقد تتداخل هذه المجموعات بعضها مع بعض لأننا نجد في نفس القومية مجموعة من الأمم وقد نجد في نفس الأمة مجموعة من القوميات، وكلّ هذه المجموعات تخضع لسلطة الدولة الواحدة وقوانينها. فأفراد نفس الشعب على اختلاف قوميّاتهم وأممهم تجمعهم علاقات واعية، وتربطهم المصالح المشتركة التي يُعبَّر عنها بالمنظومة التشريعية والقانونية،

على أرض هي المجال الحيوي لهم جميعاً وتسمّى الوطن، بحيث ينظّم العلاقات بينهم سلطة الدولة التي تفرض سيطرتها القانونية عليهم جميعاً داخل ترابها الوطني.

٢- الولاء للإسلام ولاء للقيم الإنسانية

الإسلام بكلّ ملله الدينية، يحثّ على بناء دولة مدنيّة وينادي إليها بشدّة بدون شعارات رنّانة، لأنه يحمل في طيّاته الميثاق الإنساني الذي يجب أن تُبنى عليه هذه الدولة، وهذا الميثاق يمثّل القيم الإنسانية العليا التي تمثّل الفطرة الإنسانية التي خُلق عليها الإنسان بغرض إنشاء دولة مدنيّة. أمّا المتغيّرات السياسية للدولة فقد تركها الدين الإسلامي للناس يتصرّفون فيها كيف يشاؤون حسبما يتناسب مع حاجاتهم ومتطلباتهم. انطلاقاً من ذلك نحن بأشد الحاجة لأن نفهم معنى كلٍّ من الولاء والبراء كما جاء في كتاب الله دون مزايدة أحد علينا، كي ندرك بعدها كيف وجّهنا الله عزّ وجلّ في كتابه إلى ممارستها لبناء دولة مدنيّة قويّة.

أ- معنى الولاء والبراء

جاء الولاء في اللغة من الأضداد، فهو يعني إمّا الإقبال بالاتباع كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة ٥٦)، أوالترك بالإعراض كما في قوله تعالى: ﴿... وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء ٤٦). والوليّ هو السيّد المُتَّبَع، والمولى هو التابع المطيع الموافق لأوامر سيّده ونواهيه. ففي الوليّ يقول تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة ٢٥٧)،

وبخصوص الثاني يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس ٦٢).

يمثّل الولاء علاقة إنسانية اجتماعية، تبدأ عند الفرد فكراً نظرياً حين يقرّر أن يتّخذ لنفسه وليّاً يقلّده في كلّ ما يفعل، وجاء هذا المعنى في قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ (البقرة ١٤٨)، ثم تصبح هذه العلاقة سلوكاً عملياً يجسّد الفكر النظري الذي تحمله، فإذا أصبح الوليّ المتّبَع واحداً عند جماعة كبيرة من الناس بتوحّد الوجهة المقصودة عندهم، حسب تعبير آية البقرة ١٤٨، تجانس سلوكهم فصار سلوكاً جماعياً، وهنا يصبح الولاء جماعياً ويصبح اسم هذه الجماعة "أمّة"، والأمّة كما عرّفناها جماعة من الناس تجمع بينهم وحدة السلوك الواعي. وهو سلوك غريزي لدى الإنسان، رافقه منذ كان بشراً في المملكة الحيوانية قبل الأنسنة وقبل نفخ الروح فيه وجعله خليفة في الأرض، ثمّ بدأ هذا الولاء الغريزي يأخذ أشكالاً جديدة مع ارتقاء الإنسان ككائن اجتماعي، فكان هناك الولاء الأسري كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود ٤٥)، ثم الولاء العشائري في قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء ٢١٤)، ثمّ الولاء القبلي، فالولاء للشعب.

إنّ الولاء عند الأسرة والعشيرة والقبيلة ولاء نسب، وهو أقرب ما يكون إلى الولاء العرقي، بينما الولاء القومي ولاء لغة ولسان، قد يترافق مع الولاء الأسري والعشائري والقبلي وقد لا يترافق، أي بمعنى أنّ القوم الذين تجمعهم وحدة اللسان قد يكونون من نفس النسب وقد لا يكونون كذلك. والولاء فيها جميعاً ولاء غريزي يدور حول محاور الأعراف السائدة والتقاليد الموروثة. لهذا فإنّ الرسالات السماوية بدءاً من نوح وانتهاءً بمحمّد (ص) ومروراً بإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، إنما نزلت عموماً لتهذيب هذا الولاء وضبطه ضمن إطار من التعارف والتواصل والعيش المشترك، في

جوّ من التعاون على البرّ والتقوى، وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات ١٣).

أمّا مصطلح البراء فدلالته في التنزيل الحكيم الترك والإعراض كأن تقول: "تبرّأ من الأمر أي أعلن تركه له"، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (الزخرف ٢٦)، وتبرّأ من الشخص أي أنكر علاقته به واستنكر صلته به، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٤).

علماً بأنّ البراء كالولاء تماماً، عبارة عن علاقة إنسانيّة اجتماعيّة اختياريّة، تبدأ عند الفرد فكراً نظريّاً عندما يقرّر أن يتبرّأ من أمر يتعارض مع قناعاته، أو يتبرّأ من شخص ارتكب ما يجعله يتبرّأ منه، ثم يتحوّل هذا القرار النظري إلى سلوك عملي. وإن كان للولاء - لغةً - وجهان متضادّان هما الاتّباع والإعراض، فإنّ البراء ليس له سوى وجه واحد هو الترك والإعراض. ويبقى أن نشير إلى أنّ للبراء باعتباره سلوكاً إنسانيّاً، حدوداً تحصر مجاله ومقداره، وهي حدود عُليا لا يجوز تجاوزها صعوداً وحدود دنيا لا يجوز تخطيها نزولاً، إذ كلما زاد الأمر عن حدّه انقلب إلى ضدّه، فإن تجاوزت الأشياء حدودها وقع المحظور، مثال ذلك: الشجاعة المحمودة حين تتجاوز حدودها تتحوّل إلى تهوّر مذموم، والتأنّي يتحوّل إلى تردّد، والكرم إلى تبذير، والثقة بالنفس إلى جنون العظمة، والأحلام إلى أوهام. وهكذا فإننا نجد الحدود الناظمة للبراء في كتاب الله على النحو التالي:

- ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...﴾ (لقمان ١٥)،
- ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ

أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة ١١٤).

إن آية لقمان ١٥ تتحدّث عن خلاف واختلاف فكري بين الأجيال بحيث يحاول الوالدان جاهدين حمل الابن على أن يكون مثلهما فكرياً، وفي هذه الحالة بالذات يأتي التوجيه الإلهي ليسمح للابن بأن لا يخضع للسلطة الأبوية مع مصاحبتهما بالمعروف لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وهنا لا وجود لبراءة ولا تبرّؤ، بل أمر بالصحبة بالمعروف.

أمّا آية التوبة ١١٤، فتتحدث عن إبراهيم وموقفه من مربّيه وراعيه آزر، بعد أن اتّضحت عداوة هذا الأخير له، ففي هذه الحالة بالذات ترد مشروعية التبرّؤ من المخالف ضمن شرط نجده في الآية، وهو ظهور عداوته ظهوراً مؤكّداً، وهذا هو معنى عبارة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ﴾ والتأكيد هنا جاء في استعمال فعل (تبيّن) بدلاً من (بان) للتأكيد. ورغم صحّة أنّ إبراهيم، بدافع من ولائه لله الواحد، أعلن براءته من أبيه مستنكراً عداوته له بسبب إيمانه، لم يتعارض إيمانه بالله عزّ وجلّ وولاؤه له مع ما يحمله لأبيه من عرفان له بفضله في تربيته ورعايته، فبقي محزوناً يتأوّه عليه رحمة وشفقة، وبقي الحِلم وطول الأناة هما الحاكم لبراءته منه، وهذا بالضبط ما أشارت إليه آية التوبة ١١٤.

لكن علينا هنا أن نفهم أنّ استعمال الولاء والبراء كان منذ القديم في المجتمعات العربية، وكلاهما تغيرت استعمالاته مع تغيّر الروابط التي تربط الجماعات في هذه المجتمعات من أسرية وعشائرية وقبلية وقومية وشعبية، بحيث عُرف الولاء والبراء قبل الإسلام على المستوى الأسري، فكان الولاء يتمّ بطريقين: الأول بالتبنّي، والثاني بالإلحاق بالنسب، بينما كان البراء يتمّ بالخلع، إذ كان الرجل في الجاهليّة إذا غلبه ابنه أو من هو منه بسبيل جاء به إلى الموسم ثم نادى: "يا أيها الناس هذا ابني فلان وقد خلعته، فإن جَرَّ لم أضمن وإن جُرَّ عليه لم أطلب، يعني قد تبرّأت منه"[1].

١ – الزمخشري، **أساس البلاغة**، ص ١١٨، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨.

كما نجد تاريخياً أنّ الولاء والبراء على المستوى القبلي جاء كالولاء والبراء للأسرة والعشيرة تماماً، يضاف إليه شكل من أشكال الولاء أو البراء لا نجده في الأسرة ولا في العشيرة، بحيث إنه بالنسبة للولاء هو الولاء بالانتساب أو بالتحالف، يغدو معه المنتسب أو الحليف وكأنه من القبيلة نسباً ودماً، عدا العبيد فهؤلاء لا يملكون الحقّ في الانتساب أو التحالف مع غير مالكهم. وأمّا بالنسبة للبراء فهو يتمّ بخلع القبيلة أحد أفرادها والتبرّؤ منه إن هو خرج على بعض مبادئها أو خالف عرفاً من أعرافها أو ترك عبادة معبوداتها أو أهمل الالتزام بمبادئها.

وهذا يجعلنا نستنتج أنّ كلّاً من الولاء والبراء يأتي مرتبطاً بموضوع ما، إذ لا يمكن أن نوالي موالاة مطلقة أو نتبرّأ براءً مطلقاً لأنّ الولاء والبراء يدوران دائماً حول موضوع معيّن تتمّ موالاة شخص بسببه أو التبرّؤ منه بسببه، لأنّ من غير المنطقي أن يكون هناك ولاء أو براء مطلق أي دون سبب محدّد. هذا التوضيح لمعنى كلّ من الولاء والبراء لغويّاً يدفعنا إلى التعمّق في هذا الموضوع للاقتراب من المعنى الحقيقي للولاء والبراء الديني حسبما جاء في التنزيل الحكيم.

ب- كيف يكون الولاء للإسلام ولاءً للقيم الإنسانيّة؟

يأتي الولاء في الأسرة بالتراحم والتعاطف والودّ بين أفرادها ومساعدة بعضهم بعضاً بغضّ النظر عن انتماءاتهم المذهبية والسياسية، والبراء فيها هو الدفاع عن أفراد الأسرة عندما تتعرّض لظلم أو عدوان من الآخرين والدفاع بحسب الوسائل المتاحة في الصحافة والقضاء والكلمة الطيّبة حتى السبّ والشتم، وكذلك تقديم المساعدات الماديّة لأفراد الأسرة بعضهم لبعض، وهو ما نسمّيه بصلة الرحم.

بينما يتمثل الولاء في الأمّة بأداء السلوك المشترك بين أفرادها، والبراء فيها يتمثّل في الإعراض عن هذا السلوك. فمثلاً أتباع محمّد (ص) هم أمّة محمّد

وهم الذين سمّاهم الله في كتابه عزّ وجلّ "المؤمنين" لأنّ لهم قبلة واحدة يتّجهون إليها في الصلاة ويؤدّون نفس الشعائر، وولاؤهم لها يكون باتباع كلّ ما يخصّ شعائرها من إقامة الصلاة وصيام رمضان وإيتاء الزكاة وأداء الحج. وبناءً على ذلك فإنّ القومية لا تتعارض مع الأمة، إذ قد تكون في الأمة الواحدة قوميّات عديدة وقد تكون القومية الواحدة فيها أمم عديدة كالعرب المؤمنين والعرب المسيحيّين، والولاء في كلّ واحدة منها لا يتعارض مع الولاءات الأخرى، فالولاء الأسري لا يتعارض مع الولاء الأممي ولا يتعارض مع الولاء القومي، إذ إنّ لكل واحد منهما حقله الخاصّ به واستعماله الإيجابي المتعلق به، فالولاء في القومية يحفظ اللغة من الانقراض، ويجب أن تكون العلاقات بين القوميات علاقات تبادل ثقافي، لا علاقات فرض لغة على أخرى، والولاء فيها يساعد على نشر المراكز الثقافية والمدارس التي تعلم اللغات المختلفة.

قد نجد في دولة واحدة مجموعة أمم متعايشة فيها، ويمكن أن تكون في بعض الحالات العلاقات بين هذه الأمم متعارضة، لكن ليس بالضرورة أن تكون عدائية أو عدوانية، لأنّ الشعائر الدينية سلوكيّات شخصية لا تتدخل فيها سلطة الدولة بالسماح أو المنع، فهي تدخل في إطار الحرّية الشخصية للفرد. وحفاظاً على قدسية الشعائر يجب ألّا تكون لها أيّ علاقة بالحكم أو السياسة في أيّ مجتمع، ولذا يمكن لعدّة ملل دينية مختلفة (أمم) أن تعيش في دولة واحدة كما يمكن للأمّة الواحدة أن تعيش في عدّة دول، فأمّة محمّد (ص) مثلاً تعيش في مجموعة من الدول العربية كما تعيش في دول أخرى منتشرة عبر دول العالم، لأن المعيار الأول الذي يجب أن يتعامل الناس به في ما بينهم هو القيم الإنسانية مهما كانت أممهم وقومياتهم.

فالقيم الإنسانية إذاً، هي الأساس المتين الذي تُبنى عليه المجتمعات الإنسانية وهي الدين الإسلامي الذي جاء به كلّ الرسل والأنبياء، وهي تمثل فطرة الله التي فطر الناس عليها كي يتعاملوا وفقها لتشكيل مجتمع إنساني،

وانقياد الإنسان إليها يكون طواعية لأنّه لا إكراه في الدين بل خضوعه لها يتم وفق سلطة الضمير الذي يساعده على التعايش مع الآخر في أيّ دولة مهما كان تنوّع الأمم فيها والقوميات. ويتجلى بذلك سموّ الدين الإسلامي الذي يعلّم الإنسان مهما كانت ملّته الدينيّة (أمّته) كيفية التعامل بالقيم الإنسانية مع الآخر في إطار مبنيّ على الاحترام المتبادل. أمّا الشعائر فلا علاقة لها بالقيم الإنسانية لأنها علاقة تعبّدية بين الإنسان وربّه كلّ واحد يمارسها حسب ملّته الدينية وهي لا تتعارض مع الإنسانية في أيّ شيء، فالإسلام يقوم على التعدّدية باختلاف الملل وحنيفية التشريعات وهذه هي حال سكّان الأرض ودولها.

على ضوء ما تقدّم نفهم قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ...﴾ (آل عمران ٢٨) الذي جاء فيه أنّ الولاء والبراء في الدين يتحقّقان عندما يتخذ المؤمنون بعضهم أولياء بعض، ويتبرّأون من الكافرين. وكي نفهم المعنى المقصود هنا علينا أن نقاطع الآية مع الآية ٢٥٦ من سورة البقرة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التي تجعلنا نستنتج أن آية آل عمران ٢٨ لا تقصد المؤمنين من أتباع الملة المحمّدية فقط، بل المقصود بهم المؤمنون بالله واليوم الآخر والقائمون بالعمل الصالح أي كلّ المسلمين على اختلاف مللهم الدينية، لأنّ الإيمان الذي جاء في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة معناه الالتزام الطوعي بالقيم الإنسانية. وهذا هو المعنى الإنساني للإيمان بالله الذي حثّت عليه الآية، لأنه إيمان مقابل للكفر بالطاغوت أي الكفر بكل أنواع الطغيان، وهذا مبدأ معترف به في كلّ الملل الدينية (الأمم) لأنها كلها تنادي إلى رسالة إلهية واحدة هي الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح. وبناءً على ذلك فإن الآية ٢٨ من آل عمران، بدعوتها المسلمين جميعاً إلى أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض بالتمسّك بالإيمان الإنساني السامي (الإسلام)،

أي بالالتزام بالقيم الإنسانية وعلى رأسها الحرّية في التعامل في ما بينهم، تدعو بالمقابل إلى عدم اتخاذ الكافرين أولياء، وهم الرافضون للتعامل بالقيم الإنسانية والممتنعون عن احترامها واحترام حرّيات الآخرين، وهم الطغاة وأعوانهم والمؤيّدون لهم. هنا نلاحظ دقة التنزيل الحكيم كما عهدناه في كلّ مرّة، فالكفر معناه الموقف العدائي الصريح ضدّ المؤمنين بالحرّية وهم الطغاة وأعوانهم وأتباعهم، ومن الطبيعي أن يتبرّأ المسلمون على اختلاف مللهم منهم ويتّخذوا منهم موقفاً عدائياً صريحاً أي معلناً، بألّا يجعلوهم أولياء ولا يقيموا معهم صداقات... فالآية توضح ضمنياً أن اتّخاذ الكافرين أولياء سيساعد على انتشار الطغيان عند غياب التعامل بالقيم الإنسانية وعلى رأسها الحرّية. فولاء المسلمين بعضهم لبعض ولاء إنساني وبراءتهم من الكافرين من الطغاة المعادين لهم براءة إنسانية دون أيّ حساسيات ذات علاقة باختلاف الملل. على هذا الأساس نفهم أنّ الإنسان يجب أن يكون ولاؤه لكلّ إنسان يؤمن بالقيم الإنسانية ويحترمها مهما كانت ملته الدينية (أي أمّته) ومهما كانت قوميّته، فيتحقق بذلك الاحترام المتبادل بين الجميع ويضمن ذلك حقوق الجميع. وبالمقابل يتبرّأ الإنسان من كلّ من يؤمن بالطغيان مهما كان نوعه لأنه يدعو إلى قهر كرامة الآخرين وهضم حرّياتهم ومنعهم من حقوقهم. وهذا هو المعنى الحقيقي للولاء والبراء في الدين لأنه يبيّن عالمية الدين الإسلامي وعدم تقوقعه في حدود زمانية وجغرافية معيّنة. ويصبح بذلك المعنى الأسمى للولاء الديني هو الولاء الإنساني لأن الدين الإسلامي دين إنساني يدعو إلى القيم الإنسانية العالمية بغضّ النظر عن الملل الدينية من منطلق أنّ القيم الإنسانية هي العامل المشترك بين جميع الولاءات بحيث لا ينبغي أن يختلف الناس عليها فيكون الولاء الأول والأهم للقيم والبراء الأول والأهم يكون من الظلم والطغيان وأصحابهما، وعلى هذا الأساس يكون الولاء للإسلام ولاءً للقيم الإنسانية وليس ولاءا للأشخاص.

٣- المواطنة (الولاء للوطن "الولاء للدّيار")

يحتاج الإنسان مهما كانت ملّته الدينية (أمّته)، عندما يقيم في بلد ما، أن يحدّد نوع العلاقة التي يجب أن يتعامل بها مع الآخر سواء على المستوى: السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي والفكري في ظلّ العولمة والعالمية التي تفرض نفسها بشدّة في العالم الحاضر. وهنا نجد السؤال التالي يطرح نفسه بشدّة: كيف يتعامل الإنسان مع وطنه الأمّ أو الوطن الذي يقيم فيه؟ للإجابة عن هذا السؤال علينا أن نفهم أولاً ماذا يعني الوطن للإنسان.

أ- الديار "الوطن"

لم يرد ذكر مصطلح الشعب في التنزيل الحكيم قبل عهد النبي (ص)، لأنّ الشعب هو التجمّع الإنساني الأكثر رقيّاً إذ يأتي في مرتبة فوق الأمّة وفوق القوميّة والفرد فيه هو المواطن. وأوّل تشكل لشعب في شبه جزيرة العرب كان بعد الهجرة النبوية، عندما وصل النبيّ (ص) إلى يثرب فكتب الصحيفة مع اليهود وكتب فيها أولاً أنّ المؤمنين أمّة، واليهود أمّة وأنهم متساوون في الحقوق والواجبات وأنّ السلطة فيها للنبي (ص). نلاحظ هنا أمراً في غاية الأهمية يتجلى في أنّه أطلق على أتباعه (ص) اسم أمّة واليهود اسم أمّة، والجميع يعيش في منطقة واحدة هي يثرب، وقام بالتسوية بينهم في الحقوق والواجبات، وهذا يجعلنا نستنتج أنّ أوّل شعب بالمفهوم المدني تشكّل في يثرب وعلى هذا الأساس سمّاها (ص) المدينة، لأنّ الدولة كيان معنوي يتأسّس من خلال تجمّع أفراد يمثلون الشعب في منطقة جغرافية معينة يخضعون لسلطة الدولة التي تسيّر أمورهم، بحيث ينقادون إليها جميعاً بموجب القانون الذي تفرضه عليهم. وبناءً على ذلك فإن الشعب عبارة عن مجموعة من الناس تتألف من أمّة واحدة أو أمم مختلفة، ومن قومية واحدة أو عدّة قوميات، يعيشون

جميعاً ضمن منظومة حقوقية واقتصادية واحدة على أرض محدّدة تسمّى الوطن (الديار).

انطلاقاً من ذلك نفهم أنّ الوطن يتكوّن من العناصر الثلاثة مجتمعة وهي: الشعب، السلطة، حدود جغرافية معيّنة. ولضمان استقرار الوضع في هذا الوطن يجب أن ينبني أساساً على مبدأ "الولاء للوطن" أو ما يسمّى "المواطنة"، وهو ولاء لا يتناقض مع الولاء الأممي ولا القومي ولا الديني خاصّة. ولنأخذ مثالاً على الشعب سكان الولايات المتحدة الأميركية:

١- مجموعة من المسلمين المؤمنين هم من أمة محمّد وولاؤهم الأممي للأمّة المحمّدية فهم يتّجهون جميعاً إلى نفس القبلة ويصومون رمضان.

٢- جزء من هؤلاء قوميتهم عربية، ويتكلمون العربية في بيوتهم، والإنكليزية في عملهم، ولا تعارض في ذلك. وولاؤهم في البيت للغتهم الأمّ. وجزء آخر تركي وآخر فارسي... وكلهم لهم نفس الوضع.

٣- هؤلاء جميعهم مواطنون في أميركا وهم جزء من الشعب الأميركي، وولاؤهم السياسي والمصلحي للولايات المتحدة الأميركية، أي ولاؤهم للقانون الساري المفعول فيها وملتزمون به لأن مصلحة شعب أميركا عندهم فوق مصلحة أي شعب آخر. ونرى أنّه لا تناقض أبداً بين هذه الولاءات الثلاثة. وقس على هذا في كلّ دولة من دول العالم.

وبما أنّ الولاء للإسلام ولاء للقيم الإنسانية، فهو أوّل الولاءات باعتباره ولاءً للقيم الإنسانية السامية التي يحثّ عليها الإسلام وهي القاسم المشترك بين كلّ الملل الدينية (الأمم) والتوجّهات الفكرية والسياسية، فبالتالي هي مكسب إنساني لا يجوز التفريط فيه أبداً ويجب أن يتّفق عليه الجميع لأن هذا هو المطلب الأساس الذي جاءت به الرسالات الإلهية.

أمّا الولاءات الأخرى فتأتي كلها بعد الولاء للقيم الإنسانيّة مرتّبة، ولا يتعارض بعضها مع بعض، إذ أول ولاء يأتي بعد الولاء للقيم الإنسانيّة وهو الولاء للوطن

كما سنشرحه لاحقاً لأهمّيته، ولا يقلّ أهمية عنه ولا يتعارض معه ولا مع الولاء القومي كما سنشرحه لاحقاً. ثم يأتي بعد ذلك الولاء الأممي أي الولاء للملّة الدينيّة، فمثلاً المؤمن من أتباع الأمّة المحمّدية يأتي ولاؤه لملته المحمّدية بعد ولائه للقيم الإنسانيّة، باتباع ما جاء في الملة المحمّدية من شعائر. والمسلم من أهل الكتاب يكون ولاؤه لشعائر ملته بعد ولائه للقيم الإنسانيّة وهكذا... بينما البراء في الإسلام (كلّ الملل الدينية) فهو براء من الإجرام، أي إنّ على المسلمين جميعاً مهما كانت مللهم الدينية (أممهم) التبرّؤ من الطغيان وأهله وأتباعه الذين يقطعون صلتهم بالله قطعاً لا وصل فيه بعدم إيمانه بالله واليوم الآخر وما ينجر عنه من عدم الاقتناع بالقيم الإنسانية واحترامها. فهؤلاء المجرمون هم الأعداء الحقيقيّون لكلّ المجتمعات الإنسانية لأنهم لا يمتلكون قناعة احترام القيم الإنسانية وعلى رأسها الحرّية، ولا يحرصون على نشر العمل الصالح المنبعث من الإيمان بالله لبناء المجتمع بناءً صالحاً.

ثمّ يأتي بعد ذلك الولاء للقومية، وهو ولاء يساعد على الحفاظ على الهويّة لأيّ إنسان مهما كان البلد الذي يعيش فيه ومهما كانت ملته الدينية، لأنه من خلال الولاء القومي يحافظ الإنسان على لغته الأم، وليس لهذا الولاء أيّ براء.

ب- كيف تكون المواطنة (الولاء للوطن)؟

إن العلاقات بين الأفراد في أيّ دولة في العالم، تُبنى على القيم الإنسانية بحيث يكون الولاء لها من قبل كلّ أفراد المجتمع باحترامها والعمل بها، بينما البراء من قبلهم يتوجّه إلى الإجرام بالتبرّؤ من الإجرام والمجرمين وأفكارهم الطاغية والهدّامة لأيّ مجتمع. ويبقى القانون هو السيد في أيّ مجتمع، وواجب احترامه من قبل الجميع، حكاماً ومرؤوسين، حتّى يسود الاستقرار في الدولة.

لكن المشاكل تظهر في أيّ دولة عندما تتحوّل الولاءات الأقل مرتبة من المواطنة، وهي الولاء القومي والأممي، إلى ولاءات استئصالية متعصّبة، بحيث

تصل العلاقات بين الأفراد في الدولة الواحدة إلى درجة العدوانية. وهذا ما حصل تاريخياً وما زال يحصل في مختلف الدول، بحيث تتطوّر الأمور عند التعصّب لهذين الولاءين حتى تصل إلى حدّ العنف والصراعات الشديدة. وأسوأ أنواع التعصّب يحصل عندما تضيق دائرة الولاء الأممي وخاصّة "السلوك الديني" المنفتح في الأصل على الولاءات الأخرى، ليتحوّل إلى تعصّب مذهبي وسياسي. مع أنّ الولاء الأممي في حقيقته قناعة فردية تُبنى على علاقة شخصية بين الإنسان وربّه، ولا يحمل أبداً طابع التعصّب كما يجب ألّا تكون له أيّ علاقة بالسياسة والصراع على السلطة حتّى لا تعمّ الفوضى في الدولة.

إنّ الإسلام كما عرفناه سابقاً، دين عالمي يستوعب كلّ اختلافات الملل، ولا يخضع أبداً لحسابات متّصلة بالصراع على السلطة. وعلى هذا الأساس، من المهمّ جدّاً لضمان استقرار أيّ دولة، أن يُبعَد مفهوم الولاء الأممي عن السلطة حتى يصبح من الممكن بناء دولة مدنية ديمقراطية ليبرالية أو بمعنى آخر دولة المواطنة التي تُحترم فيها حرّيات الأفراد مهما كانت توجّهاتهم الفكرية أو الدينية وبالتالي تضمن حقوقهم كمواطنين، بحيث يصبح للمواطن فيها حقوق إنسانية مهما كانت ملته الدينية وقوميته، وعليه مجموعة من المسؤوليات الاجتماعية التي يجب عليه الالتزام بها، لأنه كلما قلّ تدخّل الدولة في خيارات الناس الدينية والدنيوية اقتربت من الله. وأول من حقّق ذلك تاريخياً هو النبيّ (ص) بما أنجزه في المدينة المنوّرة، بحيث قفز بالمجتمع فيها قفزة نوعية إلى الأمام بإنشاء مجتمع مدني مبنيّ على التعدّدية، ومن هنا ظهر مبدأ المواطنة.

إن كانت مهمّة الدولة المدنيّة تتمثّل في ضمان حقوق وحرّيات جميع المواطنين باعتبارها مبنيّة على مبدأ دولة المواطنة أي المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات مهما كانت أممهم وقومياتهم، يجب أن ينبثق عن ذلك وجوب توفر ولاء من قبل مواطنيها لها ويكون أقوى من الولاءين الآخرين، القومي والأممي، ويتمثّل في الولاء للوطن، وهو ولاء يُبنى على وجود شعور

الانتماء إلى الوطن في نفوس أفراد شعب أي دولة والاستعداد للحفاظ على وحدته والدفاع عنه إذا لزم الأمر. فالمواطنة كمبدأ سياسي، تعمل على ضبط عملية التدافع في المجتمع بضوابط من أهمها مصلحة الوطن ووحدته القائمة على احترام التنوّع، بغرض الاستفادة من هذا التنوّع في تمتين قاعدة الوحدة الوطنية، بحيث يشعر كلّ أفراد المجتمع بأن مستقبلهم مرهون بمدى نجاح هذه الوحدة التي لا تلغي بأيّ شكل من الأشكال خصوصياتهم، مع الالتزام بالحياد الإيجابي تجاه قناعات ومعتقدات وأيديولوجيات مواطنيها.

وبناءً على ذلك فإنّ تفعيل شعور المواطنة (الانتماء للوطن والدفاع عنه) كمبدأ أساسي في المجتمع يُعدّ الآليّة الفعّالة للحدّ من الفتن والصراعات الطائفية والعرقية والعنصرية في أيّ دولة وفق قاعدة المساواة وعدم التمييز بين أفرادها، لأنّها كمبدأ دستوري، لا تلغي عمليّة التدافع والتنافس في الفضاء الاجتماعي، بل تضبطها بضوابط الوطن ووحدته القائمة على احترام التنوّع، بحيث تسعى بوسائل قانونية وسلمية للاستفادة من هذا التنوّع في تمتين قاعدة الوحدة الوطنية، حتى يشعر الجميع بأنّ مستقبلهم مرهون بها، وأنها لا تشكّل نفياً لخصوصياتهم، وإنما هي مجال للتعبير عنها بوسائل منسجمة مع مكتسبات الحضارة. وبالتالي يصبح ولاؤهم الوطني للقانون الساري المفعول في الوطن والمطبّق على كلّ أفراد المجتمع. فالمواطنة تُبنى على العلاقة القانونية والاقتصادية بين أفراد المجتمع.

٤- العقيدة القتالية

الولاء للإسلام بالمعنى الذي جاء به التنزيل الحكيم ولاء للقيم الإنسانية لأنه يحفظ للإنسان إنسانيته وكرامته ويصون حرّيته خاصّة. ومن خلال هذا المعنى نفهم أنه عندما يؤمن أفراد أيّ مجتمع بضرورة الحفاظ على مبدأ التعامل بالقيم

الإنسانية على اختلاف مللهم الدينية (أممهم) وتوجّهاتهم الفكريّة والسياسيّة، فإنّ ذلك يولّد لديهم عقيدة الرغبة في الدفاع عن القيم الإنسانية عند شعورهم بأنه قد جرى المساس بحرمتها والحطّ من شأنها باستبدالها بأفكار الطغيان والتعدّي على حقوق الآخرين. هذه العقيدة التي قد تتحوّل أحياناً إلى عقيدة قتالية عند الضرورة، يجب أن تكون عقيدة فردية أي تكون من منطلق شخصي.

أمّا الولاء للوطن أو المواطنة، فتولد لدى أفراد المجتمع (المواطنين) عقيدة الدفاع عن الوطن بفضل وجود الشعور بالانتماء للوطن بداخلهم، إيماناً منهم بضرورة الحفاظ على وطنهم والوقوف صفاً واحداً ضدّ أيّ عدوان قد يهدّد وطنهم بأيّ شكل من الأشكال، بحيث تصبح هذه العزيمة جماعية لدى كلّ المواطنين أمام الخطر الذي يهدّده ويهدّدهم، وهذا ما يسمّى العقيدة القتالية الجماعية التي يجب أن تكون في فكر كلّ مواطني الدولة المدنية. وبناءً على ذلك سنشرح عقيدة الولاء للإسلام اي العقيدة القتالية الفردية، وعقيدة الولاء للوطن أي العقيدة القتالية الجماعية، كلّ على حدة كما يلي:

أ- العقيدة القتاليّة الفرديّة (عقيدة الدفاع عن القيم الإنسانيّة وحرّية الاختيار "كلمة الله العليا")

الإيمان بالولاء الإسلام يستوجب ضرورة الدفاع عن القيم الإنسانية وعلى رأسها قيمة الحرّية، ويولّد لدى الإنسان رغبة قويّة في الوقوف في صفوف من يدافعون عن القيم الإنسانيّة في كلّ مكان في العالم ضدّ الطغيان وأصحابه. فقد وُلد الإنسان حرّاً، ومن حقّه الوقوف في صفّ أخيه الإنسان عندما يرى أنّ حرّيته تعرّضت للتعدّي من الآخر الطاغي الذي يمارس الإكراه والعنف كوسيلة لتحقيق مطامحه ومطامعه الشخصيّة بسحق حرّيات الآخرين وحقوقهم.

وهذه المواجهة مهما كانت وسيلتها، ابتداءً باللسان أو القلم أو التظاهر أو حتى بالسلاح في الحالات القصوى، مواجهة مشروعة لأنها تتضمّن محاربة

الطغيان بكلّ أنواعه ونصرة القيم الإنسانية التي جاء كلّ الرسل وجاء خاتم الأنبياء والمرسلين للدعوة إليها وترسيخها. وهذا هو الجهاد في سبيل الله الذي نادى إليه الله عزّ وجلّ في محكم تنزيله وهو الجهاد في سبيل الحرّية (حرّية الاختيار على كلّ المستويات) التي تُعدّ كلمة الله التي سبقت لأهل الأرض، وإلى الاعتراف بالآخر المخالف لنا في العقيدة وفي الرأي، لأن العقيدة الجهادية للإنسان المسلم مهما كانت ملته الدينية تتمثّل في إيمانه بوجوب الدفاع عن حقوق الإنسان وحرّية الاختيار لديه مهما كانت ملّته وعقيدته وقوميّته وتوجّهه السياسي، وهي قناعة شخصية في فكر كلّ إنسان يؤمن بالقيم الإنسانية، وله حرّية التعبير عنها بمبادرة شخصية تجسّد رغبته الحقيقية في نصرة هذه القيم والوقوف في وجه الطغيان.

ويستطيع أن يقوم بذلك في أيّ مكان يرى فيه أن حقوق الإنسان مهضومة ويرى أنّ من واجبه نصرتها والدفاع عنها بصفة فرديّة، لكن بشرط أن تكون منظمة وفي إطار قانوني عن طريق تطوّعه في المنظمات الدولية لحقوق الإنسان كقوات "حفظ السلام" وغيرها... لأننا لا نريد أن يفهم القارئ من كلامنا هذا أننا نؤيّد العمليّات الانتحاريّة التي يقوم بها البعض باسم الدين كالعمليّات الانتحاريّة التي تكون وراءها الجماعات الإرهابية المتطرفة، فنحن نعارضها بشدّة لأننا نرى أنّ هذه العمليات لا علاقة لها بالدين إطلاقاً، ولا تخدم القيم الإنسانية بأيّ ناحية من النواحي، بل هي عمليات هدّامة هدفها زعزعة استقرار المجتمعات وإحداث الفوضى فيها لأغراض سياسية أو أطماع ومصالح شخصية لأفراد ما، لأن العقيدة القتالية الفردية إذا تحوّلت إلى مبدأ جماعي في إطار غير قانوني من أجل فرض إيديولوجيا معيّنة بالإكراه والعنف فإنها تحوّل الموت إلى مؤسّسة لأنها تدرّب أفرادها على قتل أنفسهم مع الآخرين، فيجب أن نجابهها بكل ما أوتينا من قوة لأنها مؤسّسة تنشر الموت على عكس الجيوش النظامية في العالم التي تدرّب جنودها على المحافظة على

حياتهم وحياة الآخرين. وهذه هي حال المنظمات الإرهابية التي تنشر الموت تحت أيّ غطاء إيديولوجي كان، وهذ أخطر ما يواجه الإنسانية خصوصاً في الوقت الراهن. وبناءً على ذلك فإنّ العقيدة القتاليّة الفرديّة النابعة عن الولاء للإسلام (الولاء للقيم الإنسانية) لا ينبغي أن تكون لها أيّ علاقة بالسلطة في أيّ دولة كانت ولا يجب أن تكون لها إيديولوجيا ما، لأن هدفها الدفاع عن حقوق الإنسان، ويجب أن تكون منظمة وخاضعة لرقابة ولا تكون عشوائية وتلقائية. لذا نجد منظمات حقوق الإنسان العالمية منظمات غير سياسية ولا تخضع لأيّ سلطة، وحتى الحكومية منها تخضع للقوانين الدولية لحقوق الإنسان التي وضعتها منظمة الأمم المتحدة.

ب- العقيدة القتالية الجماعية (عقيدة الدفاع عن الوطن أو الديار)

الوطن هو مكان السكن والعيش المشترك بين جميع المواطنين، لذا فإنّ الولاء للوطن الذي يُعدّ شعوراً وجدانياً، هو الذي يدفع بالإنسان إلى الاستعداد دوماً للتضحية في سبيله، والإخلاص له، والعمل من أجل رقيّه وتقدّمه والدفاع عنه في حال مواجهته للمكاره والمحن. فالولاء للوطن هو الذي يدفع بالفرد في المجتمع إذا ما تعرّض وطنه للعدوان. والوطن كما سمّاه التنزيل الحكيم "الديار" من أسمى ما يجب على الإنسان الدفاع عنه كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ...﴾ (الحج ٣٩-٤٠)، لأن الديار هي الوطن الذي قد يكون صغيراً كإمارة موناكو وقد يكون كبيراً كالولايات المتحدة الأميركية، والإنسان بدون دياره (وطنه) تائه في الكون، مهما كانت أمّته ومهما كانت قوميّته، لأنّ الإنسان بحاجة إلى وطن (ديار) يعيش في ظله ويتمتّع فيه بكلّ حقوقه ويؤدّي فيه بالمقابل الواجبات المترتبة عليه لتحقيق الانسجام والوحدة فيه. ويدافع عنه بالنفيس والغالي عند تعرّضه للتهديد لأنّ

تعرّض الوطن للخطر يؤدّي إلى تعرّض حياة الأفراد فيه للتهديد والخطر أيضاً، ودفاع الإنسان عنه دفاع عن نفسه وأسرته وأهله وحياته. وقد عبّر التنزيل الحكيم بدقة عن مسألة وجوب الدفاع عن الوطن وأنّ العلاقات بين الشعوب مبنيّة على احترام كلّ دولة لحرّية الدول الأخرى وحدودها الجغرافية وسيادتها في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة ٨–٩). فأمّا الآية الأولى فتبيّن أن العلاقة يجب أن تكون ودّية وسلمية بين الدول في حال احترام كلّ واحدة لسيادة الدول الأخرى وحدودها الجغرافية، وطلب أن تُبنى العلاقة على العدل والبرّ لتحقيق التوافق الدولي والانسجام بين الشعوب حتى تتمكّن من التمتّع بكلّ أنواع التبادل التجاري، والثقافي والتعليمي... وما تثريه هذه التبادلات على كلّ شعب لتحقيق رغد العيش له والمساهمة في تطويره على كلّ المستويات. وأمّا الآية الثانية فتبيّن أنه إذا تعدّت دولة على دولة أخرى وهو ما عبّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾، يحقّ التصدّي للدولة الغاصبة ومعاداتها ومحاربتها بشتى الطرق، ويصبح في هذه الحالة دفاع الإنسان عن وطنه دفاعاً عن وجوده وحياته. هذه هي العقيدة القتالية الجماعية التي نجدها عند كلّ شعب يشعر بأنّ وطنه مهدّد بقيام أفراده بالدفاع عنه والتصدّي للهجوم ضدّه، والقتال في سبيل الدفاع عن الوطن (الديار) مهمّة كلّ سكّان الوطن (المواطنين) على اختلاف قوميّاتهم وأممهم، ولا يُعدّ قتالاً في سبيل الله ولكنّه قتال مشروع وشريف ولا يقلّ مكانة عن القتال في سبيل الله لأنه يندرج تحت غطائه فهو نوع من أنواع القتال في سبيل الله لأنه وقوف في وجه الظلم والطغيان بوجه من الأوجه. فالإنسان عندما يتمتّع في وطنه بحياة سعيدة يتمتع فيها بكلّ حقوقه ويشعر فيها بانتشار ثقافة الحرّية

والعدالة وممارستها الفعلية في المجتمع، فإنه ملزم بالدفاع عن وطنه ضدّ كلّ أنواع العدوان لأنّ سلامة وطنه (دياره) سلامة لحياته وحياة أسرته واستقرار لها.

هذه العقيدة الجماعية يُعبَّر عنها في العصر الحالي بالتجنيد الإلزامي في صفوف الجيش الوطني للدولة في حال حصول العدوان على الوطن (الديار)، وأفراد المجتمع مهما كانت مللهم أو قوميّاتهم ملزمون بالنهوض للدفاع عن وطنهم (ديارهم) ضدّ العدو، لأن الولاء للوطن أو المواطنة يفوق كلّ الولاءات الأخرى ويعلوها مرتبة، غير أن الولاء للوطن يتغيّر بتغيّر الوطن.

٥- الفرق بين الشاهد والشهيد

جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران٥٣)، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر ٦٩)، وهنا علينا الوقوف أمام عنصر هامّ من العناصر المذكورة في الآيتين وهو عنصر الشهادة، لنفهم معنى الشهداء والشاهدين وندرك الفرق بينهما. فالشهيد والشاهد اسمان من أصل واحد هو "شهد"، بحيث يُجمع اسم الشهيد على شهداء، فيما اسم الشاهد يُجمع على شاهدين. وهنا نسأل: هل هناك فارق بين شهادة الشهيد وشهادة الشاهد؟

نقرأ قوله تعالى بالنسبة لحالة الشهيد: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (فصلت ٤٧)، بحيث نفهم منها أنه سيعتذر الذين أشركوا بالله، ويضعون الأمر بين يديه تعالى، إذ ليس فيهم من شهد حضورياً انفتاق البراعم عن الثمرات، ولا يعلم أيّ منهم ما تحمل وما

تضع إناث النبات والحيوان والإنسان. ولقد تكرّر القول بهذا المعنى مراراً في التنزيل الحكيم (الأنعام ١٤٣، ١٤٤ والرعد ٨ ولقمان ٣٤). وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النور ١٣)، بخصوص موضوع الشهادة على الزنا، يطلب سبحانه ممّن يرمي الناس بالزنا، أن يأتي بأربعة شهداء، والشهداء جمع شهيد ذكوراً وإناثاً، أي إنه تعالى أمر بأن تكون الشهادة على الزنا شهادة حضورية، وحدّد عدد الشهداء بأربعة.

نلاحظ أيضاً في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ...﴾ (الحج ٢٨)، أنّ المقصود بالخطاب هنا حجّاج بيت الله الحرام الذين يشهدون مناسك الحج من طواف ووقوف بعرفة...، وهذا لا يكون إلّا حضورياً. فالذي يشهد مناسك الحج بالتلفزيون ليس بحاجّ، والشهادة في (ليشهدوا) بالآية شهادة شهيد أي شهادة حضورية. وكذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (الأنبياء ٦١)، إذ يتضح لنا من الآية أن الشهادة في (يشهدون) هي شهادة شهيد أي شهادة حضورية بدلالة قوله تعالى ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾.

أمّا بالنسبة لحالة الشاهد فنقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (الأنبياء ٥٦). ومعنى الشاهد يختلف عن معنى الشهيد، لأن الشهيد يستوجب الشهادة الحضورية، أمّا إبراهيم فليس بشهيد لأنه لم يكن حاضراً أثناء عملية انفطار السماوات والأرض، لكنّه استدلّ واهتدى بقلبه إلى أنّ الله ربّ السموات والأرض هو الذي فعل ذلك، وبذلك فهو شاهد شهادة معرفيّة.

أ- شهادة الشهيد حضوريّة

الشهيد لغة هو الحاضر العارف وعكسه الغائب، فمعرفته بالشيء أو الحدث

الذي شهده معرفة حضورية سمعية بصرية، أي إنّه حتى يصبح أيّ إنسان شهيداً يجب أن يتحقّق شرطان هما:

١- الحضور أي أن يكون سمع أو أبصر شيئاً أو حدثاً.

٢- أداء الشهادة، أو الاستعداد لأدائها حين يُطلب منه ذلك.

نجد ذلك واضحاً في قوله تعال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٨٢). فقد أطلقت الآية اسم الشهيد على الإنسان الذي يشهد البيع والعقد سمعياً وبصرياً ويؤدّي شهادته بما شهد. كما نلاحظ أنّ الآية اشترطت دعوة (شهيدين من رجالكم) حين الحاجة، أي رجلين ممّن حضروا الواقعة ونجد فائدة في الإشارة إلى قوله تعالى ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، فسبحانه قال ذلك لأن الشهيد لا مؤنّث له، فالرجل شهيد، والمرأة شهيد. ولو كان مؤنث الشهيد شهيدة لما أتبعها بقوله ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، ولكان قوله هذا حشواً، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، ومن هنا يتبيّن لنا أنّ شهادة المرأة كانت مقبولة يومها وتعادل شهادة الرجل في كلّ شيء ما عدا عقود البيع الشفهية فقط لكنّها لم تعد تُستعمل في الحاضر.

ب- شهادة الشاهد معرفيّة

أمّا شهادة الشاهد فهي شهادة معرفة وخبرة مكتسبة، وليست شهادة حضورية سمعية وبصرية. نقول هذا، وأمامنا قوله تعالى واضحاً مؤيّداً ما ذهبنا إليه: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف ٢٦، ٢٧، ٢٨).

نحن هنا أمام حادثة حصلت خلف أبواب مغلقة، في غرفة ليس فيها سوى يوسف وامرأة العزيز، ولم يكن ثمّة من حضرها ليكون شهيداً عليها. لكنّ الشاهد الذي شهد من أهلها، إنّما شهد من واقع خبرته بالأدلّة، وبكيفيّة سير الأمور ومنطقية الأحداث بنتائجها. فالرجل الذي يهاجم امرأة ليعتدي عليها، يهاجمها بصدره، بحيث لو قاومته، فإن آثار مقاومتها ستنطبع على وجهه وصدره وثيابه من أمام. أمّا حين تطارد المرأة رجلاً هارباً منها، وتحاول الإمساك به، فستنطبع آثار ذلك على ظهره وثيابه من خلف. وكانت النتيجة أن ظهر كذب امرأة العزيز، وصدق يوسف، بدلالة الآثار. وهذا هو معنى الشهادة المعرفية، لأنّ الشاهد يدلي بشهادته انطلاقاً من خبرة أو دراية أو أرضية معرفية. مثال ذلك من يشهد حضورياً رأي العين انهيار بناء، ثمّ يدلي بشهادته فهو شهيد، أمّا من رأى البناء منهاراً، وأخذ عيّنات منه، وقام بتحليل وفحص المخططات والأساسات، ثم أدلى بشهادته على شكل تقرير فنّي، يشرح أسباب الانهيار الذي لم يكن حاضراً فيه ساعة حدوثه، فهو شاهد.

ت- الله عز وجلّ شهيد شاهد (شهادة حضورية وشهادة معرفية معاً)

جاء في الكثير من الآيات أنّ "الشهيد" اسم من أسماء الله الحسنى كما في

قوله تعالى:

- ﴿... وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران ٩٨)،
- ﴿... إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج ١٧)،
- ﴿... إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ ٤٧)،
- ﴿... أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت ٥٣)،

هذه الآيات توضح لنا بما لا يدعو للشك أن الله عزّ وجلّ شهيد على كلّ شيء لكن علينا أن نشرح كيف يمكن أن يكون سبحانه شهيداً كما وصف نفسه في الآيات؟

لقد ورد في الكثير من الآيات أنّ الله يتّصف بصفات السمع والبصر دون تجسيد، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج ٦١)، وقوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان ٢٨)، بحيث توضح هاتان الآيتان أنّ الله سميع بصير، لهذا نرى أن اسميْ السميع البصير من أسمائه الحسنى، والله عليم بما يسمع ويبصر دون تجسيد. وبما أن الشهيد هو الحاضر العارف أي العالم بما يشهد، فالله عزّ وجلّ في علمه بالوجود وما فيه من طبيعة ومخلوقات وأحداث شهيد على ذلك وعالم به علماً حضورياً سمعياً بصرياً.

السميع البصير ====> الشهيد

وما دام سبحانه وتعالى كامل المعرفة بكلّ شيء سمعياً وبصرياً دون تجسيد، فهو الشهيد على كلّ شيء لكن دون اشتراط الحضور الذاتي كما هو الشأن بالنسبة للإنسان الشهيد، ودون حلول في الكون، فهو يعلم دقائق خلق الوجود بما فيه من طبيعة ومخلوقات لأنه خالقهم جميعاً، ويبصر الناس ويسمعهم لأنه معهم دون تجسيد أينما كانوا كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطلاق ١٢)، فهذه الآية تشرح أنّ علم الله

محيط بكل شيء في الوجود على الإطلاق، وهذا هو جوهر اسم الشهيد. فإن كانت شهادة الشهيد، شهادة حضورية سمعية بصرية، فإن شهادة الله الشهيد كسميع بصير، ترتبط لزوماً بكمال معرفته وتمام علمه كعليم، وتربط بأسماء أخرى له عزّ وجل برباط متين كالمحيط والخبير:

معرفة حضورية ====> سميع بصير ====> شهيد

معرفة علمية ====> عليم خبير ====> شاهد

ختاماً نقول إنّ معنى الشهيد كما جاء في نصوص التنزيل الحكيم يختلف تماماً عن المعنى الذي شاع استعماله في ثقافتنا على أنّ مصطلح الشهيد بمَعنى من قُتل في سبيل عقيدته وملته الدينية. فالمعنى الشائع عندنا لم يأتنا من كتاب الله بل جاءنا من الثقافة المسيحية، بحيث كان هذا المصطلح في أوّل استعماله مرتبطاً بالقتل والدم كما ورد مع كلّ من بولس ويوحنا بحيث نجده في قول بولس على النحو التالي: "وحين سُفك دم استفانوس شهيدك كنت أنا واقفاً وراضياً بقتله، وحافظاً ثياب الذين قتلوه..." (اع ٢٢:٢٠). وأمّا يوحنا فقد جاء على النحو التالي في رؤياه (١٧:٦) عندما قال: "ورأيت المرأة سكرى من دم القدّيسين ومن دم شهداء يسوع، فتعجّبت لما رأيتها تعجّباً عظيماً...". نجده هنا يقدّس الذين دفعوا حياتهم لشهادتهم عن إيمانهم بيسوع المسيح لكنّ المقصود هنا هم الأحياء الذين ضحّوا من أجل شهادتهم ولم يُسمَّوا شهداء بعد موتهم. ثمّ استُعمل بعدها هذا المصطلح لكلّ من مات تحت التعذيب سواء من اليهود أو من الرومان، وخاصة في القرن الثالث الميلادي الذي شهد صوراً من أبشع ألوان التعذيب والاضطهاد لهم، في عهد الإمبراطور دقلديانوس، الذي أمر بهدم الكنائس وإعدام كتبها المقدّسة، وأمر بإلقاء القبض على (الكهنة)، وسائر رجال الدين، فامتلأت السجون بالمسيحيّين، وقُتل الكثيرون منهم بعد أن مُزقت أجسادهم بالسياط والمخالب الحديدية، والنشر بالمناشير، والتمشيط بين

اللحم والعظم، والإحراق بالنار، فانتشر استعمال مصطلح الشهيد بمعنى من قُتل في سبيل عقيدته وملته، حتى إن هذا العصر تحديداً سُمّي "عصر الشهداء (Martyrs)" حسب المصادر المسيحية[1].

وبالتالي نعيد ونكرّر هنا، أنّ الموت لا علاقة له بالشهادة بأيّ شكل من الأشكال سواء الموت مثل الموت في سبيل الوطن رغم كونه قتالاً مشروعاً للدفاع عنه "الديار" وتضحية عظيمة من أجله، لأنّ معنى الشهيد كما رأينا سابقا هو كلّ من شهد أمراً وأدلى بشهادته فيه، لذلك نجد أنّ العلماء هم على رأس الشهداء في كلّ العصور لأنهم يكتشفون أسرار الطبيعة ويقدّمون شهاداتهم عليها معرفية وحضورية. ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى علماء يقدّمون شهاداتهم التي تُعدّ بمثابة الأدلة المادّية على مصداقية نبوّة محمّد (ص)، التي تظهر من خلال تأويل آيات القرآن من التنزيل الحكيم، وهذه الأدلة متنوّعة قد تكون: كونية، تاريخية، علمية، تشريعية اجتماعية. بهذا وحده نصبح شهداء على مصداقية نبوّته ورسالته (ص). فالعلماء هم الذين يقدّمون البيّنات المادّية والعقلانية التي تدعم مصداقية الرسالة والنبوّة، تماماً كما فعل العلماء الذين وضعوا أسس علم الجنين، فجاء عملهم هذا شهادة معرفية تفقأ العين لما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٢-١٤)، لأن إقامة البينات المشهودة على صدق الرسالة المحمّدية لا تتمّ إلّا بالعلم. هؤلاء الشهداء هم الذين تُعدّ شهادتهم حقة والذين نحن في أمسّ الحاجة إليهم لأنهم يساعدون على القفز بالمعرفة الإنسانية قفزات عملاقة نحو الأمام تمكّنها من السير نحو هدف

1 - Claude Lepelley, *Cité dans L'Empire romain et le christianisme*, page 29 et 90, Edition Flammarion.

التطوّر والرقيّ، بهذا فقط يمكن لدولنا ومجتمعاتنا أن تتقدّم وتبني دولاً قويّة ذات أسس متينة، تفتخر بهويّتها الدينية ومنفتحة على الهويّات الثقافية الأخرى دون عقد أو مساس بالحرّيات والحقوق لأحد.

الخاتمة

قد يتساءل البعض لماذا توصّلنا، من خلال قراءتنا المعاصرة للتنزيل الحكيم، إلى نتائج مخالفة لما هو متعارف عليه في ثقافتنا الدينيّة، فنجيبه بأنه بعد أن رأينا كثرة التناقضات التي شوّشت علينا ديننا، وجعلتنا نتخبّط في فوضى فكرية عارمة بحيث أصبح الكلّ يدّعي أنّه وصيّ على الدين، وأنّه هو فقط من يمتلك الحقيقة المطلقة دون سواه، حتّى تعالت أصوات الصحوة الدينية بكلّ موجات التفسيق والتكفير، وضاع الكلّ في زخم هذه الفوضى التي ألهتهم عن الدين كما نادى إليه خاتم الأنبياء والرسل (ص)، أدركنا أنه، حتى نفهم الدين الإسلامي الحنيف كما أراد الله لنا أن نفهمه، يجب علينا وضع التراث على جنب والبدء من النصّ المؤسِّس للدين ألا وهو كتاب الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصّلت ٤٢)، لأنّه خطابه المباشر لنا الذي لا يمكن أن يحمل التناقضات في طيّاته. وبما أنّ الله سبحانه تعالى مطلق وكامل المعرفة لزم أن يتّصف كتابه بصفة الكمال في الطرح أي أن يكون خالياً تماماً من أيّ تناقض وإلّا يفقد مصداقيّته.

فنحن مقتنعون بأنه: بما أنّ خالق هذا الكون الفسيح بهذه بالدقة اللامتناهية، يستحيل أن يرسل للناس كتاباً متناقضاً يفسّره كلّ من أراد كما أراد. فكتابه عزّ وجلّ دقيق دقة الكون، وكما احتاجت الإنسانية إلى وضع منهجية علمية لفهم الكون وأسراره، أصبحت مهمّة مراكز الأبحاث العلمية في الجيولوجيا والفيزياء

والكيمياء والطبّ... فنحن نحتاج الآن إلى منهجية علمية لفهم نصوص التنزيل الحكيم فهماً يبني الإنسان البناء الصحيح ليصبح كائناً يستحق خلافة الله في الأرض.

أمّا أولى قواعد هذه المنهجية فتتمثل في قاعدة الترتيل التي أمرنا الله بها عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل ١–٥)، فالترتيل من أصل "ر ت ل" بمعنى: نسق ونظّم كأن نقول: رتل الشيء ترتيلاً أي نسّقه تنسيقاً، إذاً فالمقصود من عبارة ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ "أي نسّق القرآن تنسيقاً"، وما يجعلنا نقتنع بذلك بأنّ ما جاء في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ بوصفه القرآن بـ"القول بالثقيل" إنّما يقصد به صعوبة فهم معاني ما يتضمّنه من معارف علمية. وإذا كان الأمر كذلك اتّضح لنا أنّ معنى ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ هو نظّم الموضوعات الواحدة الواردة في آيات مختلفة من القرآن، في نسق واحد كي يسهل فهمها. والترتيل هنا هو أخذ الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد وترتيلها بعضها وراء بعض. وبما أن مواضيع القرآن متفرّقة في السور، فمثلاً موضوع آدم موجود في سور البقرة والأعراف وطه وسور أخرى، وكذلك قصص نوح موجودة في سور نوح وهود والأعراف والمؤمنون... فكيف نفهم أيّ موضوع تطرّق إليه كتاب الله الموضوع إذا لم تُرتَّل آياته؟

لهذا تُعدّ عملية الترتيل أساسية في فهم التنزيل الحكيم لكنّها غير كافية وبحاجة ماسّة إلى قاعدة ثانية تتمثل في مبدأ رفض الترادف، لأنّه بهذا المبدأ فقط يمكننا أن نفهم مضامين نصوص كتاب الله فهماً أدقّ، فمن المستحيل أن يرسل الله عزّ وجلّ مع كمال معرفته للناس كتاباً تتساوى مفرداته في المعاني بشكل يضيع فيه من يريد أن يتدبّر معانيها، كما يستحيل أن يكون طبيبٌ مختصّ أدقَّ في كتابة وصفة طبّية يهتم فيها بكل التفاصيل التي تراعي حالة مريضه، من

الله عزّ وجل في كتابه. حاشا لله أن يوصف بذلك، فكتابه الموحى من فوق سبع سموات دقيق دقّة الكون الذي نعيش فيه، ودقة خلق أجسامنا وعقولنا التي يجب أن تستعمل الدقة في فهم نصوصه، باستعمال الترتيل والترادف للبحث عن مصداقية نصوصه بإسقاطها على الواقع الراهن لا الواقع الذي كان قبل ١٤٠٠ سنة، أي الواقع الذي نعيشه الآن، لحلّ الإشكالات التي تواجهنا فيه، وذلك وفق المعارف العلمية التي بين أيدينا والتي تمنحنا فهماً مغايراً تماماً للفهم المتعارف عليه في ثقافتنا الموروثة.

هذا المنهج الذي اعتمدناه يُبنى على أسس علميّة تزيل التناقضات الظاهرة بين نصوص التنزيل الحكيم، وتجعلها منسجمة بعضها مع بعض في نسق فكري متسلسل يؤكّد مصداقية معارفها ومصداقية مبلّغها (ص) وكذا مصداقية قائلها عزّ وجل. فهو بكلّ بساطة منهج يعتمد على تفسير نصوص الكتاب بعضها ببعض، وهذا ما يُسمّى في ثقافتنا الدينيّة "تفسير القرآن بالقرآن" ومعترف به لدى الجميع بأنّه من أفضل التفاسير وأرقاها مستوى وأكثرها مصداقية. فقد قمنا بذلك لأننا مؤمنون كلّ الإيمان بأنّ مفاتيح فهم كتاب الله يجب أن تكون من داخله، بالنظر فيه وتدبّره، بناءً على أرضية علمية متينة تقدّم قراءة معاصرة تساعدنا على النهوض بشعوبنا ودفعها بخطى واثقة إلى الأمام في طريق الرقيّ الفكري والاجتماعي والحضاري.

هذا ما نحن بحاجة إليه في الوقت الراهن الذي تتطاحن فيه الآراء قبل الأبدان محدثة دماراً أينما حلتّ، لأنّها آراء تبنّت لدين الله الذي يدعو إلى التسامح والتآخي والتعاون والتعاطف والرحمة والبناء الإنساني بكلّ ما يتضمّنه من بناءات: عقلي، أخلاقي، اجتماعي، هيكلي... معاني تحمل كلّ مشاعر التنافر والكره والبغض والقسوة والدمار الإنساني بكلّ ما يتضمّنه من أنواع الدمار: عقلي، أخلاقي، اجتماعي، هيكلي، عنصري... وهو دين بريء من هذه المعاني لأنه رسالة عالمية تتنسّم منها روح إلهية تسمو بالعفو والغفران

وتقدّم الفرصة تلو الأخرى للإنسان حتى يتوب كلما أخطأ ليرجع إلى ربّه. إنّها الروح التي يجب أن تنتشر في الكون عامّة لأننا في نهاية المطاف كلنا مسلمون، وتبقى القيم الإنسانية هي الحكم الوحيد في صلاح إسلام أحدنا أو لا.

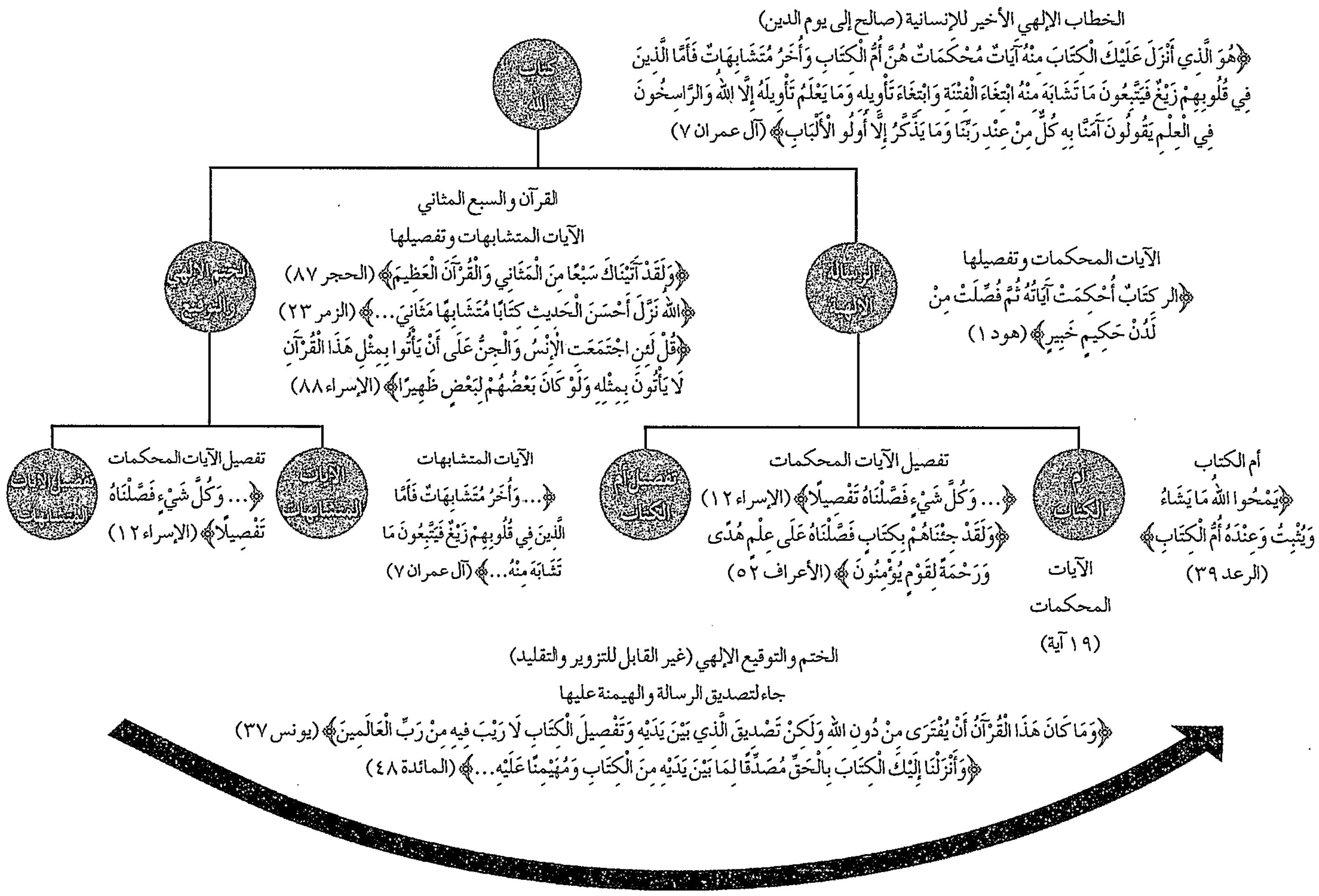
الخطاب الإلهي الأخير للإنسانية (صالح إلى يوم الدين)
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران ٧)
كتاب الله
القرآن والسبع المثاني
الآيات المتشابهات وتفصيلها
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر ٨٧)
﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...﴾ (الزمر ٢٣)
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء ٨٨)
الرسالة الأم
الآيات المحكمات وتفصيلها
﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود ١)
الختم الإلهي والتوقيع
تفصيل الآيات المحكمات
﴿... وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء ١٢)
تفصيل الآيات المتشابهات
الآيات المتشابهات
الآيات المتشابهات
﴿... وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ...﴾ (آل عمران ٧)
تفصيل أم الكتاب
تفصيل الآيات المحكمات
﴿... وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (الإسراء ١٢)
﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف ٥٢)
أم الكتاب
الآيات المحكمات
(١٩ آية)
أم الكتاب
﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد ٣٩)
الختم والتوقيع الإلهي (غير القابل للتزوير والتقليد)
جاء لتصديق الرسالة والهيمنة عليها
﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس ٣٧)
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾ (المائدة ٤٨)

د. محمد شحرور

الإسلام والإنسان

الفوضى الفكرية العارمة في قراءة الإسلام وتطبيقه، تستدعي وضع التراث جانباً والبدء من النصّ المؤسِّس للدين ألا وهو كتاب الله.

يتناول هذا الكتاب الأسس الثابتة للإسلام، الإيمان، المواطنة، والولاء الديني، معتمداً قاعدة الترتيل منهجيّةً له. والترتيل في رأي الدكتور شحرور هو نظم الموضوعات الواحدة الواردة في آيات مختلفة في نسق واحد، وكذلك مبدأ رفض الترادف في فهم نصوص كتاب الله، وتفسير نصوص الكتاب بعضها ببعض.

د. محمد شحرور باحث ومفكّر سوري. حائز دكتوراه في الهندسة المدنية. بدأ بدراسة التنزيل الحكيم عام 1970، ويُعدّ اليوم مرجعاً أساسياً في العلوم القرآنية بعدما أوجد نهجاً جديداً وعلمياً لفهمها. من إصداراته عن دار الساقي 'الكتاب والقرآن'، 'الدين والسلطة'، 'فقه المرأة'، 'دليل القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم'.

ISBN 978-6-14425-947-4

9 786144 259474 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com

دار الساقي